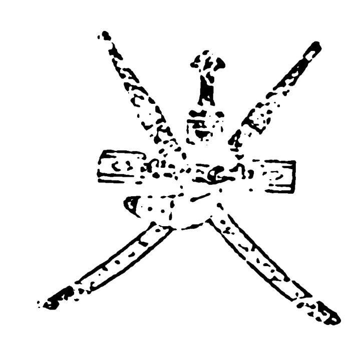

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة
هميان الزاد إلى دار المعاد
للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي
الجزء العاشر
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

هميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الإباضي المصعبي

الجزء العاشر

ثان

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م





بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طـــه

وتسمى سورة الكليم . مكية إلا « فاصبر على ما يقولون » الآية . وإلا « ولا تمدن عينيك » الآية .

وعن أبى رافع : أضاف النبى ﷺ ضيفا فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن أسلف منه دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا إلا برهن فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال : أمَا والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض فلم أخرج من عنده حتى نزلت : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » .

وآيها مائة وخمس وثلاثون .

وقيل : مائة وأربعون .

وقيل : مائة واثنتان وأربعون .

وقيل : مائة وأربع وثلاثون .

وكلمها ألف وثلاث مائة وإحدى وأربعون .

وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون .

قال ﷺ : أعطيت طـه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فاتحة القرآن وخواتم السورة التى ذكرت فيها البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة . والنافلة : الزيادة .

وعنه ﷺ : لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه . وعنه ﷺ : من قرأ سورة طه له يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار .

وقالوا : مَن كتبها وجعلها فى خرقة حرير أخضر وقصد يريد التزوج إلى قوم أجابوه وتم له . وإن قصد إصلاحا بين قوم لم يخالفه منهم أحد . وإن مشى بين عسكرين افترقوا ولم يقاتل بعضهم بعضا ، وإن شربها وجد مايطلب من السلطان . وإذا استحمت بمائها من ليست متزوجة تزوجت سريعا بسهولة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه) أمال أبو بكر وحمزة والكسائى الطاء والهاء وورش وأبو عمرو وقيل : ونافع الهاء . وأخلص الباقون الفتح . وإنما أخلص ورش وأبو عمرو فتح الطاء لاستعلائها وهما من أسماء الحروف .

وقيل : معناه رجل ، على لغة نجد .

وقيل : على لغة عُكل .

وقيل : على لغة نبط ، وهو قول ابن جبير . قيل : على لغة القبط . وقيل : يا إنسان على لغة القبط . وقيل بالسريانية وقيل : لغة عجمية فى عك بن عدنان أخى معد بمعنى يا رجل .

والمراد بالرجل والإنسان النبى ﷺ .

وقيل : هو من أسماء النبى ﷺ نداء له .

وقيل : معناه يا جبريل بالسريانية . وقيل : بغيرها .

وعن عكرمة : طه : يا رجل بالحبشية .

وقيل : قَسم أقسم الله بطَوله أى جُوده وبهدايته .

وقيل : الطاء من اسمه طاهر ، والهاء من اسمه الهادى .

ويصح أن يكون الأصل يا هذا قلبت الياء طاء فحذفوا الذال وألفها ولا يخفى ضعف هذا ، إلا إن كان ذلك القلب لغة قوم وأنشد الطبرى فى ذلك :

* دعوت بطه فى القتال فلم يجب *

أى برجل أو بإنسان وبهذا .

ومثله :

* إن السفاهة طه من خلائقكم *

ولا دليل فى ذلك باحتماله القسم .

والهاء تمد مدا طبيعيا والطاء مدا مشبعا .

وقرأ الحسن طه بإسكان الهاء وفسر بأنه أمر بالوطء ، وأن النبى ﷺ كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه ، ثم على الأخرى ، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا . والأصل طأ قلبت الهمزة هاء أو قلبت فى المضارع وبنى عليه الأمر ، أو الأصل طأ بالهمزة أو بألف عن همزة ثم ألحق هاء السكت فحذفت الهمزة أو الألف ، أو هو من يطا بالألف حذفت لشبه الجزم وألحق هاء السكت .

ويجوز أن يكون أصل طه بعدم الإسكان طاه بالألف بدلا من الهمزة وها ضمير للأرض حذفت ألف هاء وأما ألف طا فحذف خطًّا باتفاق ونطقا على قراءة .

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) الجملة خبر طه إن جعلنا طه بمعنى القرآن أو السورة والرابط على الأول إعادة المبتدأ بلفظه والعموم على الثانى .

وإن جعل طه قسما فالجملة جواب أو نداء فالجملة مدعو لها .

وإن جعل أمرا أو خبرا لمحذوف أو طائفة من الحروف ، فالجملة مستأنفة .

وحمزة والكسائى يميلان أواخر هذه السورة من لتشقى إلى ومن اهتدى .

وورش بين بين وأبو عمرو يميل ما فيه راء نحو تترى وما عداه بين بين والباقون يخلصون الفتح .

وأنزل الله ذلك تخفيفا عنه فى قيام الليل ، وكان يقدمه كله ولذا قال بعضهم : هذه ناسخة لفرض قيام الليل المذكور فى المزمل .

وقيل : لما رأى المشركون من قريش اجتهاده ﷺ فى العبادة وضيق عيشه قالوا : إن محمدا مع ربه فى شقاء .

وقيل : قالوا : ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك فنزلت الآية .

وقيل : كان يقدم على رجل واحدة فنزل عليه ذلك .

وروى أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

والشقاء بمعنى التعب ، كقولهم : أشقى من رائض المهر ، وسيد القوم أشقاهم .

وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك فنزل ذلك ردًّا عليهما بأن القرآن سبب للسعادة ، وتعريضاً بأنهما وأمثالهما الأشقياء الشقاوة الدائمة .

وقيل : المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش . وعدل عن التعب إلى الشقاء تعريضاً بسعادته وشقاوة من خالفه .

وما مر من قراءة الحسن طه بالإسكان لا ينافى ما ذكره الشيخ هود من أنه فسر طه بالفتح بيا رجل لأن هذا تفسير لقراءة غيره أو له قراءتان أو هو تفسير لقراءته بالإسكان .

ويصح إرجاع الهاء الساكنة لموضع الصلاة فهى ضمير مذكر ، أمره أن يطأ موضع الصلاة برجليه :

(إِلَّا تَذْكِرَةً) استثناء منقطع أى لكن أنزلناه تذكرة والأصل إلا تذكيراً لأن اللام صحيحة وليس بدلا من محل لتشقى ؛ لأن الشقاوة غير التذكرة اللهم إلا أن يقال بدل إضراب تابع للمحل ؛ فإن تشقى مؤول بمصدر مجرور باللام ومحل المجرور النصب بأنزلنا .

وقرئ ما نزل بالبناء المفعول ورفع القرآن وليس تذكرة مفعولا لأجله لأن الفعل الواحد لا يتعدى لعلتين إلا بتبع كالعطف كما لابن هشام .

وقال شيخ الإسلام : التحقيق جواز تعديته إليهما ، أو إلى أكثر فى غير العقليات كما هنا ؛ لأنها علامات . ولا مانع من اجتماع علامات على شىء واحد . ومنعه فى العقليات للزوم المحال كالجمع بين النقيضين .

ويجوز قطعاً جعله مفعولا لأجله إذا علقت اللام بمحذوف نعت للقرآن أو حال له أى ما أنزل عليك القرآن المنزل لتتعب فيه أو منزلا أو ثابتاً لتتعب بتبليغه لأن تذكرة حينئذ تعليل لمجموع أنزلنا عليك لتشقى .

ومنع القاضى إياه سهو . وقيل : تذكرة حال من الكاف أو القرآن على تأويله باسم الفاعل أو تقدير مضاف أو مفعول مطلق لمحذوف والمحذوف حال ولام الجر واجبة فى قوله : « لتشقى » لأن فاعل الشقاء وفاعل الإنزال متغايران .

(لِمَنْ يَخْشَىٰ) لأنه المنتفع به .

وعن مجاهد : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى فى الصلاة إلا تذكرة لمن يخشى ويتوسط ويداوم وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم . وذكروا أن رسول الله ﷺ رأى حبلا ممدودا بين ساريتين فى المسجد فقال : ما هذا ؟

فقالوا : فلانة تصلى ، فإذا غُلبت تعلقت به .

فقال : لتصل ما نشطت أو عقلت ، فإذا غُلبت فلتقم .

(تَنزِيلًا) منصوب بمحذوف أى نزلناه تنزيلا أو هو بمعنى القرآن مفعول ليخشى وفكر تعظيما

ويجوز أيضاً فى هذا الوجه أن يكون مصدرا .

ويجوز أن يكون تنزيلا منصوبا على المدح أو بدلا من تذكرة إن جعل تذكرة حالا .

وإن جعل تعليلا ملا؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه ولا بنوعه؛ فإن المعنى حينئذ ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتنزيل أو تنزيل سورة كذا وقرئ تنزيل بالرفع خبر لمحذوف.

(مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَاتِ الْعُلَا) جمع عُليا كـكبرى وكُبَر. وهذا إلى آخره تفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذه صفاته وأفعاله.

وبدأ بخلق الأرض والسموات لأنها أصول العالم وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس، ووصف السموات بالعلو دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها ومن متعلقة بتنزيلا أو بمحذوف نعت له.

وفى قوله: ممن، وقوله: الرحمن. وقوله: الله التفات من التكلم فى قوله: « ما أنزلنا » إلى الغيبة. وذلك أن الأسماء الظاهرة من قبيل الغيبة، وأما ضمائر الغيبة بعدها فتبع لها.

وفائدة الالتفات التفنن فى الكلام أعنى سلوك فنين أى طريقين، فإنه يفيد حسناً وقد ذكره كثير فى البديع

وأيضا هذه الصفات تشرُف مع لفظ الغيبة وأيضاً أسند إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن أولا ثم ثنى بالنسبة إلى من اختص بصفات عظيمة فضوعف التفخيم من جهتين ومَن هذه صفاته يجب الإيمان بكلامه والانقياد له.

ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه.

(الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) استولى. وبسط الكلام فى ذلك فى سورة الأعراف والرحمن مبتدأ وجملة استوى خبر وإن جعلنا الرحمن خبرا لمحذوف على المدح فالجملة خبر ثان أو خبر لمحذوف.

وقرئ بجر الرحمن بدلا من مَن أو بيان لا نعت؛ لأن مَن لا تنعت. وعلى الجر فالجملة خبر لمحذوف. و لاستواء على العرش ـ كما مرت الإشارة إليه ـ :

كناية عن الملك والقهر كناية مشهورة . قال : استوى فلان عرشه أى سريره أى ملك وقهر ، وإن لم يكن له سرير ، وأعقب بذكر العرش لأنه أجرى منه الأحكام والمقادير على ما شاء فى الأزل من ترتيب وغيره .

(لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) ملكا وخلقا وأما نفس السموات والأرض فدل على ملكه لهن مخلقه لهن وفى ذلك دليل على كمال قدرته .

والثرى : الأرضون السبع . والأرض فيما ذكر أراد بها الجنس ، فهن له وما تحتهن له .

وقيل : الثرى : أسفل الأرض السابعة وآخرها وقيل : المراد بما تحت ذلك الصخرة التى تحتهن .

وقيل : الأرضون على ظهر ثور والثور على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء اخضرت السماء بها ، وهى المذكورة فى سورة لقمان والصخرة على الثرى ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله ويوم القيامة يسيل البحر فى جوف الثور .

وقيل : الثرى هذا الثرى الذى نحن عليه ، فالذى تحته هو الأرضون

وأصل الثرى : التراب الندىّ وفسر به بعضهم الآية .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) تعلق به . (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) تعليل نائب عن جواب إن . وإن شئت فقل : جوابها محذوف . وذلك تعليل بلا نيابة .

وإن تجهر بكلام فالله غنى عن جهرك بعلمه منك بلا جهر ؛ لأنه يعلم الكلام السر وما هو أخفى منه وهو ما خطر فى النفس أو حدثت به النفس فلا تجهد نفسك بالجهر فى ذكر الله والدعاء . وذكر ذلك عقب ما مر لاقتران الإرادة والقدرة فى

عنه سبحانه والإرادة لا تنفك عن العلم ، والمراد أن علمه محيط بجليات الأمور وخفياتها على سواء . فالجهر بالذكر والدعاء إنما هو لتصوير النفس بهما ورسوخهما فيه ومنعها عن الاشتغال بغير الله وهضمها بالهزع والصياح .

وعن ابن عباس : السر : ما فى النفس ، وأخفى : ما سيخطر فيها .

وقيل : السر جميع ما قيل أو عمل فى غير حضرة الناس ولم يعلموا به ، وأخفى : ما فى النفس .

وقيل : السر : ما سره الناس . والأخفى : ما لا يظهره الله سبحانه للخلق ، ويتفرع عن ذلك زجر المكلف عن القبائح ظاهرة أو باطنة ، من حيث إن الله سبحانه يعلم كل ما خفى أو ستر ، مما فيه ثواب أو عقاب أو ما لا ثواب ولا عقاب له . وهذا أبلغ من قول الخازن : إن المراد ما فيه ثواب أو عقاب .

وفى الآية أيضا نهى عن الجهر كما قال : « واذكر ربك فى نفسك » الآية .

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) لما ظهر أنه الجامع لصفات الألوهية بيّن أنه المنفرد بها والمتوحد بمقتضاها وفضّل أسماءه على سائر الأسماء لدلالتها على معان فى نهاية الحسن كالتقديس والربوبية . وهى كلها أحسن .

ونعتُها بالحسنى إنما هو المدح لا الاحتراز . والحسنى مؤنث الأحسن وأنث الأسماء لأنها جماعة .

وفى الحديث : إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة . والظاهر عندى أن المراد بإحصائها العمل بمقتضاها والصيانة عن الخروج عنه . فمقتضى لفظ الله مثلا أن تعبد واجب الوجود سبحانه . ولا يخفى أن من عَبَدَه بأداء الفرائض يدخل الجنة بفضل الله .

وأول السورة إلى الحسنى خاصيته السعادة والبركة والطاعة من كتب ذلك

في إناء مرمر أو صيني أو بلور بمسك وكافور وماء ورد ومحاه بدهن بان وأضاف إليه شيئاً من العنبر وكافور ومسح بذلك حاجبيه وجبينه ينال القبول والجاه والمحبة والعز عند كل من يقابله بإذن الله تعالى .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) أتبع ذكر نبوته ﷺ بقصة موسى ليقتدى به في حمل أثقال النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مُقاساة الشدائد ؛ فإن هذه السورة من أوائل ما نزل .

قال الشيخ هود : هل بمعنى قد والمراد التحقيق ويحتمل التوقع فإن كان ﷺ يتوقع حديث موسى فظاهر وإلا فإنه سبحانه وتعالى عظم حديث موسى حتى إن من شأن من سمع به مجملا أن يتوقع تفصيله .

وبعد فالحق أن هل للاستفهام التقريري أي هل يا محمد بما عندك من إتيان حديثه أو عدم إتيانه إليك . ومثل هذا في الاستعظام كثير كما تبدأ الرجل – إذا أردت إخباره بأمر غريب – فتقول : هل علمتَ كذا وكذا ثم تخبره .

(إِذْ رَءَا نَارًا) متعلق بحديث لأنه اسم مصدر دال على الحدث فهو بمعنى التحدث بل أجاز الدماميني التعلق بنحو الحديث والدهن مما فيه إشارة إلى الحدث إشارة مّا مع أنه غير مصدر ولا اسمه ولا غيرهما مما يعلق فيه الجار والظرف والحديث يستعمل اسم مصدر واسما كرجل . ويجوز أن يكون إذ مفعولا لا ذكر والمراد بالنار النور ، لأنه رآه وظنه ناراً . وقيل : نار حقيقة .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا في الرجوع من مَدْين إلى مصر ليزور والدته وأخاه ، فأذن له وخرج بأهله وماله في أيام الشتاء في ليلة مظلمة باردة مثلجة ليلة جمعة ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل ، وهي في أيام الولادة لا تدري أتضع ليلا أو نهاراً وتفرقت ماشيته وأجاء المسير إلى

جانب الطور الغربى الأيمن وولد له ابن فى وادى طوى ، فأخذ زَنْدَه يقدح ولا تُخرج نارا ، فأبصر نارا فى جانب الطور عن يسار الطريق من بعيد ، وقد تحير عن الطريق فرأى نارا عظيمة

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) أقيموا مكانكم . وقرأ حمزة بضم الهاء . قال الصبهان عن غيره : وهو لغة الحجاز .

(إِنِّى آنَسْتُ نَارًا) أبصرتها من بعيد . وقيل : أبصرتها إبصارا لا شبهة فيه .

وقيل : الإيناس : إبصار ما يؤنس به .

(لَعَلِّى آتِيكُمْ) اسم فاعل باعتبار أن الأصل فى الإخبار الإفراد أو مضارع باعتبار أنه الأصل فى الاستقبال على الصحيح والدلالة على التجدد وأما كونه الأصل فى العمل فضعيف هنا لضعف تفاوت الوصف والمضارع فى العمل فى الظروف والمجرورات .

(مِنْهَا بِقَبَسٍ) شعلة : وقيل: جمرة . والشعلة تطلق على فتيلة وعود وحطب أوقدت فى طرفه نار .

(أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) الاستعلاء مجازى فإنه لا يكون أحد فوق النار ولكن شبه السكون بجنبها بالسكون عليها فاستعار لفظ على بجامع القرب والاتصال أو لمّا كان مَن بجانبها مستعليا على ما يقرب منها أطلق أنه استعلى عليها ، أو الاستعلاء حقيقى ، فإن من كان بجانب النار يستعلى عليها للاصطلاء ولا سيما فى تلك الليلة . وأيضا هو مُشْرِف عليها فى الجملة ولو بلا اصطلاء .

ويحتمل أن يريد بالاستعلاء عليها ملكها . وأنشد ابن هشام وغيره :

وبات على النار الندى والمحلّق

بالاستعلاء المجازى . والمراد لعلى أجد عند النار هداية إلى الطريق ، أو إلى أبواب الدين ، أو إلى الكل فتصح أن تكون على بمعنى مع . ولا بُعد فى إرادة الكل أو إرادة أبواب الدين ؛ فإن أفكار الأبرار مائلة إلى الدين فى كل أحوالهم ووجود الهداية: دخولها له .

وقدر بعضهم هدى يهاديا وبعض بذا هدى .

ولما كان الإيناس محققا مقطوعا به أكده لهم بإنّ ليوطّن أنفسهم .

وأما الإتيان بالقبس ووجود الهدى فمتوقعان ، فجاء بلعل طمعا وإطماعا ولم يقطع لعدم دليل القطع ، فلو قطع استراحت أنفس أهله إلى القبس والطريق استراحة كلية . فإذا لم يجد ما قصد انقلبت تلك الاستراحة حزنا عظيما لشدة عدم ما وطّنت النفس على وجوده . كذا ظهر لى .

روى أنه لما وصل إلى النار وجدها تخرج من جذع شجرة شديدة الخضرة يقال لها : العليق . وقيل : العوسج . وقيل : سمرة وقيل : شجرة العناب . والنار بيضاء تتخلل أجزاء الشجرة تكاد تخطف البصر ساطعة . ووقف ينظر متحيرا ، ولعل شيئا يسقط . فضل تائها ذلك ، فأخذ ضغثا من حطب رقيق ليقتبس ، فمالت إليه كأنها تريده . وما زال يجئ لها ويذهب حتى خمدت واستقرت فى أصل الجذع ، فزاد تعجبا وتحيرا فصار يطوف يمينا وشمالا . وقيل : نار خضراء .

وروى أنه كان غيورا فصار يمشى ليلا بأهله لا نهارا . ولما ذهب إلى النار تباعدت منه ومشت ، فرجع فتبعته ، وهكذا ، فتيقن أنه أمر خارق .

(فَلَمَّا أَتَاهَا) أى النار . (نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) بكسر الهمزة لتأويل النداء بالقول .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتحها لتقدير حرف الجر وهو الباء وسكن غير نافع وابن كثير وأبي عمرو الياء وياء إنى آنست وياء إننى أنا الله وسكن الكوفيون ياء أهلى آتيكم .

ولا يخفى ما فى الكلام من التأكيد بإن وأنا ، فقد روى أنه نودى : ياموسى فقال مسرعا : لبيك لبيك سمعت كلامك : وأين أنت ؟

فقال : إنى أنا ربك فوقك وبيمينك وبشمالك وأمامك وخلفك وفى الأرضين وأقرب إليك من حبل الوريد .

ولما انقضى الخطاب وانصرف من الوادى تعرض له إبليس - أبعده الله عنا - فقال له : لعلك تسمع كلام شيطان .

فقال : أنا عرفت أنه كلام الله سبحانه وتعالى بأنى أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء .

وروى أنه لما أتى النار وجد تسبيح الملائكة ، فإذا قرب منها بعدت ، وإذا بعد قربت ، ولم يختلف الصوت .

وإن قلت : كيف تحقيق المسألة على مذهبنا ؟

قلت : إن الله - سبحانه وتعالى عما تقول المشبهة - خلق كلاماً فى الشجرة أو فى الهواء أو على لسان ملك كما أنزل على لسان جبريل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ونحو ذلك ولم يتوهم أحد أن المراد بالمنزل الحافظ جبريل وإنما قال : سمعه من كل جهة وكل عضو دفعاً لما يوسوس إليه أنه كلام شيطان .

(فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) تعظيما للمقام، كما تخلعان للمسجد ونحوه تواضعاً ، ولتنال قدماه بركة المقام وكانتا من جلد بقرة مذكاة .

• وقيل : لأنهما من جلد حمار ميت .

• وروى أنه غير مدبوغ ، ولما خلعهما ألقاها من وراء الوادى .

(إِنَّكَ) تعليل للخلع المأمور به (بِالْوَادِي) فى الوادى (الْمُقَدَّسِ) المطهر المعظم المبارك .

قيل : قُدِّس مرتين .

وقيل : المراد المقدس عن اشتغال القلب بالأهل والمال والولد فالمراد بخلع النعلين الكناية عن تفريغ القلب عن الاشتغال بذلك .

(طُوًى) اسم للوادى بدل أو بيان ممنوع من الصرف للتأنيث باعتبار البقعة مع العلمية .

وقيل : هو كثنًى من الطى بمعنى مرتين مفعول مطلق لنودى أو المقدس ، أى نودى نداءين ، أو قدس مرتين . والصحيح الأول .

قال ابن هشام : وأما طوى فيمن منع صرفه فالمعتبر فيه التأنيث باعتبار البقعة لا العدل عن طاوٍ ؛ ولأن العدل قد أمكن غيره وهو التأنيث فلا وجه لتكلف العدل .

ويؤيد اعتبار التأنيث أنه يصرف باعتبار المكان فلو كان العدل معتبرا فيه لما انصرف إذا اعتبر فيه المكان انتهى .

وقرأ ابن عامر والكوفيون بالتنوين باعتبار التذكير ؛ لأنه واد ؛ ولأنه موضع وذلك وادى الطور .

وقيل : واد مستدير عميق مثل الطور .

وقيل : إن طوى اسم واد بالشام ، وهو عند الطور الذى أقسم الله به فى القرآن .

وقيل : إن طوى بمعنى يا رجل بالعبرانية ، وقيل : معرب معناه ليلا .

وقيل : طوى بمعنى طويت لك الأرض مرتين .

قال الجوهرى : لما قيل لموسى : استمع لما يوحى وقف على حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يسمع وكان كل لباسه صوفا .

واعلم أن الصحيح أن أمر موسى عليه الصلاة والسلام انقضى تلك الليلة . وزعم بعض عن ابن عباس أنه أقام فى ذلك الأمر حولا .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ) لرسالتى ولكلامى . وقرأ حمزة وأنّا اخترناك بتشديد النون . وقال أبو عمر الدانى : إن الكسائى قرأ أيضا مثله .

(فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) ما موصول اسمى أو حرفى . والأول أولى ؛ لأنك إذا قلت للوحى وأردت المعنى المصدرى ضعف المعنى ؛ لأن الاستماع للموحى أولى منه للوحى . وإن أولت الوحى بالموحى جعل ما موصولا اسميا مغن عنه نعم لا ضعف على تعليق اللام باخترتك ؛ فإنه يجوز تعليقها به . فجملة استمع معترضة وتعليقها باستمع ، ولا يبعد التنازع . وفى الكلام نهاية الهيبة والجلال له ، كأنه قيل : لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) وحدى ، وذلك مستأنف من نفس الوحى .

وادعى القاضى أن إننى أنا الله الخ بدل من ما ويرده أن الهمزة مكسورة فلو كان ذلك بدلا لفتحت لنية اتصالها بلام الجر . اللهم إلا أن يقال : المراد لفظ إننى أنا الله الخ . وأفاد هذا الكلام أن الوحى إنما هو توحيد هو منتهى العلم ، أمره بعبادة كال العمل .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) إيت بها مستقيمة خصها بالذكر وأفردها بالأمر لعظم

شأنها ؛ لأن فيها تذكر المعبود وشغل القلب واللسان به . (لِذِكْرِى) لتذكرنى فيها ذكر قلب ولسان ، بحيث لا تُرائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى ، أو لتكون لى ذاكرا غير ناس ؛ فإن المخلصين يجعلون ذكره على بال ويقْصِرون هممهم به . واللام للتعليل والمصدر مضاف للمفعول اصطلاحاً

وقيل : لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها أو لأذكرك بالثناء وأجعل لك لسان صدق أو لأذكرك فى عليين بها فاللام للتعليل والمصدر مضاف لفاعل ، أو لأوقات ذكرى بتقدير مضاف ، وهو مواقيت الصلاة ، أو لذكر صلاتى بتقدير مضاف أيضا . ويدل له ما روى عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد : من نسى صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها . وفى رواية تقديم النوم . وفى رواية : فليقضها بدل فليصلها

وروى أنس : من نسى صلاة فليصل إذا ذكر لا كفارة لها إلا ذلك . وممن فسر الآية بذلك قتادة .

وروى مالك وأبو عمرو الإمام الأندلسى أن النبى ﷺ لما قال ذلك ذكر الآية تفسيراً لها بذلك واللام فى الوجهين الآخرين للتوقيت .

وإن شئت فقل للحضور والمصدر على الأول من الوجهين مضاف للمفعول اصطلاحاً وفى الثانى لمحذوف ناب عنه مذكور لا فاعل ولا مفعول .

وإن شئت فلا تقدر مضافاً فى الثانى لأنه إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله ، ولأن فيها ذكره ، ولأن الذكر والنسيان من الله . وقيل : الذكرى بعد غفلة أى أقم الصلاة النافلة إذا تذكرت حتى تما وأمرى بها وقرئ بإسكان الياء . وقرئ لذكر .

(إِنَّ السَّاعَةَ) يوم القيامة (آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) من الناس فلا أذكر لهم أنها آتية ولولا اللطف وقطع العذر ما أخبرت بإتيانها

أو المراد بإتيانها قربها فلولا ذلك ما أخبرت بقربها أو أكاد أخفيها بأن لا أجعل علامات ودلائل . وذلك لفرط إرادتى إخفاءها أو أخفى مضارع أخفى الذى همزته للسلب ، أى أكاد أزيل خفاءها ، بأن أظهرها .

ويؤيده قراءة أبى الدرداء وسعيد بن جبير . قيل : وابن كثير وعاصم فتح الهمزة على أنه مضارع خفاه الثلاثى المفتوح الفاء الذى بمعنى أظهره . وقد ذكر هذا المعنى أهل اللغة وبعض شراح اللامية .

وقيل : أكاد أخفيها عن نفسى فكيف يعلمها المخلوق . وذلك مبالغة على عادة العرب إذا بالغوا فى كتم شىء وإلا فلا يمكن كتم الشىء من النفس وروى هذا عن ابن عباس ونسب للأكثرين قيل : وهو باطل لعدم دليل على ما حذف فيه .

قال جار الله : والذى غرهم أن فى مصحف أبى أكاد أخفيها من نفسى . وفى بعض المصاحف أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها !

وقالت فرقة : أكاد بمعنى أريد فالأصل أن أخفيها حذفت أن وارتفع الفعل واستشهدوا بقوله :

* كادت وكدت وتلك خير إرادة *

(لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ) من خير أو شر وما اسم موصول أو حرف موصول واللام متعلقة بآتية .

وإن فسرنا الإخفاء بالإحضار تعلقت به أى أكاد أحضرها للجزاء وإنما أخفاها وسترها تهويلا وتفخيما ؛ لأنهم إذا لم يعلموا أوان مرساها كانوا على حذر فى كل وقت كما أخفى وقت موت الإنسان .

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ) يصرفنك (عَنْهَا) أي عن الإيمان بها والاستعداد لها أو عن الصلاة (مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا).

اعلم أن النهي في ظاهر العبارة من لا يؤمن بها، والمقصود نهي موسى عليه الصلاة والسلام عن أن يؤثر فيه صد الكافر به عنها ومن لين الشكيمة الذي هو سبب لتأثير الصد فكأنه قال: لا تكذب بها، فذكر الصد الذي هو سبب التكذيب، أو لا تلين شكيمتك. فذكر الصد الذي هو سبب عن لينها أي كن صلباً حتى لا يطمع الكافر في صدك. تقول: لا أرينك ها هنا، ظاهره نهي نفسك عن رؤيته ها هنا، ومعناه نهي المخاطب عن الحضور الذي هو سبب لرؤيتك إياه، وذلك تأكيد؛ فإنه ﷺ ولو لم ينهه الله سبحانه مختار الإيمان والرسوخ في الدين.

وقال النقاش: الخطاب في لا يصدنك لنبينا ﷺ وهو بعيد.

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) في التكذيب بها والمعاصي (فَتَرْدَى) فتهلك جواب النهي أي لا يؤثر فيك صده فتهلك.

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) الباء للظرفية أو الإلصاق. والاستفهام للتقرير يتضمن استيقاظا لما يترتب على عصاه من المعجزات وتنبيها، لئلا يذهله ما يكون من أمرها. كذا ظهر لي. وسماه السيوطي في الإتقان إيناسا.

وخص اليمين ولم يقل: وما تلك بيدك لما ذكرت من التنبيه لأنها في يمينه فكأنه قيل له: انظر إلى ما في يمينك وتثبت فلا يهولنك ما يصدر منه.

وقال أبو عمرو عثمان بن خليفة ـ رحمه الله ـ: فإن قيل: لم قال يمينك ولم يقل بيدك لاشتبه عليه أيهما أراد والله لا يلبس على خلقه ولا على رسوله ولا على أمتهم لأنه أرسل بالبيان والرحمة والمحبة انتهى. والباء متعلقة بمحذوف وجوبا حال من تلك

سواء جعلت خبرا وما مبتدأ أو بالعكس ؛ لأنه اسم إشارة وناصب الحال معنى الإشارة . وعلى قول الكوفيين يجوز أن يكون تلك اسما موصولا ، ويمينك متعلق بمحذوف صلة له ذكره ابن هشام والشيخ خالد .

(يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ) ما بعد هذا زيادة في الجواب عما كان السؤال عنه ، كقوله صلى الله عليه وسلم - لما سئل عن ماء البحر - : هو الطهور ماؤه الحل ميتته .

وللمستحسن من الجواب أن يكون مطابقا للسؤال أو أعم منه لا أخص ولا مغايرا إلا لحكمة .

ويحتمل أن يكون فهم من السؤال أن المراد تعديد النعم ، فأجاب بما يطابق .

وإنما ذكر المسند إليه وهو قوله : هي مع أنه معلوم ؛ لأنه في مقام يكون سماع السامع مطلوبا للمتكلم لعظمة السامع ، وهو هنا الله ، فبسط الكلام بذلك بذكر المسند إليه .

وقرأ الحسن عصاى بكسر الياء اعتبر أن أصلها السكون فكسرها لالتقاء الساكنين . كذا ظهر لي وسكنها ابن أبي إسحاق .

والمشهور عصى بكسر الصاد وتشديد الياء قلب الألف ياء وأدغمها وكسر ما قبلها وهي لغة هذيل . وحكاها الواحدى في البسيط عن طيئ .

قال الشيخ خالد : قرأ عاصم الجحدرى وابن إسحاق وعيسى بن عمر هي عَصَيَّ وروبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قاله الشاطبي .

قال ابن هشام : نحو كسر ياء الإضافة بعد الألف في قراءة الأعمش والحسن هي عصاي .

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) أعتمد عليها إذا عييت ، وعند المشي والوثوب ، وعند الوقوف على رأس القطيع ، أعني عند الرعي .

(وَأَهُشُّ) أخبط الورق من الشجر .

وقرأ النخعي أهش بكسر الهاء ، وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته . قال النبهان بن عاد : أكلت حقا وابن لبون وجذعا وهششت نخب وسيلا وقع والحمد لله من غير شبع . ووقف على المنصوبين المنونين بالإسكان . ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر وذلك لقوته وعظمته . وقالوا : الجزور أكلة لقمان والناقة جرعته .

وقرأ عكرمة بالسين المهملة وضم الهاء أو كسرها أى أقبل بهما على الغنم زاجراً للغنم .

(بِهَا عَلَى غَنَمِي) وزعم بعضهم أن الواو فى وأهش واو الحال . والهش : الزجر . وهو ضعيف من جهتين : الأولى أن المضارع المثبت الواقع مع مرفوعه حالا لا يقرن بالواو .

وأجاز بعضهم إن فصل عنها فيحتاج هنا إلى تقدير المبتدأ . والأصل عدم الحذف . والثانى : أن فى جعل الواو عاطفة إفادة معنى بقوله : أتوكأ عليها ، ومعنى آخر بالهش .

وإذا جعلنا الواو للحال كان الهش الذى هو الزجر قيدا للتوكؤ . فيفيد أنه يتوكأ عليها فى حال الزجر . وذكر حاجتين مما يعمل بالعصى ولى من ذكر حاجة إلا إن جعلنا التوكؤ لغير الزجر وجعلنا الهش بمعنى الزجر وجعلنا الحال مقدرة أى أتوكأ عليها عند الإعياء مثلا مقدراً لزجر الغنم بها إذا احتجت .

قيل : اسم العصى نبعة ولها ألف معجزة .

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ) جميع مأربة بهمزة ساكنة. وقد تقلب ألفاً وتثليث الراء بمعنى حاجة . وإنما قال : (أُخْرَىٰ) ولم يقل : أخر بضم الهمزة وفتح الخاء اكتفاء بذل المآرب بالجماعة أو الجملة .

ومن تلك المآرب : أنه إذا سار ألقاها على عاتقه وأعتمد عليها بيده فيستريح ويحمل عليها ما يحتاج إليه من طعام أو ماء وغيرهما كالسلاح . وكان في رأسها شعبتان يقدح بهما النار . وإذا آذاه الحر ألقى عليهما كساء واستظل . وقيل : يركزها وتمود شجرة يستظل تحتها . وإذا قصر حبله وصله بهما بل إذا لم يكن عنده حبل أصلا أو كان أدلاها في البئر تتطاول على طول البئر وتصير الشعبتان دلوا وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها . وإذا ظهر له عدو قاتل بها أو قاتلت عنه وحدها .

وروى أنه يحمل عليها وتمشي وحدها كالدابة وتحدثه ويركزها فينبع الماء . فقول : وللطعام . وإذا اشتهى ثمرة ركزها وأثمرتها . وإذا رفعها زال الماء والطعام وكانت تقيه من الهوام وكانت تثمر له ما يحتاج إليه ، وتخرج له من ماء وطعام ما يحتاج إليه في اليوم ، وتضيء له بالليل كالسراج . وكانت قبل من شجر الريحان وهي العصى التي أخذها من بيت عصى الأنبياء من عند شعيب عليه الصلاة والسلام حين إتفق معه على الرعية . وهي عصى آدم هبط بها من الجنة .

وعن بعضهم أنه ذكر المنافع المتعلقة بالعصى تفصيلا بالهش والتوكؤ وإجمالا بقوله : ولى فيها مآرب أخرى كأنه أحس بما يحدث بها بعد السؤال من أمر عظيم فقال : ما هي إلا عصى تنفع نفع أمثالها جنسها أو أراد الله تعديد المنافع واستكثارها ويريه عقب ذلك الآية العظمى كأنه يقول : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى التي تنفى عندها كل منفعة .

وروى أنه سأله ليبسط منه ويقلل هيبته.

وقيل: أجل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه.

وقيل: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل. وكان لتلك العصا اعوجاج في رأسها، إذا طال الغصن جناه به، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين.

(قَالَ) الله (أَلْقِهَا) اطرحها. (يَا مُوسَىٰ) قال وهب: ظن موسى أنه أمر بإلقائها على وجه الرفض (فَأَلْقَاهَا) على وجه الرفض ثم نظر إليها (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ) أشعر ذكر (تَسْعَىٰ) على بطنها بسرعة صفراً على قدر العصي ثم صارت أعظم ما يكون من الحيات، ولذا عبر عنها في الآية الأخرى بالثعبان في العظم

وأما التعبير في غير ذلك بالجان وهي الحية الصغيرة فباعتبار حال انقلابها فإنها انقلبت صفيرة دقيقة على قدر العصي.

وقيل: أقل عظمة في أسرع وقت. وعبر في هذه الآية بالحية لأن الحية اسم للذكر والأنثى والصغير والكبير.

وقيل: عبر في الآية بالحية لعمومها وبالأخرى بالثعبان باعتبار العظم وفي غير ذلك بالجان باعتبار سرعة الحركة فيصح أن تكون من أول حال الانقلاب عظيمة وكان لها عرف كعرف الفرس وبين لحييها أربعون ذراعا وعا الشعبتان والمحجن عنق وعيناها تتقدان ناراً وتمر بصخرة كجمل فتبلعها وبالشجرة العظيمة فما يسمع إلا وقع أضراسها عليها بصوت عظيم فلما رأى ذلك هرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه.

وقيل: لما أمر بإلقائها ألقاها لا على وجه الرفض فلما رأى منها ذلك هرب وما رجع إلا بأمر الله تعالى بالرجوع، رجع خائفاً وما سكن خوفه إلا بعد قوله عز وجل له: لا تخف.

(قَالَ خُذْهَا) بيمينك .

(وَلَا تَخَفْ) منها . وعن بعضهم : إنما خافها لأنه عرف ما لقى آدم منها . ولما قال له : لا تخف بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده اليمنى فى لحيها وأخذها وانقلبت عصى فى يده فى شعبتيها وهما الموضع الذى يمسكه حين يتكىء .

وروى أنه كان عليه مدرعة فهرب وتعطى فيها . ولما قال له : خذها لف طرفها بيده ، فأمره الله أن يكشف يده فكشفها .

وروى أنه لما لقمها قيل له : أرأيت لو أذن الله بشىء أيعنيك المدرعة ؟

قال : لا ، ولكنى ضعيف من ضعفاء الخليقة فكشف عنها .

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) هيئتها وحالتها السابقة وهى كونها حية تسعى تفعل تلك الفعلات ثم بعد الإعادة تكون عصى . والسيرة فعلة بكسر الفاء لهيئة من السير . يقال : سار فلان برجليه سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة والهيئة .

والنصب على نزع الخافض ، أى إلى سيرتها ، أو فى سيرتها ، أو بدل اشتمال منها ، أو مفعول مطلق لمحذوف ، أو مفعول مطلق لنعيد ، بمعنى ستسير بها أيضا سيرتها ، أى تسير سيرتها الأولى لا ظرف مكان لعدم الإبهام إلا ما تكلف .

ويجوز أن يراد بالسيرة الأولى كونها عصى إذا قبضتها رددناها عصى وضمائر التأنيث للعصى بدليل السيرة الأولى . ففى قوله : خذها تسهيل أى خذ عصاك ولو كانت على غير صورة العصى فما هى إلا عصاك ، ومع ذلك فالقلب تحقيق لا تخييل إلا ضمير تسعى فإنه للحية

ويجوز إرجاع ها من خذها للحية قبل .

ويجوز أن يكون نعيد من عاده بمعنى عاد إليه فيتعدى إلى اثنين مع الهمزة فيكون سيرة مفعولا ثانيا .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ) اليمنى (إِلَى جَنَاحِكَ) جنبك تحت العضد الأيسر والمراد الإبط .

روى أن كل مرعوب من ظلمة ونحوها فإنه إذا ضم يده إلى جناحه فتر رعبه ، فجمع الله تعالى سبحانه لموسى تفتير الرعبة مع الآية في اليد وهي خروجها بيضاء

واليد : الكف ؛ فإنها الخارجة بيضاء . وإن أريد الكف والذراع قدر المضاف في قوله : (تَخْرُجْ) أي يخرج كفها أو يكون فيه مجاز مرسل بأن أطلق ضمير اليد بمعنى الذراع على بعضها وهو الكف أو يكون فيه استخدام حيث أريد بضمير الظاهر ما لم يرد بالظاهر من غير اعتبار الكلية أو البعضية كذا ظهر لي والله الموفق .

والجناح أصله جناح الطائر ؛ لأنه يجنح عند الطيران ، أعني يميلهما ، استعير لجانب الإنسان وجانب العسكر .

(بَيْضَاءَ) حال من ضمير تخرج قال الحسن : أخرجها والله كأنها مصباح .

وعن ابن عباس : تضيء كالشمس والقمر ليلا أو نهارا وهي أكبر آياته ولون موسى ﷺ الأدمة وضوء يده يغشى البصر .

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) متعلق ببيضاء أو محذوف حال من ضمير بيضاء أو من ضمير تخرج . والسوء : البرص ، وكنى عنه بالسوء لنفار الطباع عنه وهو أبغض شيء إلى العرب وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنوا عنه بالأبرش ، فكان جديراً أن يكنى عنه . ولا ترى أحسن من كنايات القرآن ، فهي تضيء إذا أراد وإذا أراد انطفاء ضوئها ردها تحت إبطه .

(آيَةً) حال من ضمير تخرج أو من ضمير بيضاء أو مفعول لخذ أو لدونك الذي هو اسم فعل بمعنى خذ محذوفاً لدليل .

ومنع ابن هشام عمل اسم الفعل محذوفا والصحيح الجواز لدليل .

(أُخْرَىٰ) غير آية العصى دالة على صدقك .

(لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا) متعلق بنرى .

(الْكُبْرَىٰ) أى الآية الكبرى مفعول انرى ، أُخِّر للفاصلة . ومن للابتداء وإن جعلت للتبعيض تعلقت بمحذوف حال من الكبرى وهذه الكبرى هى آية اليد و نريك متعلق بجد أو بدونك المقدر .

ويجوز أن يكون الكبرى نعتاً لآياتنا فمفعول نرى محذوف أى بعضاً من آياتنا الكبرى . فمن آياتنا نعت المحذوف .

وقيل : من آياتنا فى مقام المفعول ومن نجعل من التبعيضية اسماً هى المفعول و يجوز تعليق اللام بمحذوف أى فعلنا ذلك انريك .

(اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) فيه دليل للفقهاء على أن الإمام يقصد فى الدعاء إلى التوحيد رئيس القوم وبدعائه يحل دماء القوم إن لم يجب .

واختلف فى البوادى ، فقيل كذلك . وقيل : يدعوهم موحد .

والمراد ذهب إلى فرعون وقومه . وخص فرعون بالذكر لأنه أعتى وأكفر كما قال عز وعلا : (إِنَّهُ طَغَىٰ) جاوز الحد عصى وتكبر وادعى الربوبية وكان متبوعا فدعاؤه أحق من دعاء غيره ، وإلا فموسى ﷺ مبعوث إلى الكل ، فأمره بالذهاب إليه بالآيتين .

قال ابن منبه : قال الله تعالى لموسى : اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى وإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى وبصرى ، وإنى ألبسك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرى . بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ؛ بطر نعمتى وأمن مكرى حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى . وإنى أقسم بعزتى لولا الحجة

التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى، وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا ؛ فإن ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمى وموسى ساكت تجاه ملك فقال : أجب ربك فعلم أن ذلك رسالة وفهم قدر التكليف فدعا الله فى المعونة ؛ إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم كما قال الله عز وجل حكاية عنه :

(قَالَ رَبِّ) يارب . (اشْرَحْ) وسع لتحمل أثقال النبوة (لِى صَدْرِى) قال ابن عباس : يريد حتى لا أخاف غيرك .

وذلك أن موسى خاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فسأل ربه أن يوسع قلبه حتى يعلم أنه لا يقدر أحد على ضره كائنا ما كان . وإذا علم ذلك لم يخف فرعون .

(وَيَسِّرْ لِى) سهل لى . (أَمْرِى) ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة .

وقيل : شرح الصدر : جعله فاهما لما يرد من الأمور .

وفائدة « لى » فى الموضعين إبهام الكلام أولاً ورفعه ثانيا بذكر الصدر والأمر مبالغة وتأكيد لطلب الشرح والتيسير .

وقيل : يسر لى أمرى تأكيد لاشرح لى صدرى .

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى) هى العقدة التى كانت له بوضع جمرة فى لسانه .

روى أن موسى عليه الصلاة والسلام قعد فى حجر فرعون فمد يده إلى لحيته فنزع منها خصلة وهو طفل فغضب فرعون وأراد قتله وقال لامرأته آسية : إن هذا عدوى .

وروى : أنه لطم فرعون ونزع من لحيته .

وروى أنه كان كثيراً ما يمد يده إلى لحيته ، ولما أراد قتله قالت آسية : إنه صبى لا يعقل .

وروى أن أم موسى لما فطمته ردته إلى فرعون ، فنشأ فى حجره وحجر امرأته واتخذاه ولدا ، فبينما هو يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب فضرب به رأس فرعون فهم بقتله فقالت آسية : إنه لا يعقل جربه إن شئت . فجاء بطستين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر ، فوضعهما بين يدى موسى ، فأراد أن يأخذ الجوهر فصرف جبريل يده عنها ، فأخذ جمرة بيده ولم تعد على اليد ، فوضعها على لسانه فاحترق . وصارت فيه عقدة ، فزال غيظ فرعون .

وقيل : لما أخذها بيده أحرقتها فحولها إلى لسانه . واجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ . ثم لما دعاه إلى الله قال : إلى أى رب تدعونى ؟

فقال : إلى الذى أبرأ يدى ، وقد عجزتَ عن إبرائها .

وروى أنه أدخل الجمرة فى فيه فأحرقت فمه لسانه ، ولم يخرج إليها لسانه .

وروى أن يده لم تبرأ لئلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتنعقد بهما حرمة المؤاكلة .

قيل : ولعل تبييض يده كان لضربه بها فرعون ونتف لحيته . « ومن لسانى » متعلق بالحال أو صفة لعقدة ، وعلى الأول فمن للابتداء ، وعلى الثانى ظرفية .

واختلف فى زوال العقدة . فقيل : زالت بجملتها لقوله : « قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

وقيل : بقى بعضها لقوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » ، وقوله : « ولا يكاد يُبين » .

وكان فى لسان الحسن بن على رُتّة فقال رسول الله ﷺ : ورثها من عمه موسى عليه السلام وأصل الأرتّ إنما يكون فى شىء دام إلى موت صاحبه .

وأجيب بأنه لم يقصد حل عقد لسانه مطلقا بل عقدة تمنع الإفهام حتى إن بعضا جعل « من لسانى » نعتا لعقدة وجعل من للتبعيض أى عقدة من عقد لسانى . بدليل إجابة الدعاء بقوله : (يَفْقَهُوا) يفهموا (قَوْلِي) ولم يطلب الفصاحة الكاملة بدليل الإفراد والتنكير فى عقده وأن الأرتّ فى الحديث بمعنى أنه وقع له ما وقع لموسى ﷺ ولكن إنما يحسن التبليغ من البليغ التام إلا أن يقال : إن إزالة تلك العقدة يوصله إلى البلاغة (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا) معينا على ما كلفتنى به من الوزر بكسر الواو وإسكان الزاى ؛ لأنه يحمل الثقل عن أميره أو من الوَزَر بفتحهما وهو الملجأ ؛ لأن الأمير يلتجئ إليه فى أموره . ويقرب إليه ما قيل : إنه من المؤازرة وهى المعاونة ، وأن أصله الهمزة قلبت واوا .

وقيل : إن أصله أزير من الأَزْر وهو القوة قلبت الهمزة أيضا واوا وزنه فعيل بمعنى مفاعل بضم الميم وكسر العين أو فتحها كعشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم وقلبها همزة نظرا إلى قلبها فى يؤازر ومؤازر ومؤازرة .

(مِنْ أَهْلِي هَارُونَ) مفعول أول ووزيرا ثان قدم اعتناء بأمر الوزارة ولى متعلق باجعل أو حال منه أو لامه للتقوية وتكون راجعة إلى قوله وزيرا ، ومن متعلقة باجعل أو بمحذوف نعت لوزيرا ، ووزيرا مفعول أول ، ولى مفعول ثان . وهارون بدل من وزيرا بدل معرفة من نكرة بناء على جواز ذلك ولو لم تخصص النكرة . وإن جعلنا من أهلى نعتا لها فقد خصصت .

وأجاز جار الله كونه عطف بيان عطف معرفة على نكرة ، لإجازته ذلك وعطف نكرة على نكرة عطف بيان .

(أخي) بدل أو بيان من هارون أو من وزيرا قبل ، أو مبتدأ خبره (اشْدُدْ) قوّ (بِهِ أَزْرِي) ظهري إخبارا بالطلب ويجوز أن يكون لي مفعولا أولَ ومن أهلي ثانيا .

وقرأ ابن عامر أشدد بهمزة قطع مفتوحة مضارعا مجزوما في جواب الطلب وسكّن ياء أخي وصدّها .

قال أبو عمرو الداني : سكن غير نافع وأبي عمرو ياءات لذكرى ، ويسر لي أمري ، وعلى عيني ، ولا برأسي .

وسكّن غير ورش وحفص ولي فيها .

وفتح ابن كثير وأبو عمرو أخي اشدد .

وسكن الكوفيون وابن عامر لنفسي اذهب وفي ذكري اذهبا فتحذف للساكن. وسكن غير نافع وابن كثير ياحسرتي .

وأثبت نافع وأبو عمرو ياء ألا تتبعني في الأصل وأثبتها ابن كثير ساكنة في الأصل والوقف .

وكان موسى أقل من هارون سنًّا وجمالا. وكان هارون أبيض وموسى آدم. وروى أنه أكبر من موسى بأربعين سنة. وقيل: بسنة. وقيل: بثلاث سنين.

(وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) اجعله شريكا لي في الرسالة حتى نتعاون .

وقرأ ابن عامر وأشركه بضم الهمزة على أنه مضارع معطوف على اشدد المجزوم في جواب الطلب في قراءته .

وقرئ بالنصب في جواب اشدد وبالرفع .

وقرأ ابن مسعود أخي واشدد، وأبيّ بن كعب أشركه في أمري واشدد به أزري.

(كَيْ نُسَبِّحَكَ) ننزهك باللسان والقلب تسبيحاً (كَثِيرًا) وقيل : المراد بالتسبيح الصلاة .

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) مطلق الذكر تنزيه أو غير تنزيه .

(إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا وأن هارون نعم المعين لى فيما أمرتنى به .

وقيل : المراد بالذكر الثناء على نعمة الإرسال وغيره . وأجيز كون كثيراً فى الموضعين ظرفاً زمانيا .

وقيل : معنى إنك كنت بنا بصيراً أنك عالم بنا فأنعمت بالرسالة .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ) أعطيت (سُؤْلَكَ) أى سؤالك كالأُكل بضم الهمزة بمعنى المأكول والخبز بمعنى المخبوز (يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) أنعمنا عليك فى وقت آخر .

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى) إذ حرف تعليل أو ظرف بدل من مرة والمعنى إذ أوحينا إلى أمك ما لا يعلم إلا بالوحى وأوحينا إليها ما ينبغى أن يوحى ولا يبخل به لعظم شأنه ؛ إذ فيه مصلحة دينية ودنيوية .

والإيحاء إلهام أو وحى منام أو على لسان نبى فى وقتها أو ملك لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم . وقيل : هما نبيتان .

(أَنِ اقْذِفِيهِ) أن مصدرية إن بنينا على جواز دخولها على الأمر أى بأن اقذفيه أو تفسيرية ؛ لأن الوحى فيه معنى القول دون حروفه . زعم بعضهم أنها تفسيرية تقدر الباء معها والقذف والرمى يقالان للإلقاء والوضع نحو : « وقذف فى قلوبهم الرعب » وقول الشاعر :

* غلام رماه الله بالحسن يافعا *

أى وضع فيه الحسن (فِي التَّابُوتِ) الصندوق .

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) بحر النيل .

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) شاطىء البحر . واللفظ دون المعنى أمر فى الظاهر وفى ذلك مبالغة أو اللفظ والمعنى معاً أمر من حيث إن إلقاء اليم إياه إلى الساحل أمر لا بد من وقوعه لسبق الأزل لذلك فجعل البحر كأنه ذو عقل يأتمر إذا أمر فأمره بالإلقاء والباء فى قوله بالساحل بمعنى فى .

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي) هو فرعون والتنكير للتحقير أو لتعظيم العداوة وتكثيرها .

(وَعَدُوٌّ لَهُ) لو قال : عدو لى وله اصح ولكن أعاد لفظ عدو مبالغة فى العداوة أو لتخالف العداوتين . إن عداوة الله واقعة وعداوة موسى متوقعة والضمائر كلها لموسى . وفى رجوع الهاء من اقذفيه ويلقه ويأخذه للتابوت ، ورده الباقى إلى موسى هجنة تشتيت الضمائر فيتنافر التأليف الذى هو أمر إعجاز القرآن الواقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر ولا يخفى أنه ولو كان المقذوف فى اليم الملقيه اليم بالساحل الذى يأخذه عدو وهو التابوت لكن ذلك للتابوت بالذات ولموسى بالعرض ولا ضير فى قولك : ألقى موسى فى اليم فى جوف التابوت وألقاه اليم فى جوفه بالساحل وأخذه فرعون من جوفه .

روى أنها جعلت فى التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وسدت الخلل بالجص والقطران ممزوجين وألقته فى البحر وجاء به الموج إلى بركة فى بستان فى دار لفرعون وألقاه فى أقرب الماء لحافة البركة أو ألقاه فى الحافة .

ولا ضير بتسمية طرف البركة ساحلا . وكذلك يجوز تسمية مائها بحراً وذلك للشبه ولأن ماءها من البحر . ويجوز أن يراد ساحل فيه فم البركة ثم أوصله الماء إلى البركة وفرعون مع زوجه آسية رضى الله عنها ينظر من الساحل أو من موضع فى الدار فأمر فأخرج منه صبى أصبح الناس وجها ﷺ .

وسمى الشاطئ ساحلا لأن الماء يسحله أى يقشره فهو فى الأصل إما فاعل بمعنى مفعول وإما من باب تسمية المحل وهو الشاطئ باسم الحال وهو الماء .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) فى قلوب الناس وكل من رآه أحبه ولما رآه فرعون ـ لعنه الله ـ أحبه حبًّا شديداً ولم يتمالك .

وروى أن كل من رآه أحبه لملاحة فى وجهه وعينيه .

وقيل : المراد بالمحبة القبول الذى يضعه الله عز وجل فى الأرض لخيار عباده وكان حظ موسى منه فى غاية الوفر .

قيل وهو الأصح ومنى متعلق بألقيت ، أى من نفسى أو بمحذوف نعت لمحبة أى محبة كائنة منى .

ويجوز أن يكون المعنى إنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ولا يختص هذا المعنى بتعليق مِن بألقيت كما ادعى القاضى تبعاً لجار الله .

(وَلِتُصْنَعَ) تربى ويحسن إليك فى التربية والعطف على محذوف أى ليتعطف عليك أو ترأم ، أو متعلق بمحذوف أى وفعلتُ ذلك لتصنع .

ويجوز تقديره مؤخراً عن عينى وعلى العطف على محذوف هو متعلق بما تعلق به المحذوف .

وقرئ بالبناء للفاعل بفتح التاء والنون أى وليكون عملك وتصرفك على عينى فلا تخالف أمرى .

وقرئ بالجزم وإسكان اللام وكسرها على أن اللام للأمر .

(عَلَى عَيْنِي) على رعايتى وحفظى لك فالعين كناية عن الحفظ ولا عين هناك وإن شئت فقل : مجاز مرسل من باب إطلاق اسم الآلة على ما يعمل بها ولا عين أيضاً كذا ظهر .

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ) مريم لتعرف خبرك وقد أحضروا مراضع ولم تقبل عن واحدة وصادفتهم الأخت في حال إحضار المراضع وطلبهن، وهي غير أم عيسى فقالت ما قال الله .

(فَتَقُولُ) الخ ، وإذ متعلقة بألقيت أو تصنع ، أو بدل من إذ قبله ، على أن المراد بهما وقت متسع ويجوز كونها تعليلا لأوحينا أو قذف الأول أو الثاني .

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ) أي على امرأة ترضعه ويقبل عنها ، ومَن واقعة على المؤنث والتذكير نظرا للفظ ، فقالوا : نعم فجاءت بأمه فقبل عنها كما قال الله عز وجل :

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ) وفاء بقولنا : « إنا رادوه إليك » (كَيْ تَقَرَّ) هي . (عَيْنُهَا) بلقائك ورؤيتك .

(وَلَا تَحْزَنَ) هي بفراقك فالفاعل مستتر جوازاً أو لا تحزن أنت على فراقها فالفاعل مستتر وجوبا وموسى عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت ولو كان صغيراً جعل الله فيه من العقل ما يفرح به ويحزن ، أو المراد لا تحزن إذا وصلت حداً يمكنك فيه الفرح والحزن .

وإن قلت : كيف يقال : لا تحزن بفراقك وقد حزنت بفراقك ؟

قلت : المراد لا تحزن بعد أي ليذهب عنها الحزن .

تتمة :

روى أن موسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب .

روى أن يعقوب ولد لاوى وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم إن

لاوى نـكح نابجة بنت ماوى بن يسخب ولدت له عرشونى ومرزى وقاهث بن لاوى وولد لاوى قاهث بعد إذ مضى من عمره ست وأربعون سنة فنكح قاهث ابن لاوى فاهى بنت ناويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم ، فولدت له يصهر بعد أن مضى من عمره ستون سنة وكان عمر يصهر مائة وسبعا وأربعين سنة فولد عمران ونكح عمران بن يصهر نجيبا بنت اشموئيل بن تركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له هارون وموسى .

وقيل : اسم أمها ناجية . وقيل : لوحا وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعا وثلاثين وولد له موسى . وقد مضى من عمره سبعون سنة . وعاش موسى مائة وعشرين سنة . وموسى اسم سريانى

وعن عكرمة عن ابن عباس : سمى موسى لأنه ألقى بين شجر وماء فالماء بالقبطية مو والشجر سا .

وقال المناوى : أصله موشى بالقبطية مو الماء وشا الشجر .

وروى أنه لما أراد فرعون ذبحه اظنه أنه الذى يهلك على يده استوهبته منه آسية ووهبه لها فقال : سميه فسمته موسى .

وكان طويلا وهارون أطول منه وكان على أرنبته ولسانه شامة . وكان موسى آدمَ جَعْداً كأنه من رجال شَنُوءة وفى طرف لسانه شامة سوداء وهارون أخوه شقيق كما مر .

وقيل : لأمه . وقيل : لأبيه ومات قبل موسى .

وروى أنه ولد قبله بسنة ، ومن خلافه . ورآه سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء وصف لحيته أبيض ونصفه أسود تكاد لحيته تضرب إلى سرته من طولها .

فقلت : يا جبريل مَن هذا ؟

قال : المحبب فى قومه هارون بن عمران .

وعن بعض أن معنى هارون بالعبرانية المحبب .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا) هو القبطي بمصر فاغتممت لقتله من جهة فرعون وخوفاً من عقاب الله وكان موسى وقت القتل صاحب اثنتي عشرة سنة .

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) غم القتل وغم الخوف وعقاب الله بأن استغفر فغفر له .

(وَفَتَنَّاكَ) ابتليناك بالإيقاع في غير ذلك وخلصناك منه . وقيل: اختبرناك والمصدَقُ واحد .

(فُتُوناً) مصدر كالشكور أو جمع فتن أو فتنة مفعول مطلق أى ابتليناك ابتلاء وابتليناك ضربا من الابتلاء فخلصناك مرة بعد أخرى .

سأل سعيد بن جبير ابن عباس - رضي الله عنه - عن ذلك فقال : خلصناك من محنة بعد محنة : ولد في عام يقتل فيه الصبيان ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وهمّ فرعون بقتله ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وقتل قبطياً ، وهمّ فرعون بقتله ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وأجّر نفسه عشر سنين ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وضل الطريق ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة ، فهذه فتنة يا ابن جبير . ومشى حافياً جائعاً يأكل البقل ثماني ليال إلى مَدْيَنَ حين قتل القبطي ، فهذه فتنة يا ابن جبير . وفارق الأحباب والوطن ، فهذه فتنة يا ابن جبير ؟ فالفتون إجمال لما لقي في سفره وغيره قبل ؛ أو لما لقي فيه فقط . ومن ذلك منعه الرضاع إلا من ثدي أمه

(فَلَبِثْتَ) أقمت (سِنِينَ) عشر سنين يرعى غنم شعيب مهر زوجه وثماني عشرة بعد ذلك بلا رعي ، وذلك ثمان وعشرون سنة أقامها مع شعيب ﷺ وولد له .

وقيل : عشر سنين فقط . والأول قول وهب .

وقال الشيخ هود ـ رحمه الله ـ : عشرين سنة

(فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) بلدة على ثماني مراحل من مصر . وزعم بعض أنها على ثلاث مراحل .

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ) هو القدر الذي يذكر مع القضاء في كتب الفقه ، أي جئت على ما سبق في قضائي وقدري ، من وقت مخصوص غير مقدم أو مؤخر أكلمك فيه وأستنبئك . وهو الوقت الذي أوحي فيه إلى أنبيائي ورسلي . وهو تمام أربعين سنة . فلك أن تقول : القدر ـ بفتح الدال ـ : القدر المحدد بسكونها . وهو ذلك الوقت . وفسره بعض بالقدرة .

وفي الآية تلويح إلى تمثيل حاله بحال من يراه بعض الملوك أهلا لقرب المنزلة والطف العظام لجمعه الخصال . ويرشح ذلك قوله : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) اخترتك لحبتي وجعلتك محل الإكرام .

ويحتمل أن يكون التمثيل في قوله : « واصطنعتك لنفسي » أي ائتمنتك على وحيي ورسالتي وجعلتك خليفتي حتى كأني الذي أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم .

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ) إلى الناس (بِآيَاتِي) معجزاتي التسع . وقيل : جميع ما أنزل الله عليه وما أجرى عليه .

(وَلَا تَنِيَا) لا تضعفا ولا تقصرا . ويقال : ونى أي فتر وفشل أو أبطأ . وقرأ ابن مسعود ولا تهنا وقرأ بعضهم بكسر التاء .

(فِي ذِكْرِي) أي تسبيحي ودعائي . والنداء علي وتبليغ رسالتي . فالمصدر مضاف لما هو مفعول اصطلاحاً ولا يخفى أنه إذا بلغ الرسالة فقد ذكر الله سبحانه وإنما أمرهما بمداومة الذكر ليكون الذكر معونة .

وعن بعضهم أن المعنى لا تنيا في ذكري بالإحسان إليكما أو من ذكر النعمة : شكرها .

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) أمر موسى وحده فى قوله : « اذهب أنت وأخوك » وأمره هنا وأخاه فلا تكرير .

وقد روى أن الله عز وعلا أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يلتقى بموسى . وقيل : سمع بإقباله إلى فرعون فاستقبله . وقيل : ألهم . ولما التقى بموسى أخبره بما أوحى إليه .

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) قال ابن هشام : قولا له : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى . وإنما كان ليناً لأنه استفهام ومشورة وفيه تعريض بالفوز العظيم وتليين الكلام مجلبة عظيمة قال ﷺ : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

وعن سهل فى القول اللين : أنه إذا دخل عليه قال : يا أبا مصعب قل : لا إله إلا الله وأنى رسول الله .

وقيل : القول اللين : التكنية قبل دعائه مثل يا أبا مصعب أو يا أبا العباس أو يا أبا مرة أو يا أبا الوليد فله أربع كنى لا ثلاث كما قال جار الله . ولكن العدد لا يفيد الحصر .

وقيل : القول اللين : أن يقولا : إن لك على قبول الإيمان شباباً لا يهرم وملكا لا ينزع منك إلا بالموت وبقاء لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى الممات والجنة بعد الموت . فقالا له ذلك فأعجبه . وكان لا يقطع أمرا دون هامان .

ولما جاء هامان قال : أردت أن أقبل منه ما قال لى وهو كذا وكذا .

فقال له هامان : ليس ذلك عقلا ورأيا أنت رب تريد أن تكون مربوبا وأنت تعبد تريد أن تعبد ، فغلبه على رأيه .

وإنما أمرا بالتليين للمداراة لئلا يسطو ، والرفق والاستجلاب .

وقيل: لما له من حق التربية فى موسى كحق الأب: والظاهر أن التليين إنما هو لذلك كله.

وعن ابن العربى من علماء الأندلس: وفى الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللين لمن معه القوة.

وفى الإسرائيليات أن موسى أقام بباب فرعون سنة لا يجد من يبلغ كلامه حتى لقيه حين خرج فجرى له ما قص الله علينا من خبره وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين. انتهى.

ولا يخفى على المنصف من كان ينتهى بلا تغليظ يلين له وإن كان لا ينتهى إلا به غلظ عليه إن قدر عليه وإلا لين له كسراً لشكيمته ومن لا يعرف حاله لين له. وقد يجب التليين لحق كحق الأبوة والتربية.

(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) يتعظ أو يخاف فيسلم؛ فإنه إن خاف أن الأمر كما تقولان أسلم إن شاء الله.

والترجى مصروف إلى موسى وهارون، أى اذهبا على رجائكما أو قولا قولا ليناً على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يجد ما يريد فصار يجتهد فى أسباب وجوده.

ويحتمل «لعل» التعليل، وهو مصروف أيضاً لموسى وهارون؛ لأنه سبحانه قد علم أنه لا يؤمن ولكنه أرسلهما قطعاً لعذره وإظهاراً للآيات الواقعة فى ذلك وكل من الترجى والتعليل - كما علمت مما ذكر - عائد إلى قوله: «اذهبا» أو قوله «قولا».

قال القاضى: التذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الأول أى إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهم فيخشى.

قال يحيى بن معاذ الرازى ـ لما تليت عنده الآية وبكى ـ إلهى هذا رفقك بمن يقول : أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول : أنت الله ؟!

(قَالَا) موسى وهارون : (رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا) أن يعجل بالعقوبة قبل تمام الدعوة وإظهار المعجزة . ومنه . الفارط والفَرَط : الذى يسبق إلى الماء يهيئه لأصحابه . وقول المصلى على الطفل : اللهم اجعله لنا فَرَطاً . وفرس فَرَط : يسبق الخيل . والمراد بالعقوبة : القتل أو ما دونه .

(أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ) يجاوز الحد فى الإساءة بأن يعذبهما ثم يقتلهما أو يقتلهما شر قتلة أو يعذبهما عذاباً شديداً بلا قتل ، أو نخاف أن يعاقبنا بشىء أو أن يقتلنا أو المراد بالطغيان : أن يقول فى الله تعالى ما لا ينبغى لجرأته وقسوته . وفى التعبير عن لفظ ما يقوله بالطغيان أدب وتنزه عن النطق بالعظيمة .

وقرىء يُفْرَطَ بالبناء للمفعول من أفرطه غيره ، أى نخاف أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة من شيطان إنسى من القبط أو غيرهم أو جنى أو من نفسه لجبروته واستكباره وادعائه الربوبية وحب الرياسة .

وقرىء يُفْرِط بضم الياء وكسر الراء مبنياً للفاعل من الإفراط اللازم بمعنى المبالغة فى الأذى والطغيان بعده أشد .

(قَالَ) الله عز وجل : (لَا تَخَافَا) منه . وعلل هذا بقوله : (إِنَّنِي مَعَكُمَا) بالحفظ والنصر والعون .

(أَسْمَعُ) أعلم قولكما وقوله .

(وَأَرَىٰ) أعلم ما تفعلان وما يفعل ، فلا يصلكما منه ما يضركما فلا تهتما ، فحذف المفعولين لئلا تطول الفاصلة ، ولئلا يكون آخر الفاصلة غير ألف إن قدر مفعول أرى بعده

ويجوز أن تقدر المفعول عامًّا أى كل شئ

ويجوز أن لا يكون لهما مفعول أى من شأنى السمع والرؤية أى العلم فليس يخفى منى حالكم.

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) أرسلنا إليك ربك .

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أطلقهم يأتوا إلى الشام معنا .

(وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) وكان يعذبهم بالأعمال الشاقة ، كالحفر والبناء وقطع الصخر وحمل الأثقال ، وقتل الأولاد الذكور ، واستخدام النساء ، ومن لم يقدر على العمل ضرب عليه الجزية .

قال القاضى : وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ويجوز أن يكون للتدريج فى الدعوة .

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ) تدل على صدقنا فى ادعاء الرسالة . قال : وما هى ؟ فأخرج يده لها شعاع كالشمس .

فالآية آية اليد .

وقيل : آية اليد والعصى ؛ وإنما أفرد لأن المراد ما تثبت به الدعوى شيء أو شيئان أو أكثر ، كأنه قيل : قد جئناك بما يدل على صدقنا وليس الغرض اتحاد الحجة أو تعددها والجملة مقررة لقولهما : « إنا رسولا ربك » ودعوى الرسالة لا تثبت إلا بالبينة فقد للتحقيق أو للتوقع .

(وَالسَّلَامُ) السلامة فى الدنيا والآخرة ، أو سلام الله أو الملائكة وخزنة الجنة .

وزعم بعضهم أن المراد السلامة وأنه لا يصح أن يراد التحية . (عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) .

وقيل : يحتمل أن يكون ذلك آخر كلام فيقوى أن يكون السلام بمعنى التحية جريا على العرف فى التسليم عند الفراغ من القول .

ويحتمل أن يكون فى دَرَج القول السابق واللاحق فيكون خبرا بالسلامة .
وقد قالت فرقة بالاحتمال الأول وفرقة بالثانى . وكان رسول الله ﷺ إذا كتب : السلام على مَن اتبع الهدى

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ) فى الدارين وتوبيخ خزنة النار .
(عَلَى مَنْ كَذَّبَ) ما جئنا به أو ما جاء به غيرنا من الرسل (وَتَوَلَّىٰ) أعرض عنه .

ومقتضى السياق السابق أن يقولا : والعذاب على من كذب وتولى ، وعدلا عن ذلك إلى قولهما « إنا قد أوحى » الخ تأكيدا وتهديدا ولو اكتفيا عن ذلك بقولهما : « والسلام على من اتبع الهدى » على سبيل التعريض لكفى ، لكنهما أرادا التأكيد والتصريح بالوعيد ؛ لأن التهديد فى أول الأمر أهم وبما وقع على الغير أو يقع بسبب فعله أليق .

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ) قال ذلك بعد ما أمراه بما أمراه بدليل الحال ، فكأنه لما قالا له : آمن بربك واعبده قال لهما : فمن ربكما هذا الذى تقولان تؤمنان به وتعبدانه ؛ فإن المطيع إذا أمر بشىء فعله .

وإنما خص موسى بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه ، أو لأن فى لسانه رُتّة باقية ؛ أو لأنه غير بالغ فصاحة هارون فطمع أن يفحمه .

(قَالَ رَبُّنَا) خبر لمحذوف أى هو ربنا . (الَّذِي) نعت أو خبر ثان أو ربنا مبتدأ والذى خبره .

(أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) كل مفعول أول وخلقه مفعول ثان ، أى أعطى

كل شيء صورته التي سبق علمه بها التمييز بها عن غيره ، التي تطابق المنفعة المتعلقة بها فأعطى الرجلين الهيئة التي هما عليها المطابقة للمشي ، وأعطى العين الشكل الموافق للإبصار ، وهكذا . أو أعطى كل شيء من الحيوانات نظيره في الخلق والصورة ، فأعطى الرجل المرأة ، والجمل الناقة ، وهكذا . ولم يزوج شيئا من غير جنسه إلا ما شذ .

ويصح أن يكون كل مفعولا ثانيا وخلقه مفعولا أول بمعنى اسم مفعول ، أى مخلوقات ، وأفرد لأن لفظه مصدر ، أى أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه . وقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بالذات ؛ لأن الغرض ذكر المنن .

وقرئ خلقه بفتح اللام ، فالجملة نعت كل أو نعت لشيء ، لجواز نعت المضاف إليه لكن نعت المضاف أولى .

وزعم بعض أن نعت المضاف إليه شاذ والمفعول الثاني محذوف أى أعطى كل مخلوق ما يصلح له .

(ثُمَّ هَدَىٰ) أى هداه لمنافعه . وقيل : هداه إلى معرفة كيف يأتي الأنثى وحذف المفعول للفاصلة . فإذا كان هو المعطي لكل شيء الخالق له الهادي له الميسر له كيف تبقى له المنفعة وتكمل ، فهو الغني بالذات المحتاج إليه كل ما عداه وهو جواب عظيم مفحم . ولذلك بهت فرعون ولم يجد له رداً ، فصرف الكلام إلى ما حكى الله تعالى عنه بقوله :

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ) كقوم نوح وقوم هود وقوم لوط وقوم صالح في عبادة الأوثان . أى ما حالهم عند ربك ؟ والبال : الحال .

(قَالَ عِلْمُهَا) أى علم بالهم . فالضمير للبال ؛ لأنه بمعنى الحال والحال يجوز تأنيثه ، أو تقرون على حذف مضاف ، أى علم بالها .

(عِندَ رَبِّى) فيبعثهم ويعاقبهم على المعاصى وعبادة الأوثان .

(فِى كِتَابٍ) فى اللوح المحفوظ خبر ثان ، أو متعلق بما يتعلق به عند ، ويقدر المحذوف ثابت أو مثبت أى مثبت فى اللوح المحفوظ ، أو يقدر مكتوب والكتابة إنما هى ليروا أعمالهم يوم القيامة مكتوبة فلا يمكنهم الإنكار . ويمكن أن يراد بالكتابة التمكن فى العلم

وقيل : المراد ما حال القرون فى السعادة والشقاوة فأجاب بأن الله عز وعلا عالم بهم يجازى المحسن بالإحسان ويعاقب المسىء .

وقيل : معنى جواب موسى رد العلم فى ذلك إلى الله وأنه لا يعلم وإنما نزلت التوراة بعد هلاك فرعون وقومه ، وهو باطل ، للقطع بأنه ﷺ عالم بأن من أحسن سعيد ومن أساء شقى ، إلا إن أراد القائل أن فرعون سأله عنهم بأعيانهم أى أخبرنى مَن كان منهم سعيداً ومَن كان منهم شقيا ، وأن موسى أجاب بأنه لا يعلم إلا ما علمه ربه .

وقد يجوز أن يكون سؤاله عن سائر أحوالهم فى الدنيا بتفصيلها شيئا تعنتا وخروجا عما فيه كلام موسى لإفحامه . فأجاب بأنى لا أعلم ذلك . ولما نزلت التوراة وُجد فيها بعضهم أحوالهم .

وأجاز بعضهم أن يريد : ما بال القرون الأولى لم تُبعث لها ؟

وقيل : ما بالهم ماتوا ولم يبعثوا ؟

(لَا يَضِلُّ رَبِّى) الضلال : أن يخطىء شيئا فى مكانه ولم يهتد إليه ، تعالى عن ذلك . وفى معنى ذلك : لا يغيب عن شىء .

وقرئ بضم الياء أى لا يضيع شيئا من أضله الرباعى .

(وَلَا يَنسَى) النسيان : ذهاب شىء عن بالك ، تعالى الله عن ذلك كما يضل البشر وينسى .

(الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا) الخطاب لمطلق المامن الحاضر والغائب . والحضور يغلب على الغيبة .

وقيل لفرعون وقومه . ومعلوم أن غيرهم مثلهم . والمهاد : الفراش أو جمع مهد ، ويدل له قراءة الكوفيين مهداً أى جعل ما لكم مثل المهد الذى يمهد للصبى . والذى نعت لربى أو خبر لمحذوف أو منصوب بمحذوف على المدح .

(وَسَلَكَ) سهل أو أوجد . قيل : أو جعل . قلت : أو أدخل بمعنى ما ذكر .

(لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً) طرقا أدخلها بين الجبال والبرارى والأودية تمشون فيها لمنافعكم .

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذا تمام كلام موسى . ثم قال عز وعلا تتميما لما وصفه به موسى وخطاباً لأهل مكة :

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى) أصنافاً مختلفة الألوان والطعوم والروائح والمنافع ، ربعض لكم ، وبعض لدوابكم . سميت أزواجا لازدواج بعضها ببعض أى لاقتران البعض بالبعض . وشتى ألفه للتأنيث جمع شتيت . ومن نبات نعت لأزواجا ومن للبيان . وشتى نعت أزواجا للتوكيد ، قيل : أو نعت نبات ولو كان جمعاً ؛ لأن نباتا فى الأصل مصدر يصلح للواحد فصاعداً .

وقيل : النبات أصله لما ينبت واستعماله مصـــدراً خروج عن ذلك وتشتت الأمر : تفرق فهو شتيت : متفرق .

وتعلم مما مر أن كلام موسى تم عند قوله : ماء أنه لا التفات .

وإن قلنا : إن كلامه لم يتم عند ذلك ففى الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم حكاية لكلام الله وإما التنبيه على ظهور كمال القدرة . والحكمة والإيذان بأنه مطاع تنقاد له الأشياء المختلفة ، فكما يدل عليهما التمهير بالتكلم

يدل التعبير بالغيبة فليسا سبباً للالتفات كما قيل. ثم الدلالة عليهما بالتكلم أقوى من حيث إن الكلام حينئذ نص من الله على لسان موسى لا كلام من موسى عن الله. فافهم.

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) مفعول لحال محذوفة وصاحبها ضمير أخرجنا أى قائلين: كلوا الخ، ولكن هذا القول عبارة عن الإذن وعدم المنع. أراد أن بعض النبات لكم، وبعضه علف لدوابكم.

وأصل العبارة: هى صالحة للأكل والرعى وأخرج الكلام إلى الأمر؛ لأنه أهز للنفوس ومضمن للآن فى الأكل والرعى.

قال بعضهم: من نعمة الله أنه جعل ما يخرج عن طعامنا كنوى التمر علفاً لدوابنا ولا يضيع. والأنعام: الإبل والبقر والغنم.

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَىٰ) لأصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل أو النُّهى جمع نُهية وهى العقل لنهيه عن القبائح كغرفة وغرف.

وزعم بعضهم أن النُّهى: الورع.

(مِنْهَا) من الأرض، وقدم حصرا واعتناء.

(خَلَقْنَاكُمْ) لما كان التراب أصل مواد أبداننا لأن أبانا آدم خلق منه قال: خلقناكم منها، أو يقدر مضاف أى خلقنا إياكم، وماصَدَقُ الوجهين واحد أو معنى خلقه إيانا منها: ما روى أن الملك يأخذ من التراب الذى يدفن فيه الإنسان فيبدده على النطفة فهو من تراب ونطفة، فالتقديم للاعتناء فقط أو للحصر الإضافى أى ما خلقناكم إلا من تراب أى مع نطفة ولم نخلقكم من غير التراب مع النطفة.

وإن أريد بالخلق منها كونهم فرعاً عمن خلق منها كآدم وكون نطفهم مخلوطة بتراب مداقهم كان جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، أو من عموم المجاز .

وإن أريد خلط النطف بالتراب مع تقدير المضاف فليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف فى جوازه ؛ لأن حذف المضاف مجاز بالحذف لا مجاز مرسل ولا بالاستعارة .

(وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) قدم الظرف للحصر والاهتمام ، أى ما تقبرون إلا فيها . وذلك تعديد لما تعلق بالأرض من المنافع : جعلها فراشاً لهم ، وجعل لهم فيها مسالك ، وأنبت فيها أقواتهم وعلوفات بهائمهم ، وهى أصلهم الذى تفرعوا منه ، وكِفاتُهم إذا ماتوا . ولذلك قال ﷺ : تمسحوا بالأرض فإنها بكم برّة . إشارة إلى أنها أم برة بالولد .

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ) بالبعث بتأليف الأجزاء المفترقة الفانية على الصورة السابقة ورد الأرواح إليها (تَارَةً) مرة . (أُخْرَىٰ) مقابل لقوله : « منها خلقناكم » فإن خلقهم منها هو الإخراج الأول منها .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ) أبصرناه . والضمير لفرعون ، أو المعنى عرّفناه . وعلى كل فهو من رأى المتعدى لواحد ، تعدى لاثنين لدخول الهمزة .

(آيَاتِنَا كُلَّهَا) أى عرّفناه حجة آياتنا .

ويجوز أن يكون أرى من رأى المتعدى لاثنين تعدى لثلاثة لدخول الهمزة والثالث محذوف ، أى أعلمناه آياتنا صحاحا .

والتأكيد بكل إما لشمول الأنواع ؛ فإنه ولو أراه تسع آيات فقط لكن هذه التسع شاملة بالتضمين لغيرها .

وأما شمول الأفراد التي هي التسع المذكورة : اليد والعصى وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل .

وإما لشمول الأفراد كلها ، بأن يكون موسى عليه الصلاة والسلام عدّد عليه الآيات الواقعة للأنبياء ، فالإضافة على الأول والثالث للاستغراق لكن على الأول إنما صح الاستغراق بالتضمين ، وعلى الثاني للعهد وعدّ بعضهم مكان نتق الجبل الطوفان

(فَكَذَّبَ) بها وقال : إنها سحر (وَأَبَىٰ) امتنع من توحيد الله وطاعته ، أو كره التوحيد والطاعة

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا) أرض مصر . (بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ) روى أن فرعون كانت فرائصه ترتعد خوفا مما جاء به موسى ؛ لعلمه أنه محق تنقاد له الجبال لو أرادها بشيء ، وأن مثله لا يخذل ولا يذل ، وأنه غالبه . وما قال أجئتنا الخ إلا تحيرا ؛ لأنه لا يخفى أن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر . والاستفهام للتوبيخ والتهديد .

(فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ) وجعل يجمع السحرة وهو يعلم أنه رسوله ولكنه طمع أن يضعف ويخاف ، وأن يجد فرصة في إلقاء شيء يتكلم به الناس من جانبه على موسى .

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا) مصدر ميمي بمعنى الوعد لقوله : (لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ) فليس باسم زمان أو مكان ؛ لأن الإخلاف إنما يناسب معنى المصدر وهو الوعد كل المناسبة ، لكنه قد يصح أن يكون اسم زمان أو اسم مكان ؛ لجواز أن يقال : خلف زمان الوعد أو مكانه بمعنى تخلف عنه وتركه ولا يقال : لو جعل اسم زمان أو مكان لبقي قوله : (مَكَانًا سُوًى)

بلا ناصب ؛ لأنا نقول : هو غير منصوب بموعد ولو جعل مصدراً ميميا؛ لأنه قد نعت بجملة لا تخلفه ، والمصدر المنعوت لايعمل ، فناصبه فعل محذوف دل عليه موعد أى نعد مكانا سويا ونصبه على المفعولية لا الظرفية ؛ لأنهم فى زمان إثبات للوعد ليسوا فى ذلك المكان السوى ، ولا أرادوا أنهم يمشون إليه ويعيّنون فيه الموعد إلا على تضمين نعد مكانا سويا نلقى الوعد فيه من موضعنا . وقيل على نزع فى وكما يدل الموعد مصدرا على ذلك المحذوف يدل الموعد مكانا أو زمانا ؛ لأن اسمى الزمان والمكان الميميين معناهما المكان والحدث ، والزمان والحدث . والحدث هنا هو المصدر .

ثم دلالة المصدر على المحذوف المذكور أولى ؛ لأن معناه الحدث فقط فهو بكليته يدل على المحذوف .

وظاهر جار الله أن مكانا منصوب بموعد وموعد مصدر ، وهذا بناء على جواز عمل المصدر المنعوت . وفيه بحث بسطته فى الهميان وابن هشام منع عمل المصدر الموصوف قبل العمل .

قال ابن عقيل فى شرح التسهيل : ويجوز بعده . ويجوز كون مكانا بدلا من موعدا . أما على جهة الموعد اسم مكان فواضح . وقد مر أن الإخلاف يناسب المكان والزمان مناسبة دون مناسبة المعنى المصدرى ، خلافا للقاضى وجار الله فى قولهما : إنه لايناسبهما .

وإن جعلنا الموعد مصدر ميمياً قدر مضاف أى مكان وعد ، ويطابق هذا جوابه فى قوله: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) فإن يوم الزينة يدل على مكان مشهور باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم .

وإذا جعلنا الموعد الثانى اسم مكان لم يصح الإخبار عنه بيوم فيقدر مضاف

أى موعدكم مكان يوم الزينة ، ولا نحتاج لتقدير نادى بعد لفظ مكان المقدر كما قدره القاضي .

وإن جعلنا الموعد الثانى اسم الزمان فواضح ، ولا تقدير لكنه لايطابق الموعد الأول إلا إن جعل الأول اسم زمان أو جعل اسم مكان وقدر مضافان ، أى مكان يوم موعدكم يوم الزينة أو جعل مصدراً وقدرت الإضافة أى وعدكم وعد يوم الزينة

وقرأ الحسن بنصب اليوم على الظرفية خبرا به عن موعدكم .

وعلى هذا القراءة فموعدكم مصدر ومضاف إليه وعليها تترجح مصدرية الموعد الأول ولا تجب خلافا لبعض، ولا يمتنع عليها خلافا لبعض أن يجعل الموعد الثانى زمانا لجواز ظرفية الزمان الخاص وهو هذا الزمان الذى يقع فيه ما يريد كل منهم فى العام ، وهو هنا جملة اليوم كقولك ساعة الإجابة فى يوم الجمعة . كذا ظهر لى فى تحقيق المقام وعليك السلام .

ويجوز على قراءة الحسن كون خبر الوعد ضحى ، أى ضحى من ذلك اليوم ، على أن موعدكم زمان .

وقرئ بجزم نخلف فى جواب الأمر وبضعف كون لا ناهية والقول مقدر ، أى مقولا فيه : لانخلفه .

وقرئ بعدم تنوين سوى ، وقرئ بضم السين مع التنوين وتركه .

ووجه عدم التنوين وتركه الوصل بنية الوقف ، أو جرى الوصل مجرى الوقف .

ونص أبو عمرو أن عاصما وابن عامر وحمزة قرءوا بالضم والباقين بالكسرة ، وأن أبا بكر وحمزة والكسائى وقفوا على سوى .

وقرأ أيضا بالضم بمقسوب . ومعنى سوى على القراءات : تستوى مسافته إلينا وإليك . قاله مجاهد .

وقيل : مستو غير منخفض ولا مرتفع وليس بمعنى غير ؛ لأن سوى بمعناها لا تتجرد عن الإضافة خلافاً لمن قال : هو بمعناها أى لا نعوضه مكانا سواه .

وقراءة كسر السين شاذة ، من حيث إنه جمع سوى بفتح السين وكسر الواو وتشديد الياء الذى أصله سَوُوى بوزن صبور اجتمعت الواو والياء والسابقة ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت وقلبت ضمة الواو قبلها كسرة وفعول بفتح الفاء لا يجمع على فِعَل بكسر الفاء وفتح العين ، ونظيره عدوّ وعِدا بكسر العين . قالوا ولا ثالث لها . هذا حاصل ما حلّت عليه كلام بعض، لكن لك أن تقول: سِوى مفرد وكذا سُوى بالضم . سلمنا أن المكسور جمع لكن لا نسلم أن سويا أصله بوزن صبوز بل أصله بوزن فعول .

ويوم الزينة هو يوم عاشوراء ، يوم فرح لهم ، يوم عيد فى كل عام ووافق أنه كان يوم سبت وأول سنة . وقيل : يوم سوق .

وإنما عيَّنه ليظهر الحق على رءوس الأشهاد . وإنما أضيف الزينة لتزينهم فيه.

وقال الثعالبي : وقيل : هو يوم كسر الخليج الباقى إلى الآن .

(وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) عطف على اليوم ، أى وعدكم وعد يوم الزينة وحشر الناس ، أو على الزينة ، أى يوم الزينة . وحشر الناس وضحى متعلق بيحشر .

وقرئ بالهاء للفاعل ونصب الناس ، وفى يحشر حينئذ ضمير فرعون إما التفاتا من الخطاب للغيبة ، وإما على طريقة خطاب الملوك كما تقول بحضرة الملك : يفعل الملك كذا . ففيه بعض من التعليم المأمور به . وإما على الخطاب فى

موعدكم لقوم دون فرعون ، والتكلم فى قوله يحشر عائد لفرعون أو فى يحشر ضمير اليوم . . .

وقرئ بالتاء والبناء للفاعل خطابا لفرعون والناس هم أهل مصر أو هم وغيرهم .

(فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ) أدبر (فَجَمَعَ كَيْدَهُ) ما يكيد به موسى عليه السلام وهو السحرة وآلاتهم : (ثُمَّ أَتَىٰ) بهم الموعد .

(قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ) قال للسحرة وهم اثنان وسبعون ساحراً ، مع كل واحد حبل وعصى . اثنان من القبط ، وهما رأسان للسبعين والسبعون من بنى إسرائيل .

وقال الكلبى : الرأسان مجوسيان من أهل نينوى .

وقيل : رئيساهم شمعون ويوحنا وهو قول مقاتل .

وقال ابن جريج : كانوا تسع مائة .

وقال السدى : هم مئتا ألف — فى رواية عنه — .

وقال أبو ثمامة : سبعة عشر ألفاً .

وقيل : هم أربع مائة .

وقيل : اثنا عشر ألفا ، وهو قول كعب .

وقال ابن إسحاق : خمسة عشر ألفا .

وقال عكرمة : سبعون ألفا .

وقال محمد بن المنكدر : ثمانون ألفا .

وقال السدى : بضعة وثمانون ألفا . وعنه : بضعة وثلاثون ألفا ، مع كل واحد حبل وعصى .

وروى أنه جمع سبعين ألفا ، واختار سبعة آلاف منهم ، واختار من السبعة

آلاف سهم مائة ، واختار منها سبعين فالضمير للسحرة المؤمنين من للقسام أو المشهورين فى القصة أو للكيد المذكور باعتبار وقوعه على السحرة فقط لا باعتبار وقوعه عليهم وعد آلائهم ، فذلك شبيه بالاستخدام .

ويجوز أن يراد بالكيد السحرة ، فالضمير لهم بلا إشكال . وإنما أعاد ضمير الجمع للكيد فى الوجهين نظراً لما أريد به .

ويجوز أن يراد بالكيد المعنى المصدرى ، والضمير للسحرة الذين يدل عليهم الكيد ، أو يقدر مضاف . أى لجمعَ ذوِى كيده وهم السحرة ، فالضمير للمضاف المحذوف .

ويجوز رجوع الضمير لقوم فرعون ، فإنهم ما بين ساحر وراض بالسحر مصدق به مريد غالبيته .

(وَيْلَكُمْ) أى هلاككم ، أو عذابكم ، مفعول مطلق عامله محذوف وجوبا من معناه .

ومن أثبت الفعل للويل قدره من لفظه والأصل : أهلككم الله هلاكا أو عذبكم تعذيباً على سبيل الدعاء ، ولما حذف العامل أضيف المفعول المطلق للمفعول أو مفعول لمحذوف أى ألزمكم الله الويل ، وهو العذاب ، أو الهلاك ، أو وَاد فى جهنم .

(لَا تَفْتَرُوا) لا تحدثوا (عَلَى اللهِ كَذِبًا) مفعول تفتروا . وإنما يستعمل الافتراء بمعنى مجرد الإحداث لدلالة كذبا على أنه إحداث فى الكذب ، وإلا فأصله إحداث الكذب مطلقاً أو العظيم .

ويجوز استعماله بمعنى الكذب، فيكون كذباً مفعولا مطلقاً، نهاهم عن ادعائهم أن آيات موسى سحر أو عن إشراكهم بالله غيره أو عن الكل .

(فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ) يستأصلكم به . قاله الحسن . والمصدر السحت بفتح السين وذلك لغة الحجاز .

وقرأ حمزة والكسائى وحفص ويعقوب بضم الياء وكسر الحاء والمصدر إسحات بكسر الهمزة وهو لغة نجد وتميم .

(وَقَدْ خَابَ) خسر الدنيا والآخرة .

(مَنِ افْتَرَىٰ) كذب على الله ، أو ادعى إلٰهاً مع الله ، أو قال فى الآيات : إنها سحر أو ادعى الربوبية .

وعلى كل حال فذلك تعريض بفرعون وقومه ؛ لأن فيهم تلك الخصال وكان يفترى ويحتال ليبقى الملك عليه ولم ينفعه .

(فَتَنَازَعُوا) أى السحرة أو قوم فرعون (أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) فى أمر موسى وأخيه ، حين سمعوا قوله : لا تفتروا الخ وحالهم هذا التحذير منه . فقال بعضهم : هو محق ، وما هذا كلام ساحر . وقال بعضهم : مبطل .

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ) والإسرار ـ بكسر الهمزة ـ : الإخفاء . والنجوى : الكلام الخفى خفاء ، أى بالغوا فى إخفاء الكلام مخافة أن يتبين لفرعون فيهم تحير وضعف .

ويحتمل أن يكون النجوى بمعنى مطلق الكلام تسمية للعام باسم الخاص . فالمعنى أخفوا الكلام ، وهذا الكلام الذى تناجوا به هو قولهم : إن غلبنا موسى اتبعناه . قاله ابن عباس .

وقال قتادة : إن كان ساحراً فسنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمر .

وعن بعضهم : أن تنازعهم وإسرارهم كان فى معنى واحد فسره بقوله : (قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) الخ زوّروا هذا الكلام خوفاً من غلبتهما نهتهما

الناس وتشاوروا فيما يغلبون به موسى ، والإشارة لموسى وهارون ، وهذه قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائى .

وقد أطال ابن هشام فى إعرابها فى شرح الشذور ، وأطلت فى حاشيته وإعرابها أيضاً فى المغنى وغيره .

وروى عن عائشة أن ذلك وقوله : والصابئون بعد إن ، وقوله : والمقيمين الصلاة قبل قوله والمؤتون خطأ من الكاتبين .

وعن عثمان أن ذلك لحن مكتوب لتستصلحه العرب بألسنتها .

قال السيوطى : كيف يظن بالصحابة وهم الفصحاء أن يلحنوا فى الكلام ، ولا سيما القرآن الذى تلقوه عن النبى ﷺ ، وأمروا بالصون له ؟ وكيف يجتمعون على الخطأ ثم كيف لا يرجعون عنه ؟ وكيف يكلونه إلى إصلاح العرب باللسان ويتركونه مكتوباً ؟

وما روى عامًّا أن فى الكتاب لحناً ستقيمه العرب محمول على نحو الحذف كالكتب والصبرين ، بإسقاط الألف فى الخط وعلى نحو الزيادة مثل ولا أوضعوا ولا أذبحنه .

وكيف يتركون الخطأ فى الكتاب لن يقيمه مع أن غيرهم إنما يقتدى بهم ثم

وروى أن عثمان لما عرضت عليه المصاحف بعد الفراغ منها قال : أرى شيئاً ستقيمه ، ومراده ما كتب بغير لغة قريش كما كتبوا التابوت التابوه وقد أقامه بلغتهم فلم يبق شىء .

وروى عن ابن جبير عن عثمان أن فيه لحنا سيقام . ومراده باللحن اللغة والقراءة للكاتب .

ومعنى قول عائشة خطأ من الكاتبين أنهم عدلوا عما هو أولى [illegible])

وعن النخعى : إن هذان لساحران بالألف مكان الياء والصابئون بالواو مكان الياء والمقيمين بالياء مكان الواو .

قال ابن أشتة : مراد به يقرأ هذان بالياء ولو كتب بألف . وهكذا كما كتب الصلاة بالواو ويقرأ بألف .

ورد بأن الكاتب هذان بألف مثلا يقرؤه بالألف وقد تبين أنه لا لحن .

وإن قلت : فما الإعراب ؟

قلت : هاذان اسم إن على لغة قصر المثنى .

وقيل : الألف ألف المفرد وياء النصب محذوفة أو اسم إن ضمير الشأن وهذان مبتدأ واللام زائدة أو للابتداء داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران .

ويرده أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف .

وقيل : ها اسم إن .

ورُدّ بحذف ألفها واتصالها باتذال وانفصال إن ، أو الألف بدل من الياء لمناسبة يريدان كما نُوّن سلاسلا لمناسبة أغلالا .

وقيل : إن بمعنى نعم ، وهذان مبتدأ واللام زائدة فى غيره ، وقد بحثت فى تلك الوجوه فى الحواشى النحوية .

وقرأ أبو عمرو إن هذين لساحران بالياء على الجهة الظاهرة المكشوفة .

وقرأ ابن كثير وحفص إن هذان لساحران بسكون النون ، على أن إن مخففة واللام للفرق بين النفى والإثبات ، أو إن النافية واللام بمعنى إلا .

وقرأ أبىّ إنْ ذان إلا ساحران بالإسكان .

وقرأ ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وأسروا النجوى أنّ هذان ساحران بفتح الهمزة والتشديد على الإبدال من النجوى .

وعن ابن كثير إن هذان لساحران بالإسكان وتشديد نون هذان ومد ألفه .

(يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) إلى غيرها ، أو المراد بالإخراج منها الاستيلاء عليها ؛ فإنه إذا كان الحكم لهما فكأنهما أخرجوهم منها (بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ) بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب، كما صرح بالتفضيل بقوله : (الْمُثْلَىٰ) فإنه تأنيث الأمثل بمعنى الأفضل والأشرف . ومرادى بالمذهب هنا الدين تبعاً للتعبير بالطريقة .

ومعنى ذهابهما بطريقتهم إزالتها وإظهار دينهما قال : إنى أخاف أن يبدل دينكم .

وقيل : الطريقة سادات القبط سموا طريقة من حيث إنهم قدوة لغيرهم متبوعة كما يتبع الطريق . تقول العرب : فلان طريقة قومه أى سيدهم وصاحب العقل منهم .

واستظهر بعضهم أن الطريقة المملكة أو السيرة .

وقيل : المراد صرف وجوه الناس عنكم .

وقيل : الطريقة المثلى : بنو إسرائيل ؛ لأنهم أهل علم ومال وعدد، أى بأهل طريقتكم . وإنما نسبتهم للطريقة من حيث بناؤها عليهم من كل ما احتاجوا . ويطابق هذا قوله : « أرسل معنا بنى إسرائيل » .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) بقطع الهمزة وكسر الميم من أجمع بمعنى أحكم وأتقن أى اضبطوا كيدكم وقووه ولا تختلفوا عليه .

وقرأ أبو عمرو فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم ، من جمع بمعنى لَمَّ أى ضموا كيدكم بعضه لبعض . والضمير فى قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعض لبعض ، وإن كان لهم ولفرعون فهو قولهم لأنفسهم .

(ثُمَّ ائْتُوا) للمكان الموعود (صَفًّا) مصطفين ؛ لأن ذلك أهيب وكانوا قيل : سبعين ألفا مع كل واحد حبل وعصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة ، وصفا حال .

وعن أبى عبيدة : الصف : المصلى لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم . والمراد مصلى معين أو مصلى من المصليات . وعلى هذه الرواية يكون مفعولا به .

(وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ) أى فاز الغالب فوزا محققا . واستعلى بمعنى علا لكن فيه التأكيد بالزوائد والجملة قبل معترضة وفيه نظر .

(قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) مفعول لمحذوف ، أى اختر إما إلقاءك أولاً .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ) وإما كوننا أول ملق أو خبر لمحذوف أى الأمر إما إلقاؤك أولاً ، وإما إلقاؤنا . لما أتوا صفًا خيروا موسى استعمالا للأدب وتواضعًا .

والمراد بأن تلقى : أن تلقى ما به تسحر أى إما أن تستعمل سحرك وتظهره أولاً .

وقيل : مرادهم أن تلقى عصاك على أنهم علموا أن عمله يكون بها .

(قَالَ) موسى : (بَلْ أَلْقُوا) أنتم أولاً . قال هذا مقابلة لتأدبهم بتأدب ، ولعدم مبالاته بسحرهم ، وإسعافا إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول فى إلقائهم دون إلقائه ؛ إذ قالوا : « أن نكون أول من ألقى » ولم يقولوا : إما أن نلقى أولاً ، مع أنه مراد ولكن أسقطوا لفظ أول ، وبتغيير النظم إلى وجه أبلغ ؛ إذ المطابق لقولهم : « إما أن تلقى » أن يقولوا : وإما أن نلقى . والمراد فى الشقين الإلقاء أولاً . وأيضا أكرم موسى بالإلقاء أولا لأنهم إذا بدأوا بالإلقاء واستقصوا مجهودهم فسلط الله المعجزة على سحرهم ومحقته كان أبهر من أن يبدأ

موسى فيسلطوا سحرهم على معجزته فلا يبطلها أو يخيلوا تخييلا من غير تسلط عليها . وقد أعلم الله موسى بأنه غالب فاطمأن أو ألهم ذلك إلهاما

وإن قلت : كيف قالوا : « أول من ألقى » بالمضى ؟

قلت : هو بمعنى المضارع وعبر بالماضى للفاصلة ، أو اعتبروا وقوع الإلقاءين ومضيهما والفراغ منهما ، حتى إن المخبر ليقول : هم أول من ألقى

وإن قلت : كيف أمرهم بإلقاء السحر وهو كفر ـ رضى الله عنهم ؟

قلت : إنما أمرهم به نظرا إلى محنته بمعجزته وفى محقه إعلاء الدين .

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ) جمع عصا ، وفى ذلك محذوف تقديره : فألقوا فإذا الخ . وإذا للمفاجأة حرف عند الأخفش وابن مالك .

قال ابن هشام: ويرجحه قولهم: خرجت فإذا إن زيدا بالباب بكسر إن لأن إن لا يعمل مابعدها فيما قبلها ، وظرف مكان عند المبرد وابن عصفور ، وظرف زمان عند الزجاج وجار الله القائل : الحقيقة أنها الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها ، وجملة تضاف إليها ، خصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة . والجملة اسمية أى ففاجأ موسى تخيله وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم .

قال ابن هشام : وذلك زعم منه ، بل ناصبها الخبر المذكور ، أو المقدر بعدها وأطلت الكلام فى النحو .

وأصل عصيهم عصووهم بناء على أن ألف العصى عن واو وهو الصحيح أدغمت الواو فى الواو وقلبتا ياءين وكسر ما قبلهما ، أو أصله عصويهم بضم العين والصاد وإسكان الواو قلبت ضمة الصاد كسرة وقلبت الواو ياء لسكونها بعد كسرة وأدغمت فى الياء ، أو لما اجتمعت مع الياء وسكنت قلبت ياء وأدغمت

وكسرت الصاد بعد ذلك . وأما كسرة العين فتبع لكسر الصاد . وكذا ظهر لي وزنه فعول .

وقرئ بضم العين تركا للإتباع . وفيه التصريف والوزن المذكوران . ثم رأيت بعض ذلك للسيوطي وغيره .

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ) من للتعليل . (أَنَّهَا تَسْعَىٰ) نائب يخيل .

وقرئ بكسر الياء الثانية . أي بأنها تسعى والفاعل ضمير يعود إلى الله عز وعلا .

وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر تخيل بالفوقية والبناء للمفعول والنائب ضمير الحبال والعصي وافقا أنها تسعى بدل اشتمال منه .

وقرئ بالفوقية والبناء للفاعل الذي هو ضمير ذلك ، وأنها تسعى مفعول به ونسب لابن ذكوان عن ابن عامر .

وقرئ تخيل بفتح الفوقية وفاعله ضمير ذلك ، وأنها تسعى بدل منه وأصله تتخيل حذفت إحدى التاءين .

روى أنهم ضمخوا الحبال والعصي بالزئبق ، ولما طلعت عليها الشمس اضطربت في رؤية العين كأنها تتحرك ، وكانت قبل أخذت ميلا لكل جانب .

(فَأَوْجَسَ) أضمر . (فِي نَفْسِهِ خِيفَةً) نوعا من الخوف (مُوسَىٰ) ظن أنها حيات تقصده . ومثل هذا مطبوع في البشر لا يكاد يخلو منه كائنا ما كان .

وعن بعض أن الإيجاس للخوف إضمار بعض منه قليل .

وقيل : إنما خاف من أن يخالج الناس شكٌّ فلا يتبعوه .

(قُلْنَا لَا تَخَفْ) ما توهمت .

(إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ) تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكدا بالاستئناف ،

وحرف التحقيق وهو إن ، وبتكرير الضمير ، سواء جعل بدلا من الكاف أو توكيدا له أو لا محل له أو مبتدأ ، وبالحصر بتعريف الطرفين ، وبصيغة التفضيل من لفظ العلو ؛ فإنه لو قيل : إنك غالب أو قال : غير مغلوب لكفى ، مع أن قولك : غير مغلوب يحتمل التكافؤ ، فعدل إلى الأعلى لذلك وللفاصلة ، كما أنه أخر موسى ـ مع أنه فاعل أوجس ـ للفاصلة ، وعاد الضمير إليه مما قبله وهو فى النية بعده . والأصل خِوْفة قلبت الواو ياء لكسر قبلها .

هذا ولا يخفى أن لفظ الغاية ولو أفاد الظهور أو القهر لكن لفظ العلو أولى منه .

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) أى العصى وإنما أبهمها تحقيرا لكيدهم بتخريجها مخرج التحقير ، أى لا تُبالِ بما رأيت من سحرهم ؛ فإنه مع كثرته إنما تحققه عصا صغيرة ، ولا تُبقى منه أثرا ولا عينا ، أو أبهمها تعظيما لها أى لا تُنال بسحرهم ؛ فإن فى يدك شيئا عظيما يدمغه .

(تَلْقَفْ) تبلع بقدرة الله عز وعلا . وأصله تتلقف حذفت تاء الماضى أو تاء المضارع . وتاء المضارع إما للتأنيث مراعاة لمعنى « ما » لوقوعها على العصى والعصى مؤنث ، أى تلقف عصاك ، فضمير تلقف عائد لما وما بمعنى العصى ، وإما خطاب لموسى تجوز فى الإسناد إذ أسند التلقف إليه مع أنه للعصى ، لأنه له فيه تسبب وهو الإلقاء أو للمجاورة .

وقرأ ابن عامر بالرفع على الحال المقدرة ، أى ألقها وهى فى قوة التلقف به أو على الاستئناف .

وقرأ حفص بالجزم وإسكان اللام فلا تشدد القاف من لقفته بعدم التشديد بمعنى تلقفته (مَا صَنَعُوا) من السحر

روى أن فرعون جلس فى عِلية له طولها ثمانون ذراعا والناس تحته فى بسيط

فجاء سبعون ألف ساحر ، فأقبلوا وقد ثلاث مائة مهر ، فألقى موسى عليه السلام عصاه فاستحالت ثعبانا وجعل ينمو حتى عبر فى النهر . وقيل : البحر بذنبها .

وروى أن ذلك فى الإسكندرية . وكان ذنب الثعبان من وراء بحر الروم عرضا ، وسدت الأفق .

وروى أنها كالجبل .

وروى أنه طال حتى جاز مدينة البحيرة وأن ذلك فى الإسكندرية .

وقيل : إنه بمصر وأنه طال حتى جاز بذنبه بحر القلزم قيل : هذا قول بعيد من الصواب ، مفرط الإغراق ، أى المبالغة . وفرعون فى كل هذا يضحك ويرى أنه غالب . ثم أقبلت على الحبال والعصى تأكلها فأفنتها ثم فغرت فاها نحو فرعون ففزع ، فاستغاث بموسى ، فمد يده إليها فكانت عصا .

(إِنَّمَا صَنَعُوا) ما موصول اسمى اسم لإن أو حرفى واسم إن مصدر صنع .

(كَيْدُ سَاحِرٍ) خبر إن .

وقرئ بنصب كيد مفعولا لصنعوا وما كافة .

وإذا جعل ما اسما لأن فالكيد أصله مصدر بمعنى ما وقع به الكيد ، وإلا فهو باق على معنى المصدر . وإذا كانت كافة جاز المعنيان .

وقرأ حمزة والكسائى كيد سحر على حذف مضاف ، أى كيد ذى سحر ، أو ذوى سحر ، أو على تسميته الساحر سحرا مبالغة ، أو على إضافة البيان ، كقولهم : علم فقه وعلم نحو وعلم بيان .

وذلك أن الكيد يكون سحرا وغير سحر ، فبيّن أنه كيد سحر كما أن العلم يكون علم فقه وغيره فبيّن أنه علم فقه .

وإنما قدرت المضاف مفردا مطابقة لساحر فى القراءة الأولى ، وقدرته جمعا باعتبار الواقع ، فإنهم جماعة ، لكن الغرض الحقيقية لا الإفراد ، كما أنه وحد الساحر فى القراءة الأولى ؛ لأن المراد مطلق الجنس لا معنى العدد . ولذلك قال :

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ) أى هذا الجنس . وكذا المراد فى قوله : « كيد ساحر » لكن نُكر فيه لأجل أن يبقى كيد على التنكير ، أى كيد سحرى ، بوصف كيد بسحرى . ومن ذلك قول العجاج :

يوم ترى النفوس ما أعدت   فى سعى دنيا طال ما قدمت

أى سعى دنيوى .

ويحتمل أن يكون التنكير للتحقير ، أى ساحر حقير الشأن ودنيا حقيرة .

ويحتمل الوجهين قول عمر ـ رضى الله عنه ـ : إنى أكره أن أرى أحدكم لا فى أمر دنيا ، وقوله : ولا فى أمر آخرة يحتمل الأول ، ويحتمل التعظيم .

(حَيْثُ أَتَىٰ) قال ابن عباس : حيث كان أى إذا أقبل إلى موضع وقام فيه السحر فلا يفلح ، أى لا ينال مرغوبه . وهذا تفسير معنى . وحيث ظرف مكان وفسرها بعض بالحين .

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ) أى ألقاهم تلقف العصى الذى هو معجزة دالة على الله (سُجَّدًا) لله تعالى على الأرض بوجوههم توبة وتعظيما للمعجزة جمع ساجد .

وإنما أسندنا الإلقاء للتلقف لأنه السبب ، أو الأصل : ألقاهم الله سجدا بسبب التلقف .

قال جار الله : سبحان الله ما أعجب أمرهم ! ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين .

وروى أنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة وثواب أهلها ، والنار وعقاب أهلها .

وعن عكرمة : لما خروا سجدا أراهم الله سبحانه فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة .

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ) قدم هارون لكبر سنه أو للفاصلة ، أو لأن فرعون ربى موسى فى صغره ، فلو اقتصروا على موسى وقدموه فربما توهم السامع وقتئذ أن المراد بارب فرعون - لعنه الله ، وأن ذكر هارون استتباع ، أو تعميم لربوبيته . وهذا تحقيق الكلام فى هذا المقام .

(قَالَ) فرعون : (آمَنتُمْ) بهمزة الاستفهام والألف بعدها هو همزة آمن يؤمن ، قلبت ألفا . وأما ألف آمن فمحذوفة وكتبت حمراء إعلاما بأنها قد كانت لا لتقرأ . كذا قيل ، والحق أنها كتبت لتقرأ لأن تمد الهمزة مدا مطولا فى قدر ألفين .

وقرأ حفص وقنبل بهمزة وألف واحدة ، على الإخبار على جهة الإنكار ، أو على تقدير همزة الاستفهام .

وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بهمزتين مخففتين بعدها ألف (لَهُ) أى به ، أو اللام على أصله ، فيتضمن آمنتم معنى خضعتم ، أو صرتم له أتباعا .

(قَبْلَ أَنْ آذَنَ) أنا . (لَكُمْ) فى الإيمان به .

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ) عظيمكم فى السحر وأعلمكم به أو أستاذكم (الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) وأهل مكة يقولون لمعلمهم القرآن أو غيره : كبير . يقولون : أمرنى كبيرى . وقال لى كبيرى .

وروى أنه قال لهم : قد تواطأتم على ما فعلتم .

(فَلَأُقَطِّعَنَّ) التشديد للتأكيد .

وقرئ بفتح الطاء غير مشددة وإسكان القاف وفتح الهمزة (أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ) اليد اليمنى والرجل اليسرى وكل واحد من العضوين خالف الآخر ؛ لأن هذه يد وهذه رجل واليد يمنى والرجل شمال ومن للابتداء ، لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو الآخر لا من رفقه إياه ، متعلقة بأقطعن ، أو بمحذوف حال من الأيدى والأرجل وهما جمعا قلة ، وأراد بهما الكثرة . والأصل أيديكم بضم الدال كسرت لئلا تقلب الياء واوا . ويجوز كون من للمصاحبة .

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ) بالتشديد للتأكيد .

وقرئ بكسر اللام غير مشددة وإسكان الصاد وفتح الهمزة . وهو أول من قطع الأيدى والأرجل وصلب (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)

قال ابن هشام : « فى » للاستعلاء بمعنى على . انتهى . وإيضاحه أنه شبه الاستعلاء للطلق بالظرفية المطلقة بجامع التمكن فسرى التشبيه بجزئيات كل فاستعار لفظ « فى » لمعنى على وهو استعلاء جزئى استعارة تبعية تحقيقية هذا مذهب الكوفيين .

وقال البصريون : « فى » هنا للظرفية . شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحالّ فيه ، على طريق الاستعارة بالكناية ، أو شبه الجذوع بالظروف بجامع التمكن فى كل على طريق الاستعارة بالكناية . و « فى » على الوجهين تخييل ومن أراد تحقيق ذلك فعليه بشرحى على شرح عصام الدين .

وعن أبى حيان : حفر لهم فى الجذوع فالظرفية حقيقة . وقد يقال حقيقة بلا حفر باعتبار أن الجذوع قد ألصقوا بها ، وفضلت منهم أطرافها بل أو لم تفضل فانهم .

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا) أنا أو موسى ، أو أنا ورب موسى . وعلى الأول ففي الكلام رفع لنفسه بما اعتاده من القهر بالعذاب وتحقير موسى والتهكم به ، حيث أثبت له التعذيب مع أنه لا يقدر في ذلك المقام على تعذيب أحد بل يقدر على مقابل المعجزة ، ولكنه ليس من التعذيب في شيء . قال جار الله : اللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله : يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين .

(أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) عذابا . وقيل : أبقى عقابا وهو أعم ، وكذا قول بعضهم على المخالفة .

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ) لن نختارك (عَلَى مَا جَاءَنَا) الضمير المستتر لما . ولا يجوز أن يكون لموسى ، ويقدر الرابط أي ماجاءنا به موسى ؛ لأن هذا الربط مجرور بما لم يجر به الموصول ، ومتعلق بما لم يشبه ما تعلق به جار الموصول . كذا ظهر لي وأجازه القاضي .

(مِنَ الْبَيِّنَاتِ) حال من ما ، أو ضميره المستتر ، أو الهاء المقدرة – على ما قال القاضي

(وَالَّذِي فَطَرَنَا) خالقنا . والعطف على ما . ويجوز أن تكون الواو للقسم وجوابه محذوف دل عليه « لن نؤثرك » كذا فسرت كلام القاضي ، ولكن قال ابن هشام : تلقى القسم بلن ولم نادر جدا كقول أبي طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّدَ في التراب دفينا

وأجازه بعضهم بلا ندور .

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ) افعل ما أردت أن تفعله . وهذا الأمر يسميه علماء الأصول تفويضا . وكذلك سموا الأمر في قوله : « ألقوا ما أنتم ملقون » لاحتقار سحرهم بالنظر لمعجزة موسى التي أعلم موسى أو ظن أنها تكون .

ويصح أن يكون الأمر مما للإنذار مثل : « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » ويسمى تهديداً ، كأنه قيل : من وراء نملك الآخرة لنا بالرحمة ولك بالعذاب .

وبعضهم يفرق بين التهديد والإنذار بذكر الوعيد مع الإنذار . وعليه فالأمر تهديد ، والرابط محذوف مضاف إليه ، أى قاضيه ، أو مفعول به ، أى قاض إياه ، أو مجرور بلام التقوية ، أى قاض له ولام التقوية زائدة أو كالزائدة فلا يبحث بأنه كيف يحذف العائد المجرور بالحرف مع أن الموصول لم يجر بمثل الجار له .

قال ابن هشام : ويجوز حذف العائد المجرور بالإضافة ، إن كان المضاف وصفاً غير ماض نحو : « فاقض ما أنت قاض » .

قال خالد خلافاً للكسائى : وإن قلت : كيف أجزت تقدير قاض إياه بالانفصال مع إمكان الاتصال ؟

قلت : لأن انفصاله على المفعولية واتصاله على الإضافة فلم يكن الاتصال إلا على جهة غير جهة الانفصال ، ولأنه إنما يمتنع الانفصال مع إمكان الاتصال فى الاستعمال لا فى التقدير .

قال ابن هشام فى حاشية التسهيل: و« ما » هذه يحتمل أن تكون مصدرية أى اقض قضاءك أو مدة قضائك ، بدليل قوله تعالى: (إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) اهـ .

وإنما أجاز ذلك لأن الجملة الاسمية بعدها ، الخبر فيها مشتق ، أى المعنى افعل ما شئت ، إنما تفعل ما تهواه فى الدنيا ، والآخرة خير ، فإنما تقضى الخ كتمهيد لما بعده وتعليل لما قبله وتهديد له ، أى تفعل اليوم تجازى غداً .

وهذه ظرف زمان لوصفه بالمصدر الدال على الزمان أو لإبدال المصدر

المذكور منه ، أو عطفه عليه عطف بيان . تقول : كان كذا وكذا حياة فلان ، أى فى حياته .

وقيل : منصوب على نزع فى .

وقرئ تُقضَى هذه الحياةُ الدنيا ، بالبناء للمفعول والرفع ، كقولك : صِيمَ يومُ الجمعة .

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا) كبائرنا وصغائرنا .

(وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) عطف على خطايانا . ويؤخذ منه أنه خير للإنسان أن يموت ولا يسحر ولا يتعلمه ؛ فإنهم طلبوا الغفران لما فعلوا من السحر وتعلمه وهم عليه مكرهون . كذا ظهر لى .

وإن قلت : كيف أكرههم وهم جاءوا مختارين ؟

قلت : قيل : أكرههم أولا على تعلم السحر . فالمراد على هذا بالإكراه على تعلم السحر . قيل : كانوا اثنين وسبعين : اثنان من القبط ، وسبعون من بنى إسرائيل .

وقيل : قالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً نفعل ، فرأوا عصاه تحرسه . فقالوا له : ما هو ساحر . الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه ويستعملوا سحرهم .

(وَاللهُ خَيْرٌ) ثواباً . (وَأَبْقَى) عقاباً . وفيه رد لقول فرعون : « أينا أشد عذاباً وأبقى » وقيل : خير منك يا فرعون ومما تدعونا إليه .

واختلفوا : هل أنفذ فرعون وعيده فيهم ؟

ويدل على أنه أنفذه قوله ﷺ : كانوا أول النهار سحرة وآخر النهار شهداء . رواه الشيخ هود ـ رحمه الله ، وذلك آخر السحرة .

وقيل : ما رآى أيضاً من كلامهم ، وعظوا به فرعون .

(إِنَّهُ) أى الشأن (مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا) أى يموت على شركه أو نفاقه .

(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا) فيستريح (وَلَا يَحْيَىٰ) إما على حذف النعت والمنعوت ، أى حياة نافعة ، أو على تشبيه حياته بعدمها ، لعدم ما وجد من المنافع ، والقرينة قوله : لا يموت

(وَمَنْ يَأْتِهِ) بالياء بعد الهاء لعدم الاعتداد بالياء المحذوفة قبلها

وقرأ قالون بالاختلاس اعتداداً بها فى رواية عنه فى الوصل وأبو شعيب بإسكانها فيه ، وتلك روايات عن نافع ، والمشهور الياء .

والمشهور عن قالون عنه الاختلاس ، وروى عنه الياء .

ومن العرب من لا يمد الهاء بياء أو واو مطلقاً ، ويحتمل أن يكون هذا هو معتمد المختلس كذا قيل .

والحق أن معتمده الساكن المحذوف كما مر .

(مُؤْمِنًا) مات على الإيمان الكامل وهو حال .

(قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ) الفرائض والنوافل فى الدنيا حال أخرى وصاحب الحالين ضمير يأت ، فهما مترادفتان ، أو صاحب الثانية ضمير مؤمناً فمتداخلتان والثانية مؤكدة ؛ لأن المؤمن اسم الموحد الموفى بالعمل الصالح ، وإن جعل هنا بمطلق الموحد فمؤسسة .

(فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ) المنازل (الْعُلَىٰ) الرفيعة جمع عليا مؤنث أعلى كالكبرى .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) بدل من الدرجات ، أو خبر لمحذوف على المدح . والعدن : الإقامة .

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) تطهر من الذنوب .

وقال ابن عباس : قال : لا إله إلا الله وقدمر أشراط العمل الصالح وهو فعل ماض كما هو ظاهر وخالدين نصبه معنى الإشارة ، أو الثبوت في قوله : « لهم » و« تجرى من تحتها الأنهار » نعت لجنات ؛ لأنه هنا نكرة أو حال لجنات للإضافة لعدن وإن تكلف له تعريف تعينه الحالية .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى) هذا باتفاق من كلام الله سبحانه لسيدنا محمد ﷺ (أَنْ) تفسيرية لأن في الوحي معنى القول دون حروفه . ومن أجاز دخول المصدرية على الطلب أجاز مصدريتها أى أوحينا إليه الأمر بالإسراء أو بالأمر به .

(أَسْرِ بِعِبَادِي) بنى إسرائيل من مصر . والإسراء : المشى ليلا . وهو هنا بمعنى السرى وهو أولى من أن تجعل همزة ماضيه للتعدية لأدائه إلى كون الباء زائدة .

وقرئ أن أسر بكسر النون ووصل الهمزة من سرى .

(فَاضْرِبْ لَهُمْ) بالعصى (طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ) أى فاجعل لهم كقولك : ضرب له في ماله سهماً أو فاتخذ لهم ، كقولك : ضرب اللبن أى اتخذها بأن عملها (يَبَساً) مصدر كاليبس بضم بإسكان كالعدم والعدم والسقم والسقم وصف به مبالغة ، أو لتأويل بيابس أو بذى يبس وللمصدرية وصف به المؤنث والتثنيا والجمع بلفظ واحد نحو شاة يبس ، أى جف لبنها .

وقرئ يابساً إما على أنه وصف كنشز المكان فهو شاز ، أى خشن ، أو ارتفع أو غير ذلك ، أو على أنه مخفف من اليبس بكسر الباء كيقظ فهو يقظ ، ويقظ ، بكسر القاف وإسكانها ، أو على أنه جمع يابس كراكب وركب وصف به

المفرد مبالغة ، كقولك معًى جياع ، فمى واحد الأمعاء ، وجياع جمع جائع به وصف به مبالغة فى الجوع ، أو وصف به للفرد لتعذره منى ؛ فإنه جعل لكل سبط طريقاً .

قال الشيخ هود : قال الحسن : أتاه جبريل على فرس ، فأمره فضرب بعصاه البحر ، فصار فى البحر اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يبس .

وأجاز القاضى كون يبساً بفتح فإسكان مخففاً من يبس بفتحتين .

قلت : الذى حفظناه أن تخفيف فعل بفتح الفاء والعين بالإسكان نادراً وضرورة ، وإنما يخفف فعل بضم العين أو كسرها . ولى فى يبسا فى الآية بحث فى شرح اللامية .

(لَا تَخَافُ دَرَكًا) اسم مصدر بمعنى الإدراك ، أى لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده من ورائك .

وقرأ أبو حيوة بسكون الراء ، وهو كالدرك بالفتح والجملة صفة من طريقاً ثانية والرابط محذوف أى فيه وإن جعلنا فى البحر صفة ، فتلك ثلاث صفات ولك أن تجعل الجملة حالا من ضمير يبساً ويبسا حالا من ضمير مستتر فى قوله : « فى البحر » إن جعل صفة لا إن علق باضرب ، لأنه لا ضمير فيه حينئذ .

وقرأ حمزة لا تخف بالجزم فى جواب الأمر أو بالنهى .

(وَلَا تَخْشَىٰ) عطف على لا تخاف : وأما على قراءة جزم تخاف . فجملة لا تخشى مستأنفة أى ومن شأنك أنك آمن لا خاش ، أو معطوفة على لا تخف وثبت الألف الفاصلة ، أو جاء على لغة ذكرها بعض النحاة أن بعض العرب يثبت حروف العلة فى الجزم . وعلامة الجزم على هذه اللغة حذف الضمة المقدرة على الحرف .

قال القاضى : أو حال بالواو ، أى على حذف المبتدأ ، أى وأنت لا تخشى ؛ لأن الحال الذى هو جملة المضارع المنفى بلا ومرفوعه لايقرن بالواو ، قاله ابن هشام خلافا لابن محمد بن مالك والمراد لا تخشى غرقا من البحر أمامك .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) خرج موسى بعباد الله أول الليل فأخبر فرعون بذلك ، فقص أثرهم وأتبع لموافقة المجرد ، أى تبعهم والباء المصاحبة أو معاقبة لهمزة التعدية متعلقة بأتبع . ويجوز على المصاحبة تعليقها بمحذوف حال .

ويؤيد ذلك قراءة بعضهم فتبعهم أو الهمزة . للتعدية والمفعول الأول محذوف ، أى أتبعهم نفسه ، والباء للمصاحبة ؛ أو المفعول الأول هو جنود زيدت فيه الباء .

وإنما قلت : المفعول الأول نفسه أو جنود أى والثانى الهاء قبل الميم قدمت لأنه وجنده فاعلان معنى لأنهما تابعان وفى خروج فرعون تحريض لجنده . وقال ابن هشام : زيادة الباء فى مفعول ما يتعدى لاثنين قليلة .

(فَغَشِيَهُمْ) أى أصاب فرعونَ وجنودَه قيل : أو الضمير لجنوده .

(مِنَ الْيَمِّ) بحر القلزم . وزعم بعضهم أنهم غرقوا فى بحر النيل .

(مَا غَشِيَهُمْ) أبهم الصلة تهويلا ومبالغة . وفى الكلام اختصار ، أى أى أصابهم ما سمعت قصته وهو الغرق ، ولا يعرف كنهه إلا الله سبحانه وكانت جنوده قيل أربعين ألف ألف .

قال ابن هشام : شرط الصلة أن تكون معهودة أى للمخاطب إلا فى مقام التهويل والتفخيم فيحسن إبهامها نحو « فغشيهم من اليم ما غشيهم » .

وقال الرودانى : الصلة أبدا تكون معهودة إما خارجا وإما ذهنا . والآية

من تعريف الحقيقة فى ضمن كل فرد منه من العهد الذهنى . ويجوز أن تكون من الخارجى أى الذى يعرف فى الخارج أنه غشيهم ؛ فإن المعهود خارجا يجوز كونه مجملا كما يكون مفصلا . ومن للابتداء أو للظرفية ، وأجيز كونها للبيان من ما فتعلق بمحذوف حال منها .

وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم بالتشديد ، أى غطاهم وعليه فالفاعل ما كما فى القراءة الأولى .

ويجوز كونه على القراءتين ضميرا مستترا لله سبحانه ، أو لفرعون لعنه الله ؛ لأنه سبب هلاكهم . وعليه فما مصدرية ، والمصدر مفعول مطلق ، أو اسم واقع على المصدر مفعول مطلق . وعلى التشديد يجوز كونه مفعولا أول ، أخر بناء على أن التشديد للتعدية لا للتوكيد .

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) إضلالَ دين ؛ إذ دعاهم لعبادته ، وإضلال الدنيا ؛ إذ وصلهم هذا الموصل المخزى

(وَمَا هَدَىٰ) أى ما هداهم لصلاح دين ولا دنيا وذلك رد لقوله : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » وتهكم به وذلك من التلميح البديعى وهو أن يشار فى أثناء الكلام إلى قصة أو شعر أو مثل من غير ذكره ؛ فإن « وما هدى » إشارة إلى ادعائه ، إشارة قومه مثل أن يدعى زيد أنه يبالغ فى القتال . فإذا لم يفعل قلت له : ما بالغت فى القتال ، وحذف المفعول للفاصلة وهكذا فى مثله مع العلم به والاختصار .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر ، وإغراق فرعون ومَن معه ، على إضمار قلنا أو خطاب للذين منهم ، فى عهد النبى ﷺ بما فعل بآبائهم ، فلا يقدّر القول . والأول أولى ، وإضمار القول كثير

(قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ) وقرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم . (مِنْ عَدُوِّكُمْ) فرعون وقومه . (وَوَاعَدْنَاكُمْ) وقرئ وواعدتكم (جَانِبَ) وقرأ بعض ووعدناكم ، وبعض ووعدتكم (الطُّورِ) الجبل . (الْأَيْمَنَ) نعت جانب ، لنزول موسى التوراة فيه ، للعمل بها ، وللمناجاة .

وإنما عدّ المواعدة على بنى إسرائيل أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ، مع أنها لموسى أو له وللسبعين المختارين لكون موسى والسبعين منهم وفيهم ولعود ذلك إليهم وذلك الطور هو طور سيناء .

وقرئ بجر الأيمن ، مع أنه نعت للجانب ، لجواره المخفوض ، وهو الطور ومعنى كونه مجرورا أنه على صورة المجرور ، وإلا فكسرته ليست إعرابا ، كما أنها لم تكن بناء ، ولكنها للمناسبة ونصبه مقدر .

ويجوز على هذه القراءة أن يكون نعتا للطور لما فيه من اليُمْن ، أو لأنه على يمين مَن يمشى فى الجادّة .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ) الترنجبين ينزل عليهم مثل العسل فى محلتهم فى التيه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (وَالسَّلْوَىٰ) الطير المسمّى السُّمانى بالقصر .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) وقرأ حمزة والكسائى ما رزقتكم . والطيبات : الحلال ، أو اللذائذ . والإضافة للبيان أو للتبعيض ، فإن من الرزق ما هو حلال وما هو حرام . هذا مذهبنا معشر الأباضية .

(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ) أى فيما رزقناكم ، أى لا تجاوزوا الحد فيه بالإسراف ، ومنعه عن مستحقه ، والتكبر ، وعدم الشكر ، واستعماله فى المعاصى ، والتقوّى به عليها .

وقيل : لاتدخروا وقيل : كانوا لا يأخذون لغد لأنه يفسد ، ولا يوم الجمعة ويوم السبت ؛ لتفرغهم للعبادة .

قيل : لولا بنو إسرائيل ما اختير الطعـام ، ولولا حواء ما خانت أنثى زوجها .

(فَيَحِلَّ) أى يجب (عَلَيْكُمْ غَضَبِي) من حَلَّ الدَّيْنُ : إذا وجب أداؤه وقرأ الـكسائى بضم الحاء ، بمعنى ينزل .

(وَمَنْ يَحْلِلْ) يجب . وقرأ الـكسائى بضم اللام ، أى ينزل . (عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ) هلك وقيل : وقع فى الهاوية .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ) كثير الغفران وعظيمه ، ففيـه توجيه (لِمَنْ) لذنوبه ، فهو بتقدير مضاف . ويحتمل بيـــان إن لا تقديرا ، أى لا أظهره على رءوس الأشهاد بالفضيحة ، واللام للتقوية عائدة لغفار .

(تَابَ) من الشرك (وَآمَنَ) وحَّد الله . وفيه تأكيد ؛ فإن من تاب من الشرك قد آمن .

(وَعَمِلَ صَالِحًا) أدى الفرض الذى هو عمل الواجبات ، وترك المحرمات (ثُمَّ اهْتَدَىٰ) علم أن ذلك توفيق من الله تعالى .

وقيل : لزم ذلك إلى الموت .

وقيل : علم أن لذلك ثوابا .

وقيل : أقام على السنَّة بإزالة الاعتقاد الفاسد عن قلبه ، كما طمع فى دخول الجنة بمجرد الإيمان دون العمل ، وكادعاء رؤية البارى . والله أعلم بمراده . وهذه شروط الغفران أيضا للـكبائر التى ليست بشرك .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : وإنى لغفار لـكبائر الشرك ، وكبائر النفاق ،

لمن تاب منها ، وآمن بكل ما يجب الإيمان به إيمانا خالصا؛ فإن كان مشركا فليؤمن إيمانا خالصا، وإن كان قد آمن إيمانا غير خالص فليؤمن إيمانا خالصا،وعمل صالحا معتبرا ، وهو الذى لم يعقبه بما يفسده من الكبائر . ولزم على ذلك إما الجمع بين الحقيقة والمجاز ، أو الجمع بين معنيين كلمة أو عموم المجاز ويبنى على جواز ذلك .

(وَمَا أَعْجَلَكَ) ما مبتدأ استفهامية توبيخية ، وفاعل أعجل مستتر جوازا ، يعنى أى شىء حملك على العجلة ؟ أو ما مبتدأ تعجبية. والمراد : تعجيب من يمكن منه التعجب ، ففاعل أعجل مستتر وجوبا .

(عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ) عاتبه على العجلة وأنكرها عليه ، لأنها نقيصة من حيث تركه للقوم مع أنهم معه وسبقهم ، ومن حيث إغفاله للقوم ، وإيهام التعظيم عليهم .

والقوم : النقباء : السبعون المختارون ، تقدم منهم إلى الطور ليأخذوا معه التوراة على الوعد المضروب ، وتقدمهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز وعده ، ظنا أن ذلك أقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل . وغاب عنه أن الله جل وعلا ما وقت أفعاله إلا لحكم ومصالح .

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ) وقرأ عيسى ابن عمرو بترك الهمزة وذلك مبتدأ وخبر (عَلَىٰ أَثَرِي) خبر ثان أو حال ، أى ماتقدمتهم إلا بخطا يسيرة لايعتد بها عادة ، يتقدمها بعض الرفقة على بعض ، ويتقدمها على الوفد رئيسهم .

وإن قلت : فكيف قال : هم أولاء بإشارة البعيد ؟

قلت : القرب والبعد نسبيان . يصح أن تقول فى القريب : هو بعيد بالنسبة إلى ما هو أشد قربا ، وفى البعيد : قريب بالنسبة لما هو أشد بعدا .

وعن بعضهم : أنه استعمل أولاء هنا فى القرب

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر همزة أثرى ، وقرأ عيسى بن عمرو بضمها والفتح أصح ، والياء ساكنة فى قراءة الكسر والضم .

ومن قال القوم : جميع بنى إسرائيل ، رد عليه بقوله : « على أثرى » . زعم أن المراد الجميع ، وأنه فارقهم قبل الميعاد .

وقد يجاب بأن معنى قوله : « على أثرى » أنهم ينتظرونى .

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ) إلى طاعتك (رَبِّ) يارب (لِتَرْضَى) عنى رضاً زائداً على رضاك ؛ فإن العجلة إلى امتثال أمرك يزيد رضى ؛ يوجهه بمقتضى الوعد على ذلك بالثواب .

وإطلاق القاضى أن العجلة فى نفسها نقيصة ليس بجيد ؛ لأنها فى الطاعة جيدة . وإنما عوتب عليه لسبقه القوم ، وما تقدم .

وقرئ ببناء ترضى للمفعول .

وسؤال الله موسى أو تعجيبه إنما كان فى العجلة . فمقتضى الجواب الاقتصار على عجلت إليك ربى لترضى ، ولكن زاد بسطا للعذر أولا بأن قال : إن التقدم الذى تقدمته غير معتد به عندنا معشر البشر وكأنى غير متقدمه ، أو لما عاتبه الله انزعج فلم يأت بالجواب المطابق .

(قَالَ) الله عز قائلا : إن ظننت ما ظننت . (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا) ابتلينا (قَوْمَكَ) فى دينهم بعبادة العجل . (مِنْ بَعْدِكَ) من بعد خروجك عنهم ، وتخلف ما ظننت من بقائهم على الخير ، ومن أن العجلة مرضاة . وهؤلاء القوم هم الذين خلفهم مع هارون وهم ستمائة ألف ، نجا منهم من عبادة العجل اثنا عشر ألفا .

(وَأَضَلَّهُمُ) باتخاذهم العجل ، والدعاء لهم إلى عبادته (السَّامِرِيُّ) موسى ابن ظفر منسوب إلى سامرة قبيلة من بنى إسرائيل ، وكان منافقا .

وقيل : كان ابن عم لموسى .

وقيل : كان علجا من كرمان .

وقيل : من أهل جرما : قرية بالموصل وأن اسمه منجا وكان من قوم يعبدون البقر .

وقيل : قبيلة من بنى إسرائيل تسمى سامرة تخالفهم فى بعض دينهم . وكان جارا لموسى ، وكان عظيما فى قومه وصائفا .

وقرئ بضم اللام على الابتداء : أى أشدهم ضلالة السامرى ؛ لأنه ضال مضل .

روى أنهم أقاموا على الدين عشرين ليلة ، وحسبوها بأيامها أربعين وقالوا : كملت العدة ، ثم كان أمر العجل وأن هذا الخطاب كان له عند قدومه .

وليس فى الآية ما يدل على أن الخطاب موجود عند مقدمه . فإن صح ذلك فالتوجيه بين ذلك وقوله : « قد فتنا » أن الله عز وجل أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الماضى لوقوعها لا محالة ، أو المراد بفتنه إياهم ، سبق علمه بأن سيفتنهم . والعلم بالشىء ومشيئته هما أصل وقوعه ، أو افترض السامرى غيبته ، فعزم على إضلالهم عند انطلاقه ، وأخذ فى تدبير ذلك ، فكان بدء الفتنة موجودا . وقال الله لنبيه : استخلف هارون على قومه . ولما انتهى إلى الجبل مناجيا ربه . زاده فى الأجل عشرا .

(فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ) عليهم جميعا ؛ لأن منهم من عبد العجل ، ومنهم من لم يقاتلهم على ذلك ، ولم يغضظ عليهم إلا الذين ساروا معه .

وإنما رجع بعد استيفاء الأربعين ذى القعدة وعشر من ذى الحجة ونزول التوراة .

وقيل : قبل ذلك ثم رجع (أَسِفًا) شديد حزن بما فعلوا .

وقيل : شديد غضب ؛ لقوله ﷺ : موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر . وعليه الحسن .

(قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) وعدهم أن يعطيهم التوراة وهى صلاح لهم ولأعقابهم دنيا وأخرى ، ولا وعد أحسن من ذلك .

وقيل : حسنا معناه : صادق . وهذه نعمة يجب أن تشكروه عليها ، فكيف عبدتم غيره ؟!

وقيل : المراد الوعد بالثواب فى الآخرة على التمسك بدينه . كانت التوراة ألف سورة ، كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملا .

(أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) الزمان ، وهو زمان مفارقته عليه السلام لهم . وقال مجاهد : الموعد (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ) يجب .

وقال الشيخ هود : إن بعضا قرأه بضم الحاء أى ينزل ، وقال أبو عمرو الدانى : الكسر فى هذا مجمع عليه .

ووجه الجمع بينهما أن المجمعين على الكسر القراء السبعة أو العشرة ؛ لأن كلامهم فى قراءتهم والقارئ بضمها غيرهم .

(عَلَيْكُمْ غَضَبٌ) هو ضد الرضى أو المراد به العذاب . وذلك لأن الغضب سبب العذاب ، وهو أولى بقراءة الضم من ضد الرضى والكسر جائز (مِنْ رَبِّكُمْ) لعبادة ما هو فى غاية الغباوة حتى يضرب به المثل فى الغباوة ، وعدم قتال العابدين والتغليظ عليهم ، أى أم أردتم فعلا يوجب الغضب . والمراد التوبيخ ، فإن الإنسان لا يريد غضب الله .

ويحتمل أن يكون الخطاب في ذلك كله لعابدي العجل فقط، وهو أنسب بما بعد، فهو أولى، لئلا يحمل الخطاب فيما ذكر عاما، وفيما بعد خاصا بعابديه ولو كانت القرينة موجودة.

(فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) مصدر ميمي مضاف للمفعول، أي وعدي، أي وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله سبحانه، والقيام بما أمرتكم به، أو وعدكم إياي بالمجيء بعدي.

ويصح أن يكون اسم زمان أو مكان أي تركتم الزمان الذي تواعدنا أن نحضر فيه أو المكان الذي تواعدنا الاجتماع به. وذلك زمان أخذ التوراة والمناجاة ومكانهما.

وقيل: المعنى فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود، بعد الأربعين، من أخلفت وعده: وجدت الخلف فيه، وهو مضاف للفاعل، ولكن التفسير لا يناسب ترتيب قوله: « فأخلفتم موعدي » على ما قبله، ولا على الشق الذي يليه وهو « أم أردتم » إلخ..، ولا يناسب الجواب بقوله: (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) أي ما أخلفناه بأن ملكنا أمرنا؛ إذ لو خلينا وأمرنا، ولم يسول لنا السامري لما أخلفناه.

وقرأ حمزة والكسائي بضم الميم، وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسرها والكل مصادر ملكت الشيء.

ويستعمل المضموم والمكسور بمعنى الشيء المملوك، بل قيل: هذا هو الأصل في المضموم والمصدري الكل مضاف للفاعل.

وفسره بعض بالقدرة، وبعض بالأمر من الأمور، وبعض بالاختيار.

(وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا) جعلنا حاملين (أَوْزَارًا) أحمالا أو أثقالا، أو آثاما. والثاني قول مجاهد.

(مِنْ زِينَةِ) حلي (الْقَوْمِ) القبط ، استعاروها منهم حين هموا بالخروج من مصر باسم العرس ، ولا عرس حقيقة .

وقيل : كان أباحها الله لهم .

وقيل : لا بل يردونها .

وقيل : استعاروها لعيد ولم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا بخروجهم .

وقيل : هي ما قذفه البحر من زينتهم بعد إغراقهم ولم تحل لهم الغنائم ولأنهم كانوا مستأمنين تحت القبط وليس للمستأمن أخذ مال الحربي .

والحاصل أنها سميت أوزاراً ، إما من الوزر بمعنى الثقل ، وهي حمول كثيرة ، أو من الوزر بمعنى الذنب ؛ لأنهم أخذوها على جهة العارية فتملكوها ، أو لما ألقاها البحر أخذوها ملكاً ولم تحل لهم ، أو لأنهم ألقوها في النار فصيغت عجلا عُبِدَ من دون الله ، ولكن هذا الإلقاء يكون ذنباً إن علموا أن السامري يريد ذلك .

نعم هو ذنب مطلقاً من حيث إنه تصرف في مال الغير بلا إذنه ، أو سموها وزراً لأنها سبب الإثم ، من أن العجل بني بها .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وروح قيل وأبو بكر بفتح الحاء والميم والتخفيف .

(فَقَذَفْنَاهَا) طرحناها في النار بأمر السامري (فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) ما معه منها والفاء للاستئناف . وكذلك مفعول مطلق لألقى .

وروى أنه قال لهم : إن موسى أخلف ميعادكم لما معكم من حلي القوم ، وهو حرام عليكم . فالرأى أن نحفر حفرة ونقذفه فيها ، ففعلوا وقال لهم : يجيء موسى فيأمر ما بما نفعل به بأمر ربه وبعد ذلك أوقد ناراً وصاغه ، لعنه الله .

وقيل : قال لهم : نحفر حفرة ونوقد فيها ناراً ونلقيه فيها .

وقيل : إن هارون عليه السلام أمرهم بإلقائه فى حفرة ودفنه فيها حتى يجيء موسى .

وروى أنه مر على السامرى يصوغ فقال له : ما هذا ؟ فقال : أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى . فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه فألقى تراب حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام . واسم فرسه حيزوم فى فم ما صاغ على هيئة العجل ، فكان عجلا يخور بدعوته . والصحيح أنه خار بسبب التراب ، ولكن لا منافاة ؛ فإنه تعالى لو شاء لما أثر التراب فأثره بدعاء هارون .

وقيل : إن هارون لم يدع له أصلا ، ولم يعلم بذلك إلا بعد صوغه وخواره .

وقيل : إن السامرى لما قال لهم : ألقوا ما معكم فيها ألقوا ، وحمل كأنه يلقى ما معه . ولم يلق ولكنه ألقى التراب فأوحى إليه وليه الشيطان : أنه إذا خالط مواتا كان حيوانا .

وقد مر أن السامرى اسمه موسى ، وولد فى وقت الذبح ، فألقته أمه فى جبل بعد ما لفته ، ورباه جبريل وغذاه لما أزيل به من الخزى .

وذلك أن فرعون لما أمر بذبح الأولاد جعلت المرأة إذا ولدت غلاماً ، انطلقت به سراً فى جوف الليل ، إلى صحراء أو واد أو غار فى جبل ، فتخفيه ، فيقيض له ملكا يربيه ويطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس . وكذلك من ولد فى عام الذبح ، بعد أن كان يذبح عاما ويترك آخر . وكان السامرى ولى أمره جبريل .

وروى أن الله سبحانه خلق فى إحدى إبهاميه سمنا وفى الأخرى عسلا ومن ثم كان الصبى إذا جاع مص إبهامه فيروى وجعل الله له فيه رزقا .

وروى أن الله وكل به وَعْلًا لبونا تسقيه اللبن بالغداة والعشي حتى كبر وخلط بالناس .

وقيل : وكلها به جبريل ، وفيه — لعنه الله — وفى موسى النبي — عليه السلام — قال بعضهم :

إذا المرء لم يخلق سعيدا تخلفت ظنون مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا) من ذلك الحلىّ المذاب . وليس ذلك من كلامهم فضلا عن كونه التفاتا ، وكون الأصل فأخرج لنا (جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ) صوت كصوت البقرة ، عند ابن عباس والحسن وقتادة والجمهور وهو الصحيح .

وقيل : كصوت الريح ، وهو قول مجاهد .

والمراد أنه على صورة عجل جسد بلا روح ، ولكن له خوار . وهذا الخوار إما لروح كانت فى بعضه ، وإما لحمله له مخارق ومنافذ وأنابيب إذا دخلها الريح صاتت كالعجل ، كما قال بعضهم بذلك ، وأنه لا تظهر هذه الخارقة على يد ضال .

فمعنى قوله « عجلا » على تقدير مضاف ومجاز صورى

ومعنى قوله « جسدا » أنه لا روح فيه ؛ فإن الأصل فى الجسد أن يكون بلا روح .

ومثله ما قيل : إن معناه جسد لا يتغذى

وقال ابن عباس والسدى : بل انقلب الحلىّ بعد صوغه عجلا جسدا لحما ودما يمشى ويخور كالعجل . وكانوا يسجدون له ما دام يخور ، فإذا ترك الخوار رفعوا رؤوسهم .

ولا يعترض هذا بأنه ملبس ، فكيف يكون لأنه قد أعد الله من يمحقه ، ويزيل أثره ، وهو موسى

وبعد . فأقبح بإله حظه من الكلام الخوار . ومثله كمثل سائر الثيران التي خلقها الله ومن يعبد هذا فلم لا يعبد سواه . وأيضا فإنه لم يدّع الربوبية بذلك ، قوله : تأثير التربة في إحياء الموات كرامة لروح القدس ، إذا باشر حافر فرسه تربة ولاقت تلك التربة جمادا كان إن شاء الله حيوانا كما أنشأ عيسى عليه السلام من غير أب بالنفخ في الدرع ، وخلق هذا العجل فتنة يضل بها الكافر ، ويثبت معها المؤمن بالقول الثابت . ومن عجب من خلقه فليعجب من خلق إبليس .

وقيل : خار مرة واحدة .

وقال وهب : كان يخور ولا يتحرك . والصحيح أنه كان لحما ودما وروحا يخور ويمشي وفيه الشعر بقدرة الله . وبه قال السدي وعليه فقد استعار لفظ العجل الحيوان الذي خلقه الله من حلي القبط ، والجامع الشكل .

وروى أنه لما مضت ثلاثون ليلة قال السامري : أبطأتم بالأجل وما أنتم فيه من أجل الحلي الحرام فهاتوه ، فأعطوه فصاغه .

وقيل : وقت الله لموسى ثلاثين ، فلما أتمها بعشر قال السامري : بليتم بالزيادة لهذا الحلي فهاتوه فصاغه .

وروى أنه فتق بعد الخروج من البحر .

(فَقَالُوا) السامري ومن افتتن به أول ما رآه : (هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ) وكانوا أحبوه حبا لم يحبوا شيئا مثله .

وقيل : القائل : من افتتن به أول ما رآه لمن لم يره ثم من رآه بعد لغيره . (فَنَسِيَ) أي نسيه موسى ، أي هو موسى لكنه نسيه ، وذهب يطلبه عند الطور .

وقيل : النسيان هنا بمعنى الضلال من الطريق ، أى هذا الذى فى طلبه لكن ضل الطريق .

وقيل : قوله : فنسى من كلام الله ، أى ترك السامرى ما كان عليه من التوحيد ، أو ما رأى من الآيات الدالة على الله كشق البحر .

وقيل : ترك ما كان عليه من إظهار التوحيد ، وهو المناسب لكونه منافقاً . وعليه فيحتمل أن يكون النسيان مقابل التذكر ، أى زال من حافظته ما كان عليه . من إظهار التوحيد ، فصرح بالشرك

(أَفَلَا يَرَوْنَ) أفلا يعلمون (أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا) أن مخففة لوقوعها بعد يقين واسمها ضمير الشأن ، أو ضمير العجل محذوفاً ، أى أفلا يعلمون أنه لا يرد هو جوابا ولا يكلمهم . وقرئ بنصب يرجع على أنَّ أنْ ناصبة للفعل وهو ضعيف ، لسبق اليقين .

قال الشيخ خالد : النصب إجراء له مجرى الظن .

وأجاز الفراء وابن الأنبارى النصب بعد اليقين الصريح ، ومنعه المبرد مطلقاً .

(وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) توبيخ بعبادة من لا يقدر أن يضرهم أو ينفعهم ، أو المراد لا يملك لهم دفع ضر ولا جلب نفع .

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) قبل رجوع موسى ، كما يناسبه حتى يرجع إلينا موسى ، أو قبل قول السامرى ، كأنه أول ما وقع عليه بصره ، حين طلع من الحفرة ، توهم أنهم يفتتنون به ويعبدونه ، فبادر يحذرهم :

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) بالعجل . الحصر واقع على الفتن ، أى ما أمر العجل إلا فتنة ، أو على « به » أى ما فتنتم عن التوحيد إلى الشرك إلا به ؛ لأنهم ولو صدر منهم شيء قبله لم يقع موقع العجل فى التعظيم وكثرة الأتباع ، وهو أولى لأن الغالب كون المقصور عليه بعد إنما هو المتأخر .

(وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ) لا غيره ، كما فيه تعريف نحط فين .

(فَاتَّبِعُونِي) في عبادة الله .

وقيل : إلى الطور الذى وعدكم الله إليه (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) في عبادة الله عز وجل ، أو في الذهاب إلى الطور ، أو في الثبات على الدين وهو قريب من الأول

ولله دره ما أحسن كلامه ! أظهر لهم أولا أنهم قد أخطأوا الطريق وفتنوا عنه ، ودلهم عليه ثانيا .

وعبر بالرحمن فى دلالته إشعارا بأنه جل وعلا كثير الرحمة فهو يقبل توبة من تاب ويثيبه ، وأخبرهم ثالثا بأنه عارف بالدلالة على الطريق الموصل للجنة ، من حيث إنه نبى فلا يبقى لهم اتباعه فى الأصل وطاعته فى الفروع . كذا ظهر لى بفضل الله ، وإنى لعاجز .

(قَالُوا لَن نَّبْرَحَ) لن نزال . (عَلَيْهِ) على عبادة العجل وتقريب أجسامنا إليه ، متعلق بقوله : (عَاكِفِينَ) مقيمين (حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) أى نسمع قول موسى ، فاعتزلهم هارون فى الاثنى عشر الذين لم يعبدوه . ولما رجع موسى فى الصباح ، وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه : هذا صوت الفتنة ؛ لأنه سبحانه أخبره أن قومه مفتونون ، فألهم أنه صوت الفتنة ، وظن أو أخبره الله بتفصيل الفتنة ، أو أخبره بعد رجوعه .

ولما رأى هارونَ أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وجره إليه غضباً لله وكان حديدا ، مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب . فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة ، وعنف برجل أخ له كبير السن ، نبى مرسل ، من رأسه ووجهه .

(قَالَ) موسى بعد رجوعه : (يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ) هو مفعول ثان لمنع ، أو بتقدير جار ، أى ما منعك عن الاتباع لى فى الغضب لله ؛ أو فى المقاتلة ، بأن تقاتلهم أنت ومن معك ، كما أقاتل من كفر ، أو عن الاتباع لى إلى الطور ، فيكون زجراً، إذ رأيتهم ضلوا بعبادة العجل .

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه .

(قَالَ) هرون : (يَا ابْنَ أُمَّ) قياس الخط يابن أم ، أضافه للأم للاستعطاف ؛ فإن الأم أشد شفقة على الولد من الأب ؛ لأن ماءها من صدرها وما بين ثدييها وماءه من وراء ظهره ، وهو أخوه لأب وأم على الصحيح .

وقيل : هو أخوه لأمه ، ولذا أضافه للأم . والتحقيق أنه ولو كان أخاه لأمه ، فالتعبير بالأم استعطاف ؛ إذ يمكنه أن يقول : يا أخى .

وقيل : هو أخوه من الأب ، واعترض بالإضافة للأم .

والأصل أمى قلبت الكسرة فتحة والياء ألفا فحذفت الألف .

وقرئ بكسر الميم وحذف الياء ، وهى قراءة ابن عامر وأبى بكر وحمزة والكسائى .

(لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي) وقرئ بفتح اللام وهو لغة الحجاز .

(وَلَا بِرَأْسِي) بشعر رأسى ؛ فإنى لم أهمل موجب ذلك وإنما فعلت ما ظهر لى أنه صواب .

(إِنِّي خَشِيتُ) لو قاتلتهم بمن معى أو فارقت بعضهم ببعض (أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ) تحفظ وتراع (قَوْلِي) أى قولى لك : اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، وحفظ الجماعة عن التفرق حتى أرجع .

وقال بعضهم : إنى خشيت لو أنكرت عليهم . ورده بأنه قد أنكر عليهم ، وما يحل له أن لا ينكر وهو قادر على الإنكار .

(قَالَ) موسى (فَمَا خَطْبُكَ) ما شأنك الحامل لك على ما صنعت (يَا سَامِرِيُّ) ؟

والخطب : الأمر العظيم ، ويطلق على غيره . وذلك إنكار ، وهو مصدر خطبت الشيء : طلبته . والشأن والأمر العظيم مطلوبان .

وعن بعض : معناه : ما طلبك ؟

قيل : الخطب : الأمر والشأن . ولغة الخطب تقتضي انتهاء ؛ لأن الخطاب يستعمل في المكان ، كذلك يقال .

والظاهر أن المراد ما توصلت به إلى خوار جسد ذهب ، أو إليه وإلى كونه لحما ودما ليناسب الجواب .

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) يعني القبط وبني إسرائيل ، أي علمت ما لم يعلموه ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ونظرت ما لم ينظروا ، فهو من البصيرة أو من البصر .

وقرئ بصرت بفتح الصاد بما لم يبصروا به بكسرها وهو بأحد المعنيين .

وقرئ بكسر صاد بصرت وفتح صاد يبصر . وإن ضم هذا القارئ صاد يبصروا فعدول إلى مضارع بصر بالضم أو بالفتح ، وإن كسره فإلى مضارع بصر بالفتح .

وقرأ حمزة والكسائي تبصروا بالفوقية وضم الصاد على الخطاب لموسى وغيره وذلك أنه رأى حافر حيزوم وهو فرس جبريل كما وقع على موضع نبت النبات في الموضع فعلم أنه فرس الحياة لا يخالط أثره مواتا إلا حيي

وقيل : أنه رأى جبريل يمشي في الأرض ، وعلم أنه روحاني لا يمس أثره شيئا إلا حيي . وذلك كله حين جاء في أمر البحر . وإنما عرفه لما مر أنه رباه .

وروى أنه كان يجعل كف نفسه فى فيه ، فيرتضع منه اللبن والعسل ، أو لما رأى ذلك ظنه جبريل ، ولما أثرت الحياة أثر قدمه أو حافر فرسه تيقن .

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً) فعلة للمرة بمعنى اسم مفعول بدليل فنبذتها ، فإن القبض لا ينبذ ، وإنما ينبذ المقبوض .

وقرئ قبصة بالصاد ، والأول للأخذ بجميع الكف ، والثانى للأخذ بأطراف الأصابع ، كالخضم : بجميع الفم ، والقضم : بمقدمه

(مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أى من أثر حافر فرس الرسول ، بتقدير مضافين ، قاله ابن هشام .

وقرأ ابن مسعود : من أثر فرس الرسول . والظاهر أن لا يقدر الحافر كما تقول: ضربت زيداً ، ولا يعنى تقدير اليد ، ولا تجعله بدلا ، ولم يقدر مضموشيئاً .

وقال : إنه قبض من أثر الرسول نفسه ، وقراءة ابن مسعود ترده

والرسول : جبريل .

وعبّر بالرسول إعلاماً بأنه قبض من أثره حين أرسل إلى موسى ليمشى قدام قوم فرعون يقبطهم ، وخلف قوم موسى يحرضهم على المشى ، أو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور ، وعرفه لأنه رباه .

وقيل : لأنه لم يعرف أنه جبريل ، ولكن أعلم أنه رسول من الله .

(فَنَبَذْتُهَا) مع الحلى وأذبته ، أو نبذتها فى فم العجل المصوغ منه ، أو فى الحلى المذاب ، فكان العجل يخور ، وكان لما قبضها جعلها فى عمامته .

(وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ) زينت وفعل من السؤال (لِي نَفْسِي) مع أن قومك قد طلبوا منك إلهاً .

(قَالَ) موسى : (فَاذْهَبْ) يا سامرى من بيننا (فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ) فى مدة حياتك عقوبة على ما فعلت (أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ) مصدر ماس أى

لا يمس أحد ولا أسه لئلا تصيبني الحمى . وكان إذا مسه أحد أو مس أحداً ولو بلا عمد أصابتهما الحمى معاً

وروى أنه كان يقرض بدنه بالمقراض إذا مسه أحد أو مس أحداً . وكان لذلك طريداً وحيداً ، وحرّم على الناس أن يكلموه أو يبايعوه أو يلاقوه ملاقاة مّا . ولا عقوبة أعظم من ذلك . وكذلك عشيرته سامرة ، وذلك باق فيهم إلى اليوم .

قال الشيخ هود : يقولون إلى الآن بأرض الشام : لا مساس .

وقرئ لا مساسِ بكسر السين غير منون مبنيًّا علماً لجنس المس كفجَارِ .

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا) في الآخرة زيادة على عقوبة الدنيا . والموعد : مصدر أي وعداً ، أو اسم زمان ، وهو يوم القيامة ، أو اسم مكان وهو جهنم .

(لَنْ تُخْلَفَهُ) لن يمنعك الله عنه ، بل لا بد أن يحضره إليك ، والنائب مستتر ، والهاء مفعول آخر . وقراءة ابن كثير وأبي عمرو بكسر اللام . قاله أبو عمرو الداني

وقال القاضي : هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وبصري آخر ، أي لن تغيب عنه ، ولا بد أن تلقاه ، من أخلف بمعنى خلف ، أو من أخاف المتعدى لاثنين ، والأول محذوف ، أي لن تخلف الواعد إياه ، واختصر على الثاني لأنه الغرض ، أو من أخلف الوعد ، إذا وجد فيه خلفا .

وقرأ ابن مسعود بالنون وكسر اللام ، حكاية لقول الله جل ثناؤه على حد « لأهب لك غلاماً زكيًّا » أو النون لموسى ؛ لأن الوعد ولو كان بيد الله لكن موسى عليه السلام قد لا يسمه ؛ وكان بلسانه ، ولا بد من حضوره مع السامري فيه .

(وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ) نظر تثبت وتيقن ؛ فإنك تراه بعد الساعة فانياً لا أثر له كأن لم يكن ، أو نظر وداع . ولا ضير بذلك الأمر ؛ لأن المراد إعلامه باضمحلاله .

(الَّذِي ظَلْتَ) دمت أو صرت، وأصله فعل الشيء نهاراً فقط . وأصله ظللت بكسر اللام الأولى ، حذفت تخفيفاً ، وخصت بالحذف لأنها تدغم .

وقيل : حذفت الثانية لحصول التكرار بها

وقرئ بكسر الظاء نقلا من اللام المحذوفة ، وهو لغة تميم ، و الأول لغة الحجاز .

وزعم ابن جنى أن الفتح لغة الحجاز وتركه لغة تميم . قاله الشيخ خالد .

(عَلَيْهِ عَاكِفًا) مقيما على عبادته (لَنُحَرِّقَنَّهُ) بالنار كما يدل عليه قراءة لنحرقنه ، بضم النون وإسكان الحاء وكسر الراء .

وقرأ ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه ، بالضم فالإسكان فالكسر .

وأجاز الفارسى فى قراءة التشديد أن تكون من حرقه بفتح الراء بمعنى بَرَدَه بالمبرد ، وشدد للمبالغة ويدل له قراءة ابن عباس رضى الله عنهما وعلى لنحرقنه بضم الراء ، أى لنبردنه بالمبرد .

(ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ) لنذرينه (فِي الْيَمِّ) البحر ، أو الماء النهر . (نَسْفًا) أو لنذرينه فى هواء اليم

وقرئ بضم السين . والظاهر أنه إن لم ينقلب لحما ودما لا يؤثر فيه الإحراق فيصير رماداً ينسف .

فالتحقيق إنما هو التبريد بالمبرد ، اللهم إلا أن يكون الإحراق بالنار لمجرد الإهانة والإذابة . والنسف مستعار لإلقائه فى اليم مذابا ، أو يفعل به ما يكون

به رمادا ، مع أنه غير دم ولحم ، أو هو دم ولحم كما هو نص قراءة ابن مسعود ، وصرح به الكلبي ، فذبحه وأحرقه ، وبرد عظامه كذا قيل . وفيه أن العظام تقبل الإحراق حتى تصير رمادا ، فلا يصح توجيهها . وإنما هو تقسيم من تفاسير مقبول مبني على القراءة التي بمعنى البرد بالبرد . قيل : ذبحه موسى فسال منه دم .

قال مكي : إن موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة ، وحينئذ وقع أمر العجل ، وإن الله أعلم موسى بذلك ، فكتمه موسى عنهم ، وجاءهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل ، فحينئذ أعلم اهـ

وقيل : هذا ضعيف . والجمهور على خلافه . وإنما تعجل موسى وحده ، فوقع أمر العجل ، ثم جاء موسى ، وصنع ما صنع بالعجل ، ثم خرج بالسبعين على معنى الشفاعة في بني إسرائيل ، وأن يطلعهم على المناجاة ، فكان لموسى نهضتان

(إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) تمييز محول عن الفاعل

وقرأ طلحة : الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش .

وقرأ مجاهد وقتادة بتشديد السين مفتوحة ، فيكون كل مفعولا ثانيا ، وعلما مفعولا أول .

وذلك أن علما ولو كان تمييزا لكنه فاعل في المعنى ، فلما شدد الفعل صير مفعولا كما يصير الفاعل ، بإدخال همزة التعدية مفعولا ، لما أزال موسى سبب الفتنة ، وأبطل مكرهم ، إلى بيان الدين الحق ، وخاطب بني إسرائيل أو الكل ؛ فإن مستحق العبادة من لا يماثله أحد ، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة .

ومن أحاط علما بكل ما يمكن علمه ، من كل ما وقع ، أو يقع ، فهو عالم بالمطيع والعاصي فيجازيهما ، لا عجل يصاغ ويحرق ، ويصح ضرب المثل به في الغباوة .

(كَذَٰلِكَ) كما قصصنا عليك يا محمد هذه القصة. (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ) أخبار.

(مَا قَدْ سَبَقَ) من الأمم ، تكثيراً لبيناتك ، وزيادة فى معجزاتك ، وتبصيراً للمستبصرين من أمتك رقد علمت أن الإشارة إلى ذكر قصة موسى مع السامرى إنما واقعة على أنواع من يعقل .

ويصح أن تكون الإشارة إلى ذكر تلك القصة وقصته مع فرعون . وما : واقعة على جميع ما وقع فى الأمم ، يقص عليه ما يكون عبرة من جملة الأخبار التى هى من جملة ما وقع فيهم ومنهم . ومفعول نقص محذوف منعوت بالجار والمجرور ، أى شيئا من أنباء ، أو أغنى الجار والمجرور عن المفعول ، حتى إنه لا يقدّر .

وقيل : من التبعيضية اسم ، وهى مفعول مضاف ، وهكذا فى مثل ذلك .

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ) أوصلنا إليك . (مِنْ لَدُنَّا) من عندنا . (ذِكْرًا) وهو القرآن ، ونكره للتعظيم ، وعبّر عنه بالذكر تنبيها على أنه مشتمل على ما يوجب التذكر والاعتبار ، من قصة وغيرها ، لمن لم يعرض عنه .

وقيل : الذكر : الثناء الجميل .

دخل الحسن يوما على يزيد بن معاوية ، وجعل يزيد يفتخر والحسن ساكت ، فابتدأ المؤذن الأذان . ولما قال : أشهد أن محمداً رسول الله . قال الحسن : يا يزيد ألك جد مثل هذا ؟ فخجل يزيد ولم يرد جوابا .

وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة	بمد جدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا	عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهود بفضلنا	عليهم جهير الصوت من كل جامع

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا) حملا ثقيلا من الذنوب .

وقيل : عقوبة كالحمل الثقيل .

وقيل : ذنباً عظيما ، أو الوزر : الذنب أى عقوبة الذنب ، أو حمل الوزر : الإتيان به ، وجملة الشرط والجواب نعت لذكر ، والرابط هاء عنه ؛ فإنها عائدة للذكر بمعنى القرآن أو النبأ .

وقيل : عائدة لله فليست الجملة نعتا .

وقرئ بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الميم مبالغة .

(خَالِدِينَ) الجملة نظراً للمعنى ، والإفراد فى أعرض نظراً للفظ ، وهو حال مقدرة إن لوحظ معنى الدوام ، وإن لوحظ معنى الوصول فليست بمقدرة . (فِيهِ) فى الوزر بالوجوه المذكورة ، أو فى حمله .

(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) فاعل ساء ضمير مفسر بالتمييز الذى هو قوله حملا . والمخصوص بالذم محذوف ، أى وزرهم ، أو فاعل ساء ضمير وزرا . كقولك : زيد بئس رجلا ؛ فإن فى بئس ضمير زيد .

وقيل : لا يجوز هذا ، وإن ساء وبئس ونعم ونحوهن لا يرفعن ضميرا معينا . ولا يصح أن يكون بمعنى أحزن لفساد المعنى ؛ لأن المعنى حينئذ أحزن لهم الوزر حملا . ولو صح هذا لكانت اللام متعلقة بساء ، ولا يشكل أمرها كما قال القاضى ولكن كيف يصح جعل الحمل مفعولا لساء بمعنى أحزن ، من حيث المعنى ، فإن الحمل لا يحزن . نعم يصح كون الوزر بمعنى الذنب ، والحمل بمعنى الجزاء ، وساء بمعنى جعل سيئا ، أى جعل ذنبهم حملهم سيئا .

والحق المنفى الأول ، واللام فيه للبيان ، متعلقة بساء ، أو بمحذوف حال من حملا، ويوم متعلق بساء . ولا ضير بالتعلق بفعل الإنشاء ؛ لأن غاية المنفى عظم لهم يوم القيامة حمل .

(يَوْمَ) بدل من يوم (يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) القرن ، وفى الصور نائب الفاعل الذى هو إسرافيل . والمراد النفخة الثانية ، بناء على أن النفخات ثنتان ، والثالثة إن قلنا : ثلاث ، ينفخ فيه فيرجع كل روح إلى جسده .

وقيل : الصور جمع صورة كـكلمة وكلم ، ويناسبه قراءة بعضهم فى الصور ، بضم الصاد وفتح الواو ، جمع صورة .

وقرئ ينفخ بفتح الياء ، ففاعله ضمير الله ، أو ضمير إسرافيل ، وإن لم يتقدم ذكره ؛ لاشتهار أنه النافخ .

وإن قلت : كيف يصح إسناد النفخ إلى الله تعالى ؟

قلت : على التجوز ؛ لأنه الآمر به ، الجارى هو على توقيته ، وقراءة أبى عمرو ننفُخ ، بالنون وضم الفاء تدل له ، وفيها تعظيم الله ، وتعظيم النفخ . وأيضا لكرامة إسرافيل على الله ، وقرب المنزلة ، صح إسناد ما يتولاه إلى الله سبحانه .

(وَنَحْشُرُ) أى نجمع . وقرئ بالياء ، فالضمير لله جل وعلا أو لإسرافيل ، عليه السلام .

وقرأ الحسن بالياء والبناء للمفعول ، ورفع ما بعده (الْمُجْرِمِينَ) المشركين (يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) زرق العيون ، جمع أزرق ، وصفوا بذلك ؛ لأن الزرقة أقبح ألوان العيون ، وأبغضها إلى العرب ؛ لأن الروم ـ أهانهم الله ـ كانوا أعدى أعدائهم ، وهم زُرق ولذلك قالوا فى صفة العدو : أسود الكبد، أصهب السبال ، أزرق العين .

وقيل : تزرق أبدانهم كلها كلون الرماد .

وقيل : المراد بالزرق العمى ، لأن الأعمى تزرق عيناه . وقيل : العطاش .

وعن بعض : يحشرون سود الأبدان ، زرق العيون ، ثم يعمون بعد ذلك .

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ) يقول بعض لبعض بإسرار ؛ لما ملأ صدورهم من الرعب . والخفت ، وهو إخفاء الصوت بينهم : (إنْ) أى ما (لَبِثْتُمْ) أقمتم فى الدنيا أو فى القبر (إلّا عَشْرًا) أى ليالى عشرا بأيامها ، أو أنها فى مقدار عشر ليال بدون أيام .

وقيل : المراد عشر ساعات .

ويجوز أن يراد بالعشر الأيام ، وحذف التاء على هذا لحذف المعدود . ويناسب هذا كل المناسبة ذكر اليوم بعد .

وإنما استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا لأن الزائل وإن طال قصير بالانتهاء .

قال عبد الله بن المعتز : تحت قولهم : أطال الله بقاءك ـ : كفى بالانتهاء قصرا . ولاستقصارهم الآخرة ، فإنها أبد سرمد ، يستقصر إليها عمر الدنيا بأجمعه ! فكيف بأيام إنسان ! أو لما يعانون من الشدائد ، على انتفاع قايل فيها التى تذكرهم أيام النعمة ، فيتأسفون عليها ، ويصفونها بالقصر ؛ لأن أيام السرور قصار ، وتذكرهم للغبن الواقع ببيع دائم بقايل .

وقيل : المراد اللبث فيما بين النفختين . نفخة الموت ، ونفخة البعث ، فإنهم لا يعذبون فى ذلك الوقت بعد ما كانوا يعذبون فى قبورهم ، على قول صحيح . وذلك مقدار أربعين سنة .

واستدل بعضهم على أن المراد اللبث فى القبر ، من حين الموت إلى البعث بقوله تعالى : « يوم تقوم الساعة » الآيات .

وأشار الله جل وعلا إلى أن قائلى ذلك لم يبالغوا حد التقليل ، وأنها أقل مما قالوا بقوله : (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) فى مدة اللبث .

(إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ) أعدلهم وأفضلهم (طَرِيقَةً) أى رأيا ، أو عملا : (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) بإهلته أو دونها .

وقيل : لم يقولوا ذلك استقصارا ، بل نسوا مقدار لبثهم ، لشدة ما دهمهم .

ويجوز كون واو يقولون لجملة المجرمين ، أى نحن أعلم بما يقولونه سرا . فبعض قال : لبثنا عشرا ، وبعض قال : يوما .

وسأل جماعة من المسلمين النبى ﷺ عن مآل الجبال يوم القيامة ، فأنزل الله عز وجل : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) أى عن مآلها . والمضارع بمعنى الماضى ، أو مستقبل ؛ فإن القرآن مخلوق قبل ذلك السؤال .

(فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) أى يفرقها بالريح . استعمل الخاص فى العام ؛ فإن النسف : النفخ على الشىء ، أو هبوب الريح قبله فيطير ، فاستعمله فى مجرد التفريق حتى يحتاج بعد ذلك إلى البيان بقولك بالريح ، أو أسند النسف إليه مع أنه للريح ؛ لأنه أمرها لوزنت مخصوص ومالك أمرها ، أو يقدر مضاف ، أى ينسفها أو تنسفها ريح ربى .

والريح يذكر ويؤنث ، وإن أنث بالتاء فى أول المضارع مثلا أبدلت بالهاء إذا حذف وناب عنه غير المؤنث .

وعن ابن عباس : سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فأنزل الله سبحانه الآية . وعليه فإنما عبر بالجماعة لأن السائل من جماعة فكأنما سألوه ، والواو للجماعة معتبر فيها الحقيقة لا الأفراد .

وعن بعضهم : النسف القلع من الأصل .

وعن بعضهم : يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ، فيصح أن يقول : أسند النسف إلى نفسه ، لأن جعلها كالرمل سبب للنسف .

وقيل : سأله جماعة من المشركين على لسان رجل ، وهم غائبون وحضور . فأمر الواو واضح ، ولا سيما إن سأل كل على حدة .

(فَيَذَرُهَا) يترك ديارها حتى المواضع التي كانت فيها ، فحذف المضاف والضمير للأرض وإن لم يتقدم ذكرها لدلالة الجبال عليها من حيث إنها على الأرض كقوله عز وعلا : « ما ترك على ظهرها من دابة » .

(قَاعًا) مكانا منبسطا خاليا وهو حال ، أو مفعولا ثانيا بمعنى يصيرها قاعا .

(صَفْصَفًا) مستويا أملس لا نبات فيه كأن أجزاءها على صف واحد فالزائد الصاد الثانية فوزنه فعفل ، وهو نعت لقاع ، أو حال ثان ، أو حال من ضمير قاع؛ لأنه منبسط وخال . أو مفعول ثان متعدد .

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) الجملة حال ثالث ، وحال من ضمير قاع أو صفصفا ، أو نعت ثان لقاعا ، أو مفعول ثان متعدد .

وإنما صح ذلك لأن المراد بالقاع والصفصف ما لا يُرى فيه عوج ولا أمت كله مقار الجبال وهى أرضها ولا مانع من أن يقال : إن قوله قاعا يكفى عما بعده فما بعده تأكيد .

وقيل : الجملة مستأنفة لتبيين ما قبلها .

وقيل : يدخل الله الجبال فى الأرض حتى يستوى أعلاها مع الأرض .

والعوج : الاعوجاج . وفسره بعضهم بالانخفاض . والأمت : الارتفاع .

وعن الحسن : قاع البحر ورأس الجبل سواء كأنه يقول : إن الله يدخل الجبال فى الأرض ، ويخفض من الأرض ما علا ، أو يعلى ما خفض .

وقيل الأمت : القواء يسير .

وعن ابن عباس : العوج : الوادى ، والأمت : ما يرتفع من الأرض . وإنما استعمل العوج بالكسر فيما هو عين وهو الأرض ، وحقه الفتح إشارة إلى نفى الاعوجاج على وجه بليغ .

وذلك أنك لو سويت أنت وحذاق الناس أرضاً بالنظر على قدر طاقتكم ثم عرضتها على مهندس يعتبرها بآلته لأراك فيها عوجاً لا يدرك بحاسة البصر ، فنفى الله هـذا العوج الدقيق ، وذلك العوج لما لم يدرك إلا بقياس الهندسة لحق بالمعانى .

وقيل: استعمل العوج بالكسر فى الأعيان والمعانى فانظره فى سورة الكهف .

وقوله : « ويسألونك ـ إلى ـ أمتا » ينفع للدماميل والجراحات والطحال وكل ما يطلع على الجسم ، يكتب فى إناء نظيف طاهر بمداد فارسى ويمحى بدهن بنفسج ويمسح به على الجسد فإنه يُبْرِئُ بإذن الله تعالى .

(يَوْمَئِذٍ) يوم إذ نسفنا الجبال (يَتَّبِعُونَ) أى الناس بعد قيامهم من قبورهم ومن حيث كانوا .

(الدَّاعِيَ) إسرافيل يقف على صخرة ببيت المقدس أو بين السما والأرض هنالك ويدعو فى الصور : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتفتتة هلموا إلى عرض الرحمٰن فيجيء الناس من كل جهة إلى جهة الصوت فهذا هو اتباع الداعى . ويوم متعلق بيتبعون .

قيل : أو بدل من يوم القيامة بعد بدل وليس بشيء لأنه على الإبدال ينقطع عما بعده فلا تفيد الآية أن الاتباع يكون يومئذ (لَا عِوَجَ لَهُ) أى لا عوج للداعى يأتيه من المدعوين لا يقدر أن يعدل عنه إلى جهة ، ولا يقدر أن يقف فى المكان الذى بعث منه أو غيره .

وقيل : الهاء للاتباع لا يقدرون أن لا يتبعوا .

وقيل : المراد لا شك فى الداعى أو فى الاتباع أخبرنا أنه لا بد واقع .

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ) خضعت لمهابته .

وقيل : خشعت أصحاب الأصوات (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) صوتاً خفيًّا .

وقيل : خشوع الأصوات بسكونها وعدمها . والهمس : حركة أقدامهم فى المشى إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل فى مشيها .

وقال ابن عباس : الهمس : تحريك الشفاه من غير نطق .

وروى عنه أنه وطء الأقدام . وقراءة أبىّ لا ينطقون إلا همسا ظاهرة فى أنهم ينطقون .

(يَوْمَئِذٍ) متعلق بينفع ؛ إذ لا صدر للا النافية على الصحيح إن لم تكن من باب كان أو إن (لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) مَن مفعول لتنفع والمستثنى منه محذوف وهو المفعول فى الأصل وهو عام ، أى لاتنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن فى أن يشفع له . وأما غيره فمن رام الشفاعة فيه لم تقبل منه .

فهذا نبينا ﷺ يشفع فى أناس فيقال له : بدّلوا وغيّروا فلا شفاعة لهم وغيره كثير . واللام للتعدية ومَن واقع على المشفوع له . والإذن بمعنى الأمر .

ويجوز أن يكون من بدلا من الشفاعة أو منصوبا على الاستثناء منها ويقدر مضاف أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، فمَن واقعة على الشافع وأذن بمعنى أمر أو سمع واللام للتعدية أو للتعليل أى إلا شفاعة من أمر الله لعظمته وكرامته عنده بأن يشفع أو مَن سمع الله قوله فى الشفاعة لكرامته عنده ومفعول تنفع محذوف وليس الاستثناء منه أو لا يقدّر له مفعول ومتعلق أذن محذوف كما قررته ولك تقدير مفعول له أى إلا شفاعة من سمع قوله فى الشفاعة .

(وَرَضِيَ لَهُ) أى لذلك الذى نفعته الشفاعة ، فاللام للتعدية أو للتعليل .

وأجيز كون اللامين للتعليل مع إيقاع مَن والهاء بين المشفوع له .

ويجوز كون له حالا من قولا ولو جعلنا القول قول الشافع فى الشفاعة ورجعنا الهاء المشفوع له ؛ لأن قول الشافع منفعة المشفوع له .

(قَوْلًا) فى شأن الشفاعة

وقيل : القول : قول المشفوع له وهو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله وما جاء به حق فمن رضى منه هـذا القول بأن أتبعه بالعمل الصالح قبلت فيه الشفاعة .

ويجوز أن يراد قول الشافع وأنه لا تقبل إلا شفاعة من يقول ذلك قولا مرضياً مقبولا منه .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) ما تقدمهم من الأحوال .

(ومَا خَلْفَهُمْ) ما بعدهم مما هو مستقبل قيل: مابين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا وهو أولى والضمير لمن فى المحشر . وقيل : للشافعين

(وَلَا يُحِيطُونَ) أى لا يحيط علمهم. فعلما بعد هذا تمييز منقول عن الفاعلية .

(بِهِ) أى بالله فإنه لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء فكيف يعلمه أحد أو الضمير له لكن على حذف مضاف أى بمعلوماته .

وقيل : لما الأولى والثانية لتأويلهما بمفرد أى يحيطون بمجموع ذلك أو بما ذكر أو للثانية قيل : أو للأولى وذلك أنهم لم يعلموا ذلك كله بل بعضه وهذا البعض لم يعلموا تفصيله .

(عِلْمًا وَعَنَتِ الْوُجُوهُ) ذلت وخضعت الوجوه وجوه الخلق أجمعين وأل للاستغراق ، أو وجوه المجرمين المذكورين فى قوله : « ونحشر المجرمين » فأل

للعهد ؛ فإن ذكرهم يدل على وجوههم بالتضمن أو لاستغراق خاص أو نائبة عن المضاف إليه أى وجوههم .

ويدل له قوله : « وقد خاب من حمل ظلما » فيكون بيانا لسبب ما ذلت به الوجوه .

واختار لفظة عنت لما تدل له من كونهم عُناة أى أسارى فى يد الملك القهار .

ومنه قوله ﷺ فى أمر النساء : هن عَوانٍ بين أيديكم . بكسر النون جمع عانية كجَوَارٍ أى أسيرات . والعانى: الأسير وأسند الخضوع للوجه والمراد خضوع الذات كلها لظهور أثره فيه .

(لِلْحَىِّ) دائم الحياة سبحانه (الْقَيُّومِ) القائم بأمور الخليقة كلها ، أو المراد القائم على كل نفس بما كسبت فيجازيها وتقدم غير ذلك .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) خصه بالذكر لعظمه

وقيل : المراد بالظلم كبائر الشرك أو النفاق .

وعن ابن عباس : المراد الشرك وسميت الكبيرة مطلقا ظلما لأن عاملها ظلم نفسه أو إطلاقا لاسم الخاص وهو ظلم الناس على العام وهو مطلق الذنب الكبير وحمل الظلم : الموت بلا توبة منه . والجملة مستأنفة أو حال .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) أى بعض الطاعات وهو ما فرض عليه أو مع النفل .

(وَهُوَ مُؤْمِنٌ) مقر تارك للأفعال المحرمة ، والجملة حال من ضمير يعمل مفهمة أن المشرك والمنافق لايقبل عملهما .

(فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) عطف مرادف تأكيدا للنفى . وعن ابن عباس : الظلم الزيادة فى السيئات ، والهضم : النقص من الحسنات .

وقيل : الظلم : منع الثواب ، والهضم : النقص منه . ويصح أن يراد لا يخاف جزاء ظلم ولا جزاء هضم ؛ لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه .

وقرأ ابن كثير فلا يَخَفْ بالجزم ، إما على أن الفاء زائدة ولا ناهية ، وإما على أن الفاء رابطة ولا ناهية ، نهاه عن الخوف فى الآخرة إذا كان فيها ، وهذا على سبيل التأكيد له فى الاطمئنان .

(وَكَذَٰلِكَ) متعلق بأنزلناه أو نعت لمصدر محذوف ، أو الكاف اسم مضاف لذلك نعت لمصدر محذوف ، وكذا فى مثله مما تقدم أو يأتى ، أى إنزالا ثابتا كذلك الإنزال ، أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد ، أو إنزالا مثل ذلك وقد تبين لك أن المعطوف الجملة بعده فقط ، أو مع كذلك ، لا كذلك وحده ، كما يوهمه كلام القاضى والمعطوف عليه جملة يعمل ولكن مراد القاضى ما ذكرت والله أعلم .

(أَنزَلْنَاهُ) أى القرآن ، دل عليه لفظ الإنزال ودل عليه أيضا قوله : (قُرْآنًا عَرَبِيًّا) إذ لو كان الضمير لغير القرآن لم يقل قرآنا عربيا ؛ لأن غير القرآن لا يصح فيه أن يقال : أنزلناه قرآنا .

وإن قلت : إذا كان الضمير للقرآن فما فائدة قوله قرآنا ؟

قلت: الفائدة فى وصفه بعربيا، بوصفه به صح كونه حالا مع أنه جامد ويحتمل التأويل بمقروء .

وإن قلت : فهلا قيل : أنزلناه عربيا ؟

قلت : صرح بقرآن ليدل على مرجع الضمير ، فيكون فيه فائدة الإبهام فالتفسير . وفى التصريح به أيضا بلاغة ليست فى عدم ذكره .

والمراد أنزلناه قرآنا بلسان العرب ليفهموه وجعلناه على طريقة بذكر الوعيد

وتكريره لهم ليرتدع عن المعاصي كما قال : (وَصَرَّفْنَا فِيهِ) كررنا وفصّلنا من أجل كذا فله أو عليه كذا .

(مِنَ الْوَعِيدِ) شيئا منه .

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الشرك وما يوجب سخطنا . والترجّى مصروف إلى سيدنا محمد ﷺ ومَن معه ؛ فإن فى نزول الآيات ما يطمعون به ، فى إيمان المشرك ، وارتداع الفاسق .

(أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) أى يحدث القرآن لهم عظة بمن تقدم يتعظون بها ، أو تذكرا واعتبارا ، فيثبطهم عن الشرك والمعاصى ، فيتدرجون منها إلى الإيمان والتقوى .

وأما لعلهم يتقون فالمراد رسوخ التقوى حتى تكون مَلَكَة ولذلك لم يكتف بأحد الكلامين عن الآخر .

وقالت فرقة : معنى إحداث الذكر إحداث الشرف والثناء عليهم بالإيمان به ، والذكر يمنع عن المعاصى فتكون التقوى مَلَكَة . ولما ذكرت أسند التقوى إليهم والإحداث للقرآن . والذكر يطلق أيضا على الطاعة والعبادة .

وقرئ تحدث بالتاء خطابا لسيدنا محمد ﷺ .

وقرئ بالنون . وقرئ بالياء وإسكان الثاء تخفيفا كما قرئ وما يشعركم بإسكان الراء . (فَتَعَالَى اللَّهُ) عظم شأنه ذاتا وصفة وفعلا وقولا عما يقول المشركون من التشبيه أو الإنكار ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء فى ملكه .

(الْمَلِكُ) النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن تُرجى وعده ويُخشى وعيده .

(الْحَقُّ) فى ملكوته مستحق الملك لذاته ، أو الحق : الثابت فى ذاته وصفاته .

قيل : وصف نفسه بالملك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قِبَل الغير ، ولا غيره أهل له أو أولى به منه . وفى الآية تعظيم الحق من هو كذلك .

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) لا تعجل بقراءة القرآن إذا كان جبريل يلقنك إياه حتى يتم تلقينه . وكان يعجل مخافة النسيان وعجلته سبب نزول الآية وذلك استطراد بعد ذكر الإنزال فقد تبين لك أن القرآن يطلق على الكل وعلى بعضه ولكن لا يطلق على البعض إلا إن كان البعض له أو أكثر

وقيل : ثلاثا أو أكثر وأما أقل فلا إلا مجازا .

وقيل : الوحى هنا بمعنى البيان ، وإنزال البيان أى لا تعجل بتبليغ القرآن ما كان مجملا من قبل ولا بقراءته حتى يأتيك بيانه .

ومعنى يُقضى يوصَل . وقرئ « حتى نقضى إليك وحيه » ، بالنون ونصب الوحى .

وزعم بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » .

وروى أنها نزلت بسبب امرأة جاءت إلى النبى ﷺ تشكو إليه زوجها أنه ضربها فقال له النبى ﷺ : القصاص . فنزل : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » .

(وَقُلْ رَبِّ) يا رب (زِدْنِي عِلْمًا) ونزل : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله » وكان بعد ذلك يقرأ ويقول : رب زدنى علما وكان ابن مسعود إذا قرأ ذلك قال : اللهم رب زدنى علما .

وعن بعضهم : المعنى سل ربك زيادة العلم بدل الاستعجال ؛ فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة .

وفى الآية تواضع بأنه لا علم له إلا ما علّمه الله أو يعلّمه الله وثناء وشكر بأن عندى علما لطيفا جاءنى منك بفضلك فزدنى علما إليه فإن لك فى كل شىء علما وحكمة وفى ذلك استجلاب جزيل وأدب جميل .

ويروى أن الله سبحانه وتعالى ما أمر رسوله بطلب الزيادة إلا فى العلم .

وقيل : المعنى : رب زدنى علما بالقرآن . فكلما نزل عليه شىء منه زاد به علما .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ) أى أنهينا وأوصلنا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها يقال : تقدم السلطان إلى زيد وأوعز إليه وعزم عليه ، وعهد إليه إذا أمره وأوصاه والواو للاستئناف واللام فى جواب قسم محذوف وحرف القسم يقدر غير الواو وذلك لئلا يجتمع واوان ويجوز تقديرها كما تقول بعد كلام : ووالله .

وقيل : الواو عاطفة على صرفنا فيه من الوعيد ، لأن القسم ولو كان إنشاء لكن الغرض جوابه وما هو إلا تأكيد لجوابه ، وجوابه هنا إخبار . وأجاز كثير عطف الإنشاء على الإخبار والعكس .

وقيل : اللام للابتداء .

وقيل : زائدة للتأكيد ، وهكذا فى مثل ذلك .

(مِنْ قَبْلُ) من قبل هذا الزمان ، أو من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدى وتركوا الإيمان بى ، وهم المذكورون بقوله : « لعلهم يتقون » أو من قبل أكله من الشجرة .

(فَنَسِيَ) ترك ما عهدنا إليه من أنه لا يأكل منها ، أو لم يعتن بالعهد الاعتناء الصادق حتى زال من حافظته وقال عياض : نسى عداوة إبليس والعهد .

وقيل : لم يقصد المخالفة بل اغتر بحلف إبليس .

وقيل : ناولته من الشجرة حواء ولم يعلم أن ما ناولته من الشجرة المنهى عنها فالتعنيف من ترك التحفظ .

وقيل : نسى ترك لأنه توهم أن النهى نهى تنزيه لا نهى تحريم وفى ذلك إشارة إلى أن أساس بنى آدم العصيان وعرقهم راسخ فى النسيان كأنه قال : قد أوعدنا إليهم على الأكل منها من قبل أن توعدهم على المعاصى والشرك فخالف إلى ما نهى عنه بالترك أو بالغفلة

وقرئ فنُسِّيَ بالبناء للمفعول وتشديد السين أى حمله الشيطان على الغفلة أو الترك .

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) من الوجود الذى هو ضد العدم ، فله مفعول واحد وهو عزما . وأما قوله فمتعلق به ، أو حال من عزما ولو نكرة لتقدم له عليه ولتقدم النفى أو من الوجود الذى بمعنى العلم فله مفعول ثان وعزما مفعول أول .

والعزم : الثبات على الأمر والتصلب فيه ولو كان فى ذلك الوقت إثبات وتصلب لم يزله الشيطان وبعد ما جرب الأمور وذاق حلوها ومرها تصلب وثبت كما قال ﷺ : لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه .

وفى رواية : وقد قال سبحانه وتعالى : « ولم نجد له عزما » وعليها فالحديث فى نقيصة الخليقة ، أى أن الإنسان بالغاً ما بلغ قد يطفئ الشيطان نور عقله ويغره أو المعنى عزماً على معصية ولكنه أخطأ .

(وَإِذْ) مفعول لمحذوف أى اذكر .

(قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا) اختلفوا هل شمل الأمر إبليس فمن زعم أنه ملك قال بشموله .

ونسب بعض أصحابنا مَن قال ذلك للشرك وليس بشيء ، لأنه تأول ، ولأنه قد نسب القول بذلك إلى بعض الصحابة ومَن قال : ليس منهم قال : شمله تغليبا لأنه مع الملائكة محلا وعبادة .

وقيل : لم يشمله إلا بالتقدير ، أي وإذ قلنا للملائكة وإبليس .

(لِآدَمَ) أي لخالق آدم ، أو السجود لآدم اعتراف بفضله ، أو سجود لله إلى جهة آدم كالكعبة .

قيل : المعنى اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يثبت ويتصلب .

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) التحقيق أن الاستثناء متصل ؛ لأن إبليس ولو كان جنياً لكنه قد جعل من الملائكة تغليباً . وهو أبو الجن . وإنما صح أن يقال له : جني ، ومن الجن ؛ لأن أبا القبيلة منهم . وذلك أنهم يعتبرون وأبوهم جملة . فيقال للأب : هو من تلك الجملة وينسب إليها وفي استثنائه ذم عظيم ، مثل أن يقبل إلى المجلس عظيم فيقوم له مَن في المجلس من الأشراف ، وكان معهم رجل دني ولم يقم له فإنه يعنف تعنيفاً شديداً ، ويقال له : قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تتكبر عن القيام وفيه أيضاً تلويح بأنه ليس من أهل الفضل ولو كان من أهله لعرف لآدم فضله إنما يعرف أهلَ الفضل ذووه .

(أَبَىٰ) كره أن يسجد فلم يسجد ، أو امتنع من السجود . ويدل على هذا المتعلق وذلك المفعول قوله : اسجدوا وقوله : فسجدوا إلا إبليس والجملة حال مؤكدة ؛ فإن استثناءه من الساجدين يكفي في أنه لم يسجد .

وقيل : الجملة مستأنفة لبيان المانع من السجود وهو الاستكبار وأنه لا يقتدى

مفعول ولا متعلق . وأن المنى أظهر الإباء عن المطاوعة . وأما وجه دلالة أبى على المنع أن الإباء عن المطاوعة غالباً يكون عن تكبر أو أن أبى متضمن معنى قوله : أنا خير منه .

(فقلنا يا آدم إنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) حواء ، عادا كما حسداً لما رأى من النعمة عليكما فاحذرا مكره ، فإنه لا يألو لكما مكراً إلا بى .

(فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ) أى لا تغفلا عن مكره حتى يخرجكما ، أى احذرا أن يؤثر فيكما وسوسته بالعصيان فتعصيانى فتخرجا منها بسببه . ولكونه سبباً أسند الإخراج إليه .

(فَتَشْقَىٰ) بالحرث والحصد والزرع والطحن والخبز وغير ذلك فلا تأكل أو تلبس إلا بكدّ يمينك وعَرق جبينك .

روى أنه أهبط إليه من الجنة ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه .

وروى أنه جاءه رغيف من الجنة قبل أن ينتفع من حرثه ، فمد يده للأكل فطار إلى الجبل ليتعب فى المشى إليه ، وأسند الشقاء إليه دون زوجه ؛ لأنه إذا شقى الرجل أى ضاق أمره فى المعيشة ضاق أمر عياله ؛ لأنه القائم عليهم ، أو لأن الشقاء بمعنى التعب فى طلب المعيشة إنما هو على الرجل لا على زوجه ويزيد هذا ما بعد .

وقد يقال : ليس تشقى خطابا لآدم لكنه فيه ضمير غيبة لحواء ، أى فتضيق المعيشة على زوجك وفى ضمن هذا ضيقها عليه يقال فى الكفاية عن فقر الرجل : عريت زوجته وجاعت ، أو خاطب آدم وحده رعاية للفاصلة ؛ لأنه لو قيل فتشقيا لكان ألف الاثنين أخر الفاصلة وألف الفعل أولى .

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا) فى الجنة (وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا) لا تعطش .

(وَلَا تَضْحَىٰ) لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها إذ لا شمس فى الجنة فذلك نفى للمؤثر وهو الشمس فى ضمن نفى الأثر وهو البروز لها ويطلق الضحى على الاحتراق بها أيضاً .

ذكره الله استجماع ما تدور عليه الكفاية وهو الشبع والملبس والرى وعدم شمس تؤذيه فيستتر عنها وذلك فى الجنة مستغنيا فيها عن السعى فى تحصيل ذلك .

وإنما ذكره إياه ليتجنب ما يخرجه عن الجنة فيزول عنه ذلك ولا يجد ما يجد منه بعد خروجه إلا بسعى .

والتحقيق أن قوله : « وأنك لا تظمأ » معطوف على قوله : « إن لك أن لا تجوع » وزعم القاضى أنه معطوف على أن لا تجوع ويرده أنه لو كان كذلك لفتحت الهمزة : وقد يجاب بأنه بنى تفسيره على قراءة غير نافع وأبى بكر بفتح همزة أنك لا تظمأ . فقوله حق .

وإن قلت : إذا عطف أنك لا تظمأ على أن لا تجوع فى قراءة الفتح كان بمنزلة دخول إن بكسر الهمزة على أن بفتحها ونونهما مشددة وذلك ممتنع .

ووجه الدخول أن المعطوف على اسم إن بمنزلة ما هو اسمها تال لها والواو قائمة مقام إن فكأن الداخل على أنك لا تظمأ هو إن . قلت : اغتفر فى التابع ما لم يغتفر فى المتبوع والواو لم توضع نائبة عن أنّ أبداً بل تنوب عنها وعن غيرها من العوامل . ولما لم تكن حرفا موضوعا للتأكيد مثل إنّ لم يمتنع اجتماعهما .

قال الدماميني وشارح الجامع : لا يوقعون إن وصلتها بعد إن إلا مفصولة بالخبر نحو « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها » ولا يوقعون الحرف المصدري وصلته بعد لا غير المكررة . انتهى .

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) أي أوصل إليه وسوسة ، وهي كلام خفي فسره بقوله : (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ) أي على شجرة من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلا ، فإضافتها للخلد إضافة سبب لمسبب ، وذلك في زعمه الباطل ؛ لأن هذه الشجرة ليست كذلك ، بل هي من أكل منها تعرض للخروج من الجنة ، ولأسباب الموت ؛ فإن طعامها كطعام الدنيا ، وطعام الدنيا كثيراً ما يكون سببا للموت .

قيل : هـذه الشجرة يسير الراكب فيها مائة عام ولا يقطعها . ذكره الشيخ هود .

قال الصبان : قال أهل المعاني : جملة قال : يا آدم الخ عطف بيان لجملة وسوس إليه الشيطان اهـ .

والأولى أن يقال : إنها مستأنفة للبيان ، فليست بيانا نحويا عند التحقيق .

(وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) لا يضعف ولا يفنى وهذا دليل لقراءة الحسن وابن عباس إلا أن تكونا مَلِكين .

(فَأَكَلَا) آدم وزوجه (مِنْهَا فَبَدَتْ) ظهرت (لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) عورتهما . ظهر لكل واحد قُبله وقُبل الآخر ودبره .

وسمي القبل والدبر سوأتين لأن انكشافه يسوء صاحبه وكانا قبل ذلك قد لبسا حُلل الجنة .

وقيل : ألبس الله جسديهما الظفر ولما أكلا منها طار وما بقى إلا ما على الأصابع .

وعن الحسن عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : كان آدم رجلا طويلا كأنه نخلة، جعد الرأس ولما وقع به ما وقع بدت عورته ، وكان لا يراها قبل ذلك ، فانطلق هاربا فى الجنة فأخذت شجرة من شجر الجنة برأسه من الشعر فقال لها : أرسلينى فقالت : لست بمرسلتك . فناداه ربه : يا آدم أمنى تفر ؟ فقال : يا رب استحييت منك .

(وَطَفِقَا) طفق واسمه ، أى شرعا (يَخْصِفَانِ) خبره أى يلصقان

وقرئ بضم الياء والتشديد للمبالغة (عَلَيْهِمَا) الحق جواز عمل العامل مطلقا فى ضميرى مسمى واحد إذا عمل فى أحدهما بواسطة حرف جر فلا حاجة إلى تقدير يخصفان على جسدهما .

(مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) ورق التين يستران به جسديهما .

وعن بعض : كان ورقا مدورا كالكف . وقيل : سوآتهما فقط .

وعن بعض : يرقعان بعضا إلى بعض كهيئة الثوب .

(وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ) بالأكل من الشجرة . وخص آدم لأنه أكل عقلا فعصيانه أشد . وقيل : لأن المراد عصى باتباعه حواء فى إرادة الأكل .

(فَغَوَىٰ) زل عن المطلوب وخاب ، حيث طلب الخلد بالأكل منها أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو .

ومعصيته هذه قيل : صغيرة وهو ظاهر كلام الشيخ هود ـ رحمه الله ـ .

وقيل : ليست ذنبا أصلا وإنما أكل منها نسيانا للنهى فعنفه الله وعاب عليه على عدم تحفظه الموصل له إلى النسيان باسم المعصية والغواية مع أن ما فعل ليس ذنبا

زجرا بليغا لأولاده عن الصغائر والكبائر وهو قول ابن العربى من علماء الأندلس .

ومَن قال : إن الأنبياء تصدر منهم الكبائر أشرك . ذكره أصحابنا وغيرهم .

والحق أنه لا يشرك ؛ فإن من العلماء من جوّز عليهم الكبائر وجوّز أكثر المعتزلة الصغائر دون الكبائر .

وقيل : لا تصدر منهم صغيرة ولا كبيرة وما نسب إليهم من ذنب فإنه ما صدر منهم عن ذهول أو مكان الأولى خلافه أعظم درجتهم والله أعلم . وهم معصومون من وقت الولادة عندنا وعند الشيعة .

وقال أكثر المعتزلة : عُصِموا من وقت بلوغهم .

وقال أكثر الشافعية وأبو على المعتزلى : عُصموا وقت النبوة .

قال الفخر : لو صدر منهم الذنب لكانوا أقل درجة من آحاد الأمة لعظم شأنهم ولكانوا أقل حالا من عدول الأمة فى ذلك الوقت .

قال : ولو وجب الاقتداء بهم فيه .

قلت : لأنه لا يجب الاقتداء بنبى فى كل ما فعل إلا ببيانه وإن كان من رآه يفعل يعلم أنه ذنب فلا إشكال .

قال : ولا أقبح ممن رفع الله درجته وائتمنه وقال : إنه بالوحى افعل أو لا تفعل وخالف فيكون داخلا فى « أتأمرون الناس » الآية وقد قال : « يسارعون فى الخيرات » على العموم ومن الخيرات ترك الذنب ، ووصفهم بالاصطفاء وهو ينافى الذنب وذكر وجوها غير ذلك قال : واتفقوا على أنهم معصومون من اعتقاد الكفر ومن الكذب والكتمان فى التبليغ وإلا ارتفع الوثوق بهم .

وأجاز بعضهم السهو فى ذلك لإمكان الاحتراز عنه وعلى أنهم معصومون من الخطأ فى الفتيا عمدا . وأجازه بعضهم سهوا انتهى .

قال ابن قتيبة : يجوز : عَصَى آدمُ ولا يجوز : عاص ؛ لأنه يقال لمن اعتاد المعصية . وكان هذا معتمد أصحابنا فى قولهم فيمن فعل كبيرة نفاق من الموحدين أنه يقال : آمن ولا يقال : مؤمن فإن مؤمنا لمن بالغ فى الإيمان ، حتى إنه يأتى بالفرائض ويجتنب المحرمات .

وبعد ، فالحق عندى جواز تسمية المنافق مؤمنا بمعنى موحدا ؛ فإن العرب تسمى باسم الفاعل من فعل الفعل ولو مرة ، فمن خاط ولو مرة يقال له : خائط ولا يقال : خياط إلا إن اعتاد إلا إن كان لأصحابنا دليل نقلى فسلم .

روعن أبى هريرة عن النبى ﷺ تحاجّ آدم وموسى ، أى تخاصما

فقال موسى : يا آدم أنت أبونا آدم أخرجتنا من الجنة .

فقال له : أنت ياموسى اصطفاك الله بكلامه ، وخَطَّ لك التوراة بيده ، أى بقدرته ، أو بأمره للملائكة ، أتلومنى على أمر قدّره الله عَلَىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ، أى أظهَره الله فى الوجـود ، مثل أن يكتبه فى اللوح ، أو يظهره للملائكة ، أو خلَق مقدماته ، وإلا فعلم الله لا أول له .

قال ﷺ : فحج آدم موسى ، أى غلبه . وكان موسى لامه على مجرد ذلك ، فكان آدم غالبا ، ولو لامه على اهتمامه وإرادته وكسبه لم يكن غالبا ، لأن العبد يلام على ذلك .

وفسر بعضهم غوى بَجَشِم أى بشم وتخم من كثرة الأكل .

قال جار الله : وهو تفسير خبيث ، وأصله على هذا غَوِىَ بكسر الواو بعده

ياء مفتوحة كما قرأه بعضهم كذلك ، فقلبت الكسرة فتحة والياء ألفا على لغة طيِّئ . يقولون في بَقِيَ ورَضِيَ ونحوهما بوزن عَلِمَ : بَقَى ورَضَى ، بوزن سعى .

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ) قربه واصطفاه بالحمل على التوبة باختياره ، وأصله الجمع من جبى كذا فاجتبيته أى جمع إلىّ نفحات جمه وضممته إلى نفسى .

(فَتَابَ عَلَيْهِ) قبل توبته (وَهَدَى) أرشده إلى الثبات على التوبة إلى الموت .

(قَالَ) الله : (اهْبِطَا) يا آدم وحواء (مِنْهَا) من الجنة (جَمِيعًا) حال (بَعْضُكُمْ) مبتدأ (لِبَعْضٍ) حال من عدو ، أو لامه للتقوية راجعة لعدو ، بعضكم معادٍ لبعض .

(عَدُوٌّ) خبر ، والجملة حال ثانية مقدرة ، أو حال من ضمير جميعا مقدرة . وإنما خاطبهما بصيغة خطاب الجماعة لأنهما أصل الذرية ، بل كأنه قيل : اهبطا بما اشتملتما عليه من ذريتكما .

ويدل لذلك لفظ العداوة ؛ فإنها واقعة بين أولادهما لا بينهما اللهم إلا الأمر اليسير مما لابد أن يقع بين المتعاشرين ، أو الخطاب بصيغة الجمع لهما ولإبليس ، أى اهبطا منها كما قد هبط إبليس وأنتما ، وهو متعادون ، أو الأصل : اهبطا أنتما وإبليس بناء على أنهم هبطوا معا وهو ضعيف ؛ فإنه ـ لعنه الله ـ بعد الإباء لم يدخلها ، أو معنى قوله : قال : اهبطا أنتما وإبليس ، أمرهم بالهبوط ، فيشمل ما لو هبطا فى زمان وهبط فى آخر ، أو ضمير الاثنين لآدم وإبليس ، وأما حواء فهبوطها تابع لهبوط آدم ، وضمير الجمع للثلاثة ، أو لآدم وإبليس باعتبار أنهما أصلان لذريتهما ، والعداوة بين آدم وحواء وذريتهما ، وبين إبليس وذريته ، وفيما بين ذرية آدم ، وفيما بين ذرية إبليس ، بأمر الدين وبأمر الدنيا .

ويدل على أن الخطاب لآدم وحواء قوله : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى) الخ كذا قيل .

وفيه بحث بأن الهدى يأتي أولادهما وأولاد إبليس والاتباع والإعراض يكونان من الكل .

والأصل : فإنْ يأتكم ، زيدت ما ، وأبدلت نون إن الشرطية ميا ، وأدغمت في ميم ما ، وأكد الفعل بالنون ، فثبتت الياء لبناء الفعل حينئذ . والهدى : الكتاب والرسول .

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ) وقرأ أبو عاصم الجحدري وابن إسحاق وعيسى بن عمر هُدَيَّ بقلب الألف ياء وإدغامها في الياء ، وهو لغة هذيل . وحكاها عيسى ابن عمر عن قريش ، وحكاها الواحدي في البسيط عن طيّ . ورويت عن النبي ﷺ قاله الشيخ خالد عن الشاطبي .

(فَلَا يَضِلُّ) في الدنيا عن الدين .

(وَلَا يَشْقَىٰ) في الآخرة .

وقيل : الخطاب في يأتينكم لأمة محمد ﷺ خاصة . والهدى : القرآن .

قال ابن عباس : مَن قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة . ووقاه يوم القيامة سوء الحساب لقوله تعالى : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » فيحتمل استدلاله بالآية هذا القول الأخير ويحتمل الأول ، واستدل بها على ذلك لعمومها .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) بأن لم يؤمن به .

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) مصدر بمعنى الضيق ، ولذا وصف به مؤنث وهو مذكر ، وذلك مبالغة ، أو بقدر مضاف ، أو يؤول بالوصف .

وقرئ ضَنْكَىٰ بألف التأنيث وصفا كسكرى .

وهذه المعيشة فى الدنيا .

وقيل : فى الآخرة .

وقيل : فى البرزخ . ويحتمل الجميع .

ووجه الأول أن الكافر ولو وسع ماله لكن همته الدنيا وازدياده بهوى الخلف ، لا خوف له من انتقامها ، فهو فى ضيق من ذلك ، بخلاف المؤمن ، فإنه فى سهولة لتوكله مع أن الرزق قد يضيق بشؤم الكفر . وكذا يسلط الله الذل به نحو « ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة » الخ « ولو أنهم أقاموا التوراة » الخ « ولو أن أهل الكتاب آمنوا » الخ « استغفروا ربكم » الخ « وأن لو استقاموا » الخ

وقال الحسن : المعيشة الضنك : الضريع والزقوم والغسلين فى النار .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى : إنه عذاب القبر ، يضغطه القبر حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال يعذب حتى يبعث .

قال ﷺ : المعيشة الضنك : عذاب الكافر فى القبر يسلط عليه تسعة وتسعون تِنِّيناً ، لكل تِنِّين تسعةُ رءوس تلسعه وتخدشه .

وروى : إنه إذا وضع المؤمن فى قبره وانصرف عنه الناس ، أتاه الملك من اليمين فتقول له الزكاة : لا تنزعْه من قِبَلى ، وجاءه من رأسه فيقول القرآن الذى يقرؤه كذلك ، ثم من رجليه ، فتقول الصلاة كذلك ، فيوقظه بلين فيقول : مَن ربُّكَ ؟

فيقول : الله لا شريك له .

ومَن نبيك ؟

فيقول : محمد ﷺ

وما دينك ؟

فيقول : الإسلام .

فيقول الملك : وعلى ذلك أحييتَ ، وعليه مُتَّ .

فيقول : نعم .

فيقول : وعلى ذلك تُبعث ؟

فيقول : نعم .

فيقول : صدقتَ .

فيُفتح جنب قبره إلى منزله فى الجنة ، فيبشر وجهه ويقول له : نم نوم عروس .

وأما الكافر فلا يجادل عنه شىء ، ويعنّفه ويقول له : مَن ربك ؟

فيقول : أنت .

ومَن نبيك ؟

فيقول : أنت .

وما دينك ؟

فيقول : أنت ! لو كان لك إلهٌ تعبده لاهتديت له .

فيُفتح له جنبَ قبره إلى منزله فى النار ، ويضرب ضربة يزول بها كل عظم عن موضعه ، يسمع صياحَه غيرُ الثقلين ، ثم يقذف فى مقلاة ، ينفخ له نافخ ، لا يميل إلى هذا إلا ردّه هذا ، حتى ينفخ فى الصور ، فتخمد عنه النار إلى أن يُبعث .

وقيل : المعيشة الضنك : الحرام .

وعن ابن عباس : الشقاء . وعنه : المال الحرام ، وما أنفق فى محرم .

وقيل : سلب القناعة حتى لا يشبع .

وعن بعض الصوفية : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته .

(وَنَحْشُرُهُ) وقرئ بسكون الهاء إجراءً للوصل مجرى الوقف .

وقرئ بالجزم عطفا على محل « فإن له معيشة ضنكا » فإنه فى محل جزم جواب من . وأما جواب إن فمجموع من وشرطها وجوابها .

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) قال ابن عباس : أعمى البصر .

وقيل : معناه لا حجة له .

وقيل : أعمى القلب .

ويؤيد الأول قوله : (قَالَ رَبِّ) يا رب (لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) فى الدنيا ، وعند البعث ؛ فإن قلبه قد عمى أيضاً فى الدنيا ، ولا حجة له فيها على كفره .

وقد يقال : إنه كان فى الدنيا يحتج بأشياء ، وإذا حشر أزالها الله عن قلبه ، مع أنها لو حضرته لم تنفعه فيقول : يا رب قد كان لى شىء أتمسك به فزال عنى ، أو قوله ذلك كناية عن اضمحلال ما قد كان فى الدنيا يحسبه حجة وبصيرة . ولما ظهر له أنه لا ينفع قال : يا رب هذه منك نقمة لِمَ لَمْ تحشرنى هيئتا كما كنت فى الدنيا ؟

(قَالَ كَذَٰلِكَ) خبر لمحذوف ، أى الأمر كذلك ، أى أنت أهل لأن يفعل بك مثل ذلك . وبيّن سبب تأهله لذلك بقوله :

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا) واضحة نيرة (فَنَسِيتَهَا) تركتها غير ناظر فيها ، أو المعنى فعلت فعلا مثل ذلك الذى فعلنا بك ، من حشرك أعمى .

وفسر ما فعل بقوله : «أتتك آياتنا» فنسيتها، فالكاف اسم مفعول لمحذوف أو حذف المنعوت ، أو حرف ، أى فعلا ثابتا كذلك .

(وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ) تترك فى العمى والعذاب كما تركت آياتنا .

واستدل بعض العلماء بالآية على أن من حفظ القرآن ونسيه فهو كافر كفر نفاق ، يحشر أعمى .

وقيل : لا يكفر ما دام يفرزه من الشعر . وهو قول غير واضح ، فإنه متميز عن الشعر ولو نسيه أشد نسيان .

والأولى أن يقال : ما دام يفرزه من غيره ، أو المراد ما دام يفرز منه ما على وزن الشعر من الشعر .

وقيل : لا يكفر بنسيانه بل بترك العمل به .

وإن قلت : كيف يصح الاستدلال والنسيان بمعنى الترك فى الآية والكلام على زوال القرآن من الحافظة ؟

قلت : نعم لكن إذا ترك درسه زال حفظه .

وقد فسره بعضهم الإعراض عن الذكر بترك درسه ، والنسيان بزوال الحفظ عنه

وأمال حمزة والكسائى أعمى فى الموضعين ؛ لأن ألفهما عن ياء .

وأمال أبو عمرو الأول فقط ؛ لأنه رأس آية؛ ومحل وقف ،فهو جدير بالتغيير .

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ) فى المعاصى . (وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ) بل كذب بها

وقيل : أسرف : أشرك . والأول أولى ؛ لأن الشرك يفيده عبارة : « ولم يؤمن » الخ . والتأسيس أولى من التأكيد .

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ) وهو الحشر على العمى .

(أَشَدُّ) من المعيشة الضنك فى الدنيا

(وَأَبْقَىٰ) أشد بقاء ؛ فإنه لايزول ، أو عذاب الآخرة ، وهو التعذيب بالنار ، أشد وأبقى من المعيشة الضنك ومن حَشْره أعمى ، أو منهما ومن العذاب عذاب القبر والإحماء أو عذاب الآخرة ، وهو جميع ما بعد الموت أشد وأبقى من المعيشة الضنك .

قيل : ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله .

وقيل : أو عذاب الآخرة أشد من ترك الإيمان والآيات .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أفلم يبيّن الله لكفار مكة أو الرسول ﷺ القرآن أو الإهلاك المدلول عليه بقوله :

(كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) وكم للتكثير مفعول لأهلكنا ، وقبلهم متعلق بأهلكنا ، أى قبل وجودهم ، ومن القرون متعلق به أيضا ، ومن للابتداء .

قاله .

ومَن أجاز نعت كم الخبرية أجاز كون « من القرون » نعتاً لِكم . فى التمهيض

ويجوز أن تكون للبيان . وعليه فأل للعهد ، والجملة مفعول ليهد معلقا بكمَ الخبرية ؛ فإنها من المعلقات .

ومعنى التعليق تسويغ كون المفعول جملة وذلك أن يهدى بمعنى الإخبار والتبيين . والإخبار يجوز تعليقه .

وأصل يهدى يوصّل ويبلّغ والتوصيل والتبليغ فى الكلام إخبار .

ويجوز تفسيره بهذا الأصل .

ويجوز كون الجملة فاعلا ليهد بمعنى يتبين ، فهو لازم . والإسناد إنما هو لمضمون الجملة ، وهو الإهلاك . وقيل : الجملة .

ويدل على كون الفاعل غير الجملة قراءة بعضهم نهد بالنون .

(يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) إذا سافروا . وذلك أن قريشا يسافرون إلى الشام ، ويمرون بمساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ، ويشاهدون آثارهم ، أهلكهم الله بسبب تكذيب الرسل .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ) العقول الناهية عن الغفلة والعصيان .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) لولا عِدَةٌ سبقت . (مِنْ رَبِّكَ) بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة .

(لَكَانَ) الإهلاك المعلوم من السياق المماثل لإهلاك القرون .

(لِزَامًا) إما مصدر لازم بفتح الزاى ، أخبر به عن الإهلاك مبالغة ، أو يقدر بذى لزام ، أو بملازم .

وإما فعال من لزم بمعنى اسم الآلة كلزام وملزم ، جعل العذاب والإهلاك لفرط اللزوم كأنهما آلة .

وأجاز أبو البقاء كونه جمع لازم . والمراد على كل حال اللزوم فى الدنيا باستئصال وعجلة . وسبقت : نعت كلمة لا خبر على الصحيح ، والخبر محذوف وجوبا . وفى ذلك بحث فى النحو .

(وَأَجَلٌ) معطوف على كلمة أو على ضمير سبقت للفاصل .

(مُسَمًّى) والأجل المسمى : يوم القيامة .

وقيل : موت كل واحد منهم .

وقيل : يوم بدر .

فإن قلت : إذا كان العطف على كلمة أو على ضمير سبقت ، فهلا قيل : ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى ، بالعطف على كلمة ، أو ولولا كلمة سبقت هى وأجل ، بالعطف على المستتر .

قلت : أخر عن اللزام ليشعر به أن الأجل المسمى مانع عن اللزام كما نعت عنه الكلمة . وهذا باعتبار كون الكلمة مجرد التأخير بقطع النظر عن غاية التأخير فافهم .

ويجوز العطف على ضمير كان ، وأفرد الخبر لأنه مصدر .

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) من أنك كاذب ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو شاعر ، أو مجنون ، أو يعلمه بشر . زعموا أنها منسوخة بآية السيف ، ولعله الصبر المأمور به فى كل باطل فلا نسخ .

(وَسَبِّحْ) نزّه ربك عن النقائص ، أو صلّ الخمس .

(بِحَمْدِ) متعلق بمحذوف حال ، والباء للمصاحبة ؛ أى ثابتا مع الحمد له على هدايته ، ومعترفا بأنه المولى المنعم :

(رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) قبل يعنى صلاة الفجر

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) يعنى الظهر والعصر لأنهما فى النصف الأخير ، أو العصر وحده ، وأما الظهر فمن آية أخرى ، مثل : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » .

(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ) من ساعاته جمع إنى كرضى ، أو أناء كسماء ، أو أنى كنقى ، أو إنى بكسر فإسكان ، أو إنو كذلك ، متعلق بقوله : فسبح . ومن بمعنى فى ، أى فى بعض ساعاته . والمراد : المغرب والعشاء ، أو من للتبعيض ، متعلقة بمحذوف نعت لمجرور محذوف ، متعلق بسبح ، أى فى زمان ثابت من آناء الليل ، والفاء زائدة .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) معطوف على مجموع الجار والمجرور ، وهو ظرف ، أو معطوف على محل آناء ، وهو النصب . وإنما عطف على المحل لجواز ظهوره في الفصيح ، إذ لو أسقطت « من » لانتصب أطراف .

قيل : المراد الصبح والمغرب ، كرر للاختصاص . والجمع بمعنى التثنية ولا لبس ، أو باعتبار أن النهار للجنس .

ويدل للأول : « أقم الصلاة طرفي النهار » أو المراد صلاة الظهر ؛ فإنها بعد الطرف الأول من النهار وبداية الطرف الأخير ، فذلك طرفان ، عبّر عنهما بالجمع لما مر قبل ، أو المراد التطوع في أجزاء النهار .

والأطراف : الأجزاء . قاله الحسن ، أو أطراف النهار : ما بعد طلوع الشمس ، وما قبل أن نصلي العصر .

وقيل : أطراف النهار : الظهر والمغرب .

قال ابن العربي : الصحيح أن المغرب من طرف الليل .

وقيل : المراد بالآية النفل والسنة . ويرد عليه « قبل غروبها » فإنه لا نفل ولا سنة قبله ، إلا إن أريد قبله . وقيل : العصر وهو بعيد .

ويحتمل أن المراد بها : قل سبحان الله وبحمده .

وقدم الليل لسبقه خلقا ، ولأن العبادة فيه أفضل لصعوبتها ، ولجمع القلب .

(لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) ترجية عائدة لسبح ، أي سبح في تلك الأوقات ، طمعا أن تنال عند الله ما ترضى به ، عبر بالمسبب وهو الرضى عن السبب وهو النيل .

وقيل : لعلك ترضى بما تُعطَى من الثواب على عملك .

وقرأ الكسائي عن عاصم ، وأبو بكر بالبناء للمفعول ، أي يرضيك ربك بما تحب ، كالشفاعة ، من الإرضاء .

وقيل : يرضاك ربك ، أي يقبلك من الرضى .

(وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) نظر عينيك (إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ) استحسانا له ، وتمنيا أن يكون لك مثله، أو لا تنظرن إليه بالعمد مطلقا ؛ لأن النظر إليه يورثه الاغتباط به .

ولذلك كره بعض العلماء النظر إلى الأملاك الحسنة ؛ لئلا يشتغل بها القلب فيدعو إلى كسب مثلها .

(أَزْوَاجًا) أصنافا من المشركين (مِنْهُمْ) أزواجا مفعول متعنا ، ومنهم نعت أزواجا .

ويجوز أن يكون أزواجا حالا من هاء به ، فإنه متعهم بأصناف من الخيرات ومنهم مفعول متعنا ، أى متعنا بعضا ثابتا منهم ، أو متعنا بعضهم .

(زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) مفعول لمحذوف دل عليه متعنا ، أى أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا ، أو أعنى الزهرة ، أو مفعول ثان لمتعنا ، متضمنا معنى أعطينا ، أو بدل من محل الجار والمجرور ، أو بدل من أزواجا ، على تقدير مضاف ، أى ذوى زهرة ، أو بدون تقديره مبالغة ، جعلوا نفس الزهرة مبالغة ، أو على أن أزواجا واقع على ما وقع به التمتيع ، أو مفعول لأذم محذوفا .

مسألة ـ قال ابن هشام :

« إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرةَ الحياة الدنيا » علامَ انتصب هذه الحياةَ ، وزهرةَ الحياة ؟

الجواب : أما هذه الحياة فهذه ظرف زمان على معنى فى ، والحياة صفة ، أو عطف بيان ، وأما زهرة الحياة الدنيا فبدل من الهاء فى به ، على الموضع ، أو مفعول لمضمر دل عليه متعنا ؛ لأنه بمنزلة جعلنا ، فكأنه قيل : جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ، ولا يكون حالا لتعريفه .

ومَن قال فى مررت به المسكينَ : إنه حال ، جازت الحالية عنده هنا .

وزعم بعضهم أن الزهرة هنا فى موضع المصـــدر ، أى زينة الحياة الدنيا ، فيكون من باب صنع الله .

ولمكىّ هنا قول غريب ؛ زعم أنه أحسن من غيره ، وهو أن يكون الأصل زهرة بالتنوين ، ولكنه حذف لالتقاء الساكنين ، وخفض الحيــاة على البدل من ما ، أى ولا تمدنّ عينيك إلى الحياة الدنيا حال كونها زهرة . انتهى .

ولا يكون بدلا من ما ؛ لأن لنفتنهم متعلق بمتعنا ، فهو داخل فى الصلة ، ولا يبدل من الموصول قبل صلته . انتهى كلام ابن هشام فى المسائل السفرية .

وقال فى المغنى : فى الأمور التى خرجوا فيها إلى الأمر البعيد الثانى عشر قول مكى وغيره فى قوله تعالى : « ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » إن زهرة حال من الهاء ، أو من ما ، وإن التنوين حذف للساكنين مثل قوله : ولا ذاكراً لله إلا قليلا . وإن جر الحياة الدنيا على أنه بدل من ما ، والصواب أن زهرة مفعول بتقدير جعلنا لهم ، أو آتيناهم . ودليل ذلك ذكر التمتيع ، أو بتقدير أذمّ ؛ لأن المقام يقتضيه أو بتقدير أعنى بيانا لما أو للضمير ، أو بدل من أزواجا ، إما بتقدير ذوى زهرة ، أو أنهم جعلوا نفس الزهرة مجازاً للمبالغة .

وقال الفراء : هو تمييز لما أو للهاء وهذا على مذهب الكوفيين فى تعريف التمييز .

وقيل : بدل من ورد بأن لنفتنهم من صلة ما ، فيلزم الفصل بين أبعاض الصلة بأجنبى ، وبأن الموصول لا يتبع قبل كمال صلته ، وبأنه لا يقال : مررت بزيد أخاك على البدل ، لأن العامل فى المبدل منه لا يتوجه إليه بنفسه .

وقيل : من الماء وفيه ما ذكر وزيادة الإبدال من العائد وبعضهم يمنعه بناء على أن المبدل منه فى نية الطرح ، فيبقى الموصول بلا عائد فى التقدير قال : ولو لزم إعطاء منوى الطرح حكم المطروح لزم إعطاء منوى التأخير حكم المؤخر فمنع ضربَ زيداً غلامُه . ويرد ذلك : « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات » والإجماع . انتهى .

والزهرة : الزينة والبهجة .

وقرأ يعقوب بفتح الهاء لغة كالجهرة . والجهرة بإسكان الهاء وفتحها ، أو جمع زاهر ، ككامل وكملة ، وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا ؛ لتنعُّمهم ، بخلاف ما عليه المؤمنون الزهّاد ، من شحوب الألوان والتقشف فى الثياب .

قال جار الله : لما كان النظار إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئا أحب أن يمـد إليه نظره ، ويملأ منه عينيه قيل « ولا تمدنّ عينيك » .

ولقد شدد العلماء من أهـل التقوى فى وجوب غض البصر عن آنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة . فالناظر إليه محصل لغرضهم وكالمغرى لهم على اتخاذها اهـ .

عن عبد الله بن بسيط عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ : نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثنى إلى يهودى فقال : قل له : إن رسول الله ﷺ قال : بع لى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى رجب . فأتيته فقلت له . فقال : والله لا أبيع له ، ولا أسلفه إلا برهن . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته . فقال : والله لئن باع لى ، أو أسلفنى لقضيته وإنى لأمين فى السماء ، وأمين فى الأرض . اذهب إليه بدرعى وهو من حديد فنزلت الآية .

وقالوا : مَن كتبها إلى التقوى وعلقها عليه تزوج إن كان عازبا ، وحفظ إن كان ينسى ، وشُفى إن كان مريضا ، واستغنى إن كان فقيرا .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) لنبلوهم فيه بأن يطغوا ، أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ) فى الجنة مما متعناهم به فى الدنيا .

(وَأَبْقَى) أشد بقاء ؛ لأنه لا ينقطع .

وعن أُبىّ بن كعب : من لم يتعزّ بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات . ومن يُتْبِع بصره ما فى أيدى الناس طال حزنه ، ومَن ظن أن نعمة الله فى مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلّ عمله ، وحضر عذابه .

وعنه ﷺ : خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومَن لم تكونا فيه لم يكتب صابرا ولا شاكرا : مَن نظر إلى مَن فوقَه فى الدِّين ومَن دونَه فى الدنيا، فاقتدى بهما كتبه الله صابرا شاكرا ، ومَن نظر إلى مَن فوقه فى الدنيا ، ومَن دونَه فى الدِّين ، فاقتدى بهما لم يكتب صابرا ولا شاكرا .

وعن الحسن عنه ﷺ : خير الرزق الكفاف . اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

وقيل : رزق ربك خير من الدنيا وأبقى .

وقيل : رزق ربك : المراد : ما رزقه الله من الهدى والنبوة .

(وَأْمُرْ) الواو للاستئناف ، أو للعطف على أحد الإنشاءات قبل ، أعنى الطلب . والألف هى ألف يأمر وهى الهمزة فى الماضى .

والأصل : وأمر بهمزة وصل مضموم فواو ساكن . أصله همزة ساكنة ، وهى المفتوحة فى الماضى ، حذفت همزة الوصل ، لتقدم متحرك عليها ، فقلبت الواو ألفا . فانظر شرحى على اللامية .

(أهْلَكَ) مَن فى دارك .

وقيل : أمتك .

وقيل : المراد من تبعه من أمته .

(بِالصَّلَاةِ) أمر بأن يأمرهم بها بعد ما أمروا بها ، استعانة على خصاصتهم ، ولئلا يهتموا بأمر المعاش ، ولا يلتفتوا لأرباب الثروة .

(وَاصْطَبِرْ) اصبر صبرا عظيما عليها ، أو افعل لموافقة المجرد .

وقيل : داوم (عَلَيْهَا) فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . والوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول .

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا) لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك .

وقيل : لا نسألك على ما أعطيناك من النبوة رزقا .

(نَحْنُ نَرْزُقُكَ) متفرغ للعبادة ؛ فإن من كان فى عمل الله كفى الله له عمله .

وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئا مما عند السلاطين ، أو سمع به ، بادر إلى منزله ودخله ، وهو يقرأ : « ولا تمدَّنَّ — إلى — أبقى » ثم ينادى : الصلاة الصلاة يرحمكم الله ، ويصلى .

وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلى ، ويتمثل بالآية .

وكذا بكر بن عبد الله المزنى كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا . بهذا أمر الله ورسوله ثم يتلو الآية .

وكان ﷺ إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة ، وتلا الآية . رواه عبد الله بن سلام .

قال ابن عطاء الله : اعلم أن هذه الآية علمت أهل الفهم عن الله سبحانه

كيف يطلبون أرزاقهم : إذا توقفت عليهم أسباب المعيشة أكثروا من خدمة الله ، وقرعوا باب الرزق بمعاملة الرزاق .

قال : وسمعت شيخنا أبا العباس المرسى يقول : والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق . واذكر ـ رحمك الله ـ هنا : « ولله العزة ولرسوله » نفى العز الذى أعز الله به المؤمن رفع همته إلى مولاه وثقته به دون من سواه ، واستحِ من الله بعد أن كساك حلة الإيمان ، وزينك بزينة العرفان ، أن تستولى عليك الغفلة والنسيان ، حتى تميل إلى الإخوان ، وتطلب من غيره وجود إحسان .

ثم قال : رفع الهمة عن الخلق هو ميزان ذوى الكمال ، ومسبار الرجال . وكما توزن الذوات توزن الأحوال والصفات اهـ .

وعن ابن عمر : أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله حدثنى حديثا موجزا فقال له النبى ﷺ : صل صلاة مودع كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك . وايأس مما فى أيدى الناس تعش غنيا . وإياك وما تعتذر منه . وروى مثله أبو أيوب .

(وَالْعَاقِبَةُ) الجنة (لِلتَّقْوَىٰ) لذوى التقوى .

(وَقَالُوا) أى المشركون : (لَوْلَا) أى هلا (يَأْتِينَا) محمد .

(بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) تدل على صدقه فى ادعاء النبوة ، أو بآية غير ما جاء به . لم يعتدوا بما جاء به تعنتا وعنادا . وأجابهم بقوله :

(أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) التوراة والإنجيل وغيرها ؟ بلى. جاءهم القرآن مشتملا على زبدة ما فى الكتب ، من العقائد ، والأحكام الكلية. معجزا الكم على يد أمى لم ير الكتب ولم يتعلمها. فالقرآن آية بينة معجزة برهان على نبوته وعلى صحة ما فى الكتب فهو دليل لها وهى محتاجة إليه ،

وقرأ غير نافع وحفص وأبي عمرو يأتهم بالتحتية؛ لأن الفاعل وهو بينة مؤنث مجازاً ظاهر ولأن البينة برهان .

وقرئ بإسكان الهاء والقرآن أم المعجزات لأنه علم النبي ﷺ وللمعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع علم أو عمل على وجه خارق العادة . والعلم أصل للعمل وأبقى منه أثرا .

وقيل : المراد بالبينة البشارة في الكتب بنبوته ﷺ .

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ) أي ولو ثبت إهلاكنا إيام . وفيه أوجه ذكرتها في غير هذا المحل

(بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ) من قبل محمد ﷺ أو من قبل البينة وعليه فالتذكير لتأويل البينة بالبرهان بالدليل أو بالقرآن أو من قبل إتيان البينة .

(لَقَالُوا) يوم القيامة : (لَوْلَا) هلا (أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ) بالنصب في جواب التحضيض (آيَاتِكَ) المرسل هو بها

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ) في القيامة (وَنَخْزَى) بالعذاب والافتضاح ، مضارع خزى كرضى خزيا بالكسر وخزىً وقع في لمية وشهر مثل بذلك قاله في القاموس وهو غير متعد . وإنما يتعدى بالهمز .

وقيل : المراد الذل والخزى بالقتل والسبي .

وقرئ ببنائهما للمفعول من أذله وأخزاه .

ذكر بعض المالكية عن أبي سعيد عنه ﷺ أنه يحتج يوم القيامة على الله ثلاثة : الصبي ، والمجنون ، وصاحب الفترة فيقول الأولان : لو جعلت لنا عقلا لأطعناك ، والفترى : لو أرسلت رسولا إلي لكنت أطوع خلقك فتجعل لهم نار ويقال: ردوها فيردها من كان في علم الله سعيداً ويقع الشقي. فيقول: إياي عصيتم فكيف رسولي .

قلت : لم يصح هذا الحديث عنه ﷺ لأنى عرضته على القرآن فنافاه ؛ إذ لا حجة على الله تعالى بعد الرسل ، فبمجرد إرسال الرسل يتم عذر الآخرى وكيف يختبر فى الآخرة مع أنه ليس للإنسان إلا ما سعى فى الدنيا، والآخرة إنما هى دار جزاء

وأما الصبى والمجنون فقد رفع القلم عنهما فلهما الجنة فضلا . وقيل : بالوقوف فى أطفال المشركين والمنافقين وهو المشهور ، والتحقيق الأول،فإنه بعد ما توقف فى أطفال هؤلاء قال : سألت ربى اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم وأعطانيهم واللاهون : الأطفال .

(قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) كل منا ومنكم متربص، فأنتم تتربصون موتى ونزول الحوادث ، وإنا متربصون بكم الخزى والهوان .

(فَتَرَبَّصُوا) قيل : منسوخ بآية السيف والحق خلافه .

(فَسَتَعْلَمُونَ) يوم القيامة .

(مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) المعتدل الموصل إلى الجنة (وَمَنِ اهْتَدَى) والضلالة نحن أم أنتم

وقرئ السواء بمعنى الوسط والجيد . وقرئ السوء أى القبيح وهم أصحابه .

وقرئ السُّوَىّ بضم السين وفتح الواو وتشديد الياء تصغير السوء أبدلت همزته ياء وأدغمت فيها ياء التصغير .

وقرئ فتمتعوا فسوف تعلمون ، لا فتمتعوا فستعلمون ، كما هو المتبادر من بعضهم ، ومن مبتدأ استفهامية وأصحاب خبره وبالعكس ، والجملة فى محل نصب قامت مقام مفعولى تعلم .

وإن جعل بمعنى المعرفة فقام مفعول وذلك تعليق بالاستفهام ومن مبتدأ

استفهامية وصلة اهتدى خبر والمجموع معطوف على مَن أصحاب فيجوز كون الثانية موصولة وجملة اهتدى صلة ومَن معطوفة على أصحاب أو على الصراط ، على أن المراد به النبي ﷺ ويجوز عطفها على محل الجملة كقوله :

وما كنت أدري قبل عَزّةَ ما البُكا ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تولّتِ

ولا يشترط لهذا كون العلم بمعنى المعرفة كما قال بعضهم . وقد بسطت المسألة في النحو .

اللهم ببركة سيدنا محمد ﷺ وببركة السورة أخز النصارى واهزمهم واكسر شوكتهم ، وغلّب المسلمين والموحدين عليهم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء عليهم السلام

مكية . قيل: إلا « أفلا يرون أنا نأتي الأرض » الآية ، فمدنية . وآيها مائة واثنتا عشرة آية .

وقيل : مائة وإحدى عشرة آية .

وكلها ألف ومائة وثمان وستون .

وحروفها أربعة آلاف وثماني مائة وتسعون حرفا .

قال ﷺ : مَن قرأ : « اقترب للناس حسابهم » حوسب حساباً يسيراً وصافحه وسلّم عليه كل نبي ذُكر في القرآن .

وروى أبو موسى : مَن قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حسابا يسيرا وسلم عليه كل من ذُكر اسمه فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْتَرَبَ) بمعنى قرب فهو موافق للمجرد. والزيادة للتأكيد (لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ).

وإن قلت: كيف وصف بالاقتراب وهذه ألف ومائتان واثنان وسبعون عاما منذ نزلت الآية أو أكثر من ذلك؟

قلت: وصف به لأنه عند الله قريب ولو بعد عند غيره. واليومُ عند الله ألف سنة من سنوات الدنيا؛ ولأن كل آت قريب، وإن طال أجله. وإنما البعيد هو ما مضى، أو لأن الاقترابَ نسبي؛ فإن ما بقي من الدنيا ولو طال قصير بالنسبة إلى ما مضى؛ بدليل بعث النبي ﷺ الذي هو خاتم النبيين وعلامة الساعة. وعنه ﷺ: بُعثت في نَسَم الساعة.

وخطب بعض المتقدمين: وآنت الدنيا جداء، ولم تبق إلا صُبابة كصُبابة الإناء. واللام متعلق باقترب وهي أصل.

وإن اعتبرنا أن الأصل اقترب حساب الناس ثم اقترب حسابُ للناس بعدم تنوين حساب للإضافة وبزيادة اللام في المضاف إليه كقوله: يا بُؤسَ للحرب ثم تركت الإضافة مقدم الجار والمجرور، فتعلق باقترب. وكان الجار غير زائد، ثم عوض عن التعريف بالإضافة التعريفُ بأل فقيل: اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم. فهي بحسب الأصل زائدة فهي للتأكيد ولو بعد ذلك.

فإنه إذا كان يكفي أن يقال: اقترب حساب الناس فزيد فيه اللام وضمير

الناس بأن قيل : اقترب للناس حسابهم فلا يخفى ما فيه من العقوبة ولو لم يقل بزيادتها فى الأصل لذكر الناس مرتين إظهاراً وفى ذلك نوع إبهام وتبيين .

والناس : المشركون ؛ بدليل وصفهم بما يأتى فهو من إطلاق اسم الجنس على بعضه .

وذلك قول ابن عباس قيل : مراده مشركو مكة المنكرو البعث .

ويحتمل أن يراد كل المكلفين والحكم عليهم بالوصف الآتى حكم على المجموع وفيه زجر للجميع كما تقول للطلبة : ما لكم تنامون ، وتغلظ عليهم ، مع أن النائم بعضهم ، زجراً للبعض ، وتحذيراً لغير النائم أن ينام

وفى ذكر مجىء الحساب أيضاً دعاء للتائب .

وذكرتُ معنى الحساب والبعث فى حساب المشركين فى غير هذه السورة .

وكان رجل من أصحاب النبى ﷺ يبنى جداراً فمر به آخر يوم نزول هذه الآية فقال الذى يبنى : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟

فقال : نزل « اقترب للناس حسابهم . وهم فى غفلة معرضون » فنفض يديه وقال : والله لا بنيت .

قال أبو بكر بن العربى : قال لى شيخى : ارغب فى العبادات لا تذهب بك أمس ، فى مطاولة الأقران ومواصلة الإخوان . ولم أر للخلاص أقرب من طريقين : إما أن يغلق الإنسان بابه على نفسه ، وإما أن يخرج إلى موضع لا يعرف فيه . فإن اضطر إلى مخالطة الناس ، فليكن معهم ببدنه ، ويفارقهم بلسانه وقلبه . وإن لم يستطع فبقلبه . والواو للحال ، وفى غفلة تتعلق بمحذوف خبر ، ومعرضون خبر ثان ، أى هم ثابتون فى غفلة من الحساب ، معرضون عن التفكر فيه ، أو

متعلق بمحذوف حال من المستتر فى معرضون ؛ ومعرضون خبر ، وصاحب الحال الذى هو جملة حساب. ويأخذ عصاة الموحدين من تلك الأوصاف حظهم إلا الحكم بأن القرآن سحر ، ونحو هذا ، لكن المشرك ينكر والعاصى يقر ، ويعمل كالمنكر .

يا أخى أشعر قلبك مهابة ، فإلى الله مآلك ، وتأهب للقدوم ، فقد آن ارتحالك. أنت فى سكرة لذاتك ، وغشوة شهواتك ، وإغماء غفلاتك ؛ مقراض الفناء يعمل فى ثوب حياتك ، ويفصل أجزاء عمرك جزءاً جزءاً فى سائر ساعاتك ؛ كُلُّ نَفَسٍ من أنفاسك جزء منفصل من جملة ذاتك ، وذهاب الأجزاء تذهب الجمل .

أنت جملة تؤخذ آحادها وأبعاضها إلى أن يستوفى سائرها عساكر الأقضية ، والأقدار محزنة بأطوار الأعمار ، تهدمها بمعاول الليل والنهار ، فلو أضاء مصباح الاعتبار . لم يبق لنا فى جميع أوقاتنا سكون ولا قرار .

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) أى ما يأتيهم من ربهم ما ينبههم من نوم الغفلة والجهل ، مما أحدث نزوله شيئاً فشيئاً آية بعد أخرى وسورة بعد أخرى إلا استمعوه بمجرى الآذان مستهزئين به لتوغلهم فى الغفلة والإعراض عن النظر والتفكر فى العواقب .

وفائدة إحداث الذكر شيئاً فشيئاً أن يتكرر التنبيه فيتعظوا ، وما زادهم ذلك إلا لعباً ولهواً وغفلة مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسىء . والذكر : القرآن .

وقيل : ما قاله النبى ﷺ من السنن والمواعظ غير ما فى القرآن . وإنما قال : « من ربهم » لأنه ﷺ لايقول إلا حقا موافقا للقرآن ، فكأنه من الله بل قال الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى »

قيل : لما نزلت : « اقترب للناس » الخ قال بعضهم : زعم صاحبكم أن الساعة قربت فانتهوا قليلا عمّا يتم ، ثم عادوا . ولما نزل : « أتى أمر الله » الخ . قالوا كذلك ، أو قال غير ذلك البعض ، ثم رجعوا ونزل : « ولئن أخّرنا عنهم العذاب » الخ .

ومن ربهم متعلق بيأتى ، أو بمحذوف صفة لذكر ، أو حال منه ، لتقدم النفى ولو صفة بمحدث ، أو متعلق بمحدث ، أو بمحذوف حال من ضميره .

وذكر فاعل مجرور بمن الزائدة للتأكيد ، مقدر الرفع كما يدل له قراءة ابن أبى عبلة تنها للتقدير . وجلة وهم يلعبون حال من الواو ، وكذا قوله : (لَاهِيَةً) فهما حالان مترادفان ، أى جامعين بين اللعب واللهو ، أو لاهية حال من ضمير يلعبون ، فهما حالان متداخلان .

وإذا قلنا : إن اللعب واللهو بمعنى واحد فالحال الثانية مؤكدة للأولى وقد فرقت بينهما فى غير هذا الموضع .

(قُلُوبُهُمْ) فاعل لاهية . وقرئ برفع لاهية ، فالظاهر أنه خبر ، وقلوب مبتدأ ، والجلة حال كذلك .

ويجوز كونه خبراً لمحذوف ، أى هم لاهية . والجملة حال .

وقلوب فاعل ويجوز كونه خبراً آخر لقوله : هم ، والأول يلعبون ، وقلوب فاعل . فاستماعهم من حيث قرنه باللعب واللهو كلا استماع .

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) زادوا الكلام الخفى إخفاء ، فانظر ما مر فى طه .

وعن أبى عبيدة : أسروا : أجهروا .

(الَّذِينَ ظَلَمُوا) بدل من واو أسروا المحذوف نطقا للساكن . وفائدته

التشنيع عليهم باسم الظلم فى إسرارهم ما أسروا به النجوى ، أو فاعل ، والواو حرف علامة للجماعة وهى لغة أكلونى البراغيث .

روى أن سيبويه قال بالأول ، وأنه قال : ليس فى القرآن لغة مَن قال : أكلونى البراغيث ، أو مبتدأ والجملة قبله خبره ، وإنما قدم الخبر الفعلى هنا لعدم الالتباس ، بخلافه فى نحو زيد قام . والأصل : وهم أسروا النجوى . وهؤلاء أسروا النجوى ، وعبر بالموصول تشنيعا بصلته ، أو مفعول لأذُمُّ محذوف وجوبا ، أو خبر لمحذوف ، أى هم الذين ، أو مبتدأ خبره قول مقدر ناصب الجملة بعده ، أو فاعل لقول محذوف ناصب لها ، أو بدل من واو استمعوه ، أو مفعول لأعنى ، أو بدل من هاء يأتيهم ، أو هاء حسابهم ، أو هاء قلوبهم ، أو من الناس قاله ابن هشام .

(هَلْ هَٰذَا) ما هذا . (إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ) توبيخ (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) الجموع بدل من النجوى ، أو مفعول لقول كما مر .

والإشارة إلى سيدنا محمد ﷺ . اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا مَلَكا فكذبوا سيدنا محمدا ﷺ ، لأنه بشر ، فنسبوا ما جاء به من الخوارق كالقرآن إلى السحر . فقال بعض لبعض : كيف نحضره ونحن نعلم ونعاين أنه سحر .

وإنما أسروا الشورى تعاونا على استنباطها . ومنه قول الناس : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . وقد روى ذلك عنه ﷺ مرفوعا . أو اعتقدوا أن الرسول ولو كان بشرا لا يكون مماثلا للبشر ، بل يخالفهم بشىء خارق مثل غِلَظٍ وطُولٍ مفرطين ، ومثل أن يكون لا يأكل .

(قُلْ) يا محمد . وقرأ حمزة والكسائى وحفص قال ، إخبارا عن رسول الله ﷺ :

(رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ) أى قول كان سرا أو جهرا ، فهو أبلغ من قوله « قل أنزله الذى يعلم السر » ولو كان يلزم من علم السر علم الجهر ولذلك اختير هنا ، وليطابق قوله : « وأسروا النجوى » أى أسروا السر . وذلك لأن القول يشمل الجهر والسر ونص السر نصًا ومبادرة بخلاف يعلم السر . ولا ضير فى اشتمال القرآن على فاضل وأفضل تفننًا ، وكل منهما معجز . بل الظاهر أن كل آية غاية فى البلاغة فى مقامها وكل ما نزلت لأجله وسياقها .

والأصل : قل لهؤلاء . قيل : قال فى آية الفرقان كذلك ؛ لأن المراد وصف ذاته بأنه عالم الغيب لا يعزب عنه شىء . وقيل : قل لهم وللناس .

(فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أراد بهما الجنس، أو أراد هذه السماء وهذه الأرض، فهما تمثيل لسائر الأماكن ، والجار والمجرور متعلق بالقول ، أو بمحذوف حال منه أو من ضمير يعلم .

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بكل شىء ، فيجازى على الإحسان والإساءة .

ويجوز أن يكونوا أسروا النجوى وقالوا لرسول ﷺ والمؤمنين : إن كان ما قلتم حقا فأخبرونا بما أسررنا فقال الله تعالى بعد ما فسر له نجواهم : « قل ربى » الخ .

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) بل للإضراب الانتقالى فى المواضع الثلاثة وأضغاث خبر لمحذوف ، أى القرآن أضغاث والمفرد ضِغث ، بكسر فسكون ، بمعنى مضغوث ، أى مخلوط .

والأحلام جمع حُلُم بضمتين ، أو بضم الحاء وإسكان اللام وهو الرؤيا . انتقل عن قولهم : القرآن سحر إلى قولهم : إنه أخلاط رآها فى النوم لا تصلح للتأويل .

(بَلِ افْتَرَاهُ) جاء به من قبل نفسه وليس من الله . بل . وهذا انتقال منهم من قولهم : إنه أضغاث أحلام ، إلى قولهم : إنه مفترى .

(بَلْ هُوَ) أى محمد (شَاعِرٌ) والقرآن شعر ، انتقال منهم من قولهم : إنه مفترًى إلى قولهم : إنه شعر يزخرف الباطل . وبل هذه مرتّبة على التى قبلها ، وكلتاهما مرتبة على أضغاث أحلام ، ومن مقولهم .

وبل الأولى من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن تكون الثانية والثالثة من كلامه جل وعلا ، لم يسلط عليهم القول ، بل يقدر بعده أى .

بل قالوا : افتراه . بل قالوا : هو شعر ، فى الكلام إشارة إلى تنزيل أقوالهم فى مراتب من الفساد متفاوتة ، فإن قولهم : إنه مفترًى أفسد من قولهم : إنه أحلام ؛ لاشتماله على مغيبات كثيرة ، طابقت الواقع والمفترى لا يكون كذلك ، بخلاف الأحلام ، فقد تكون كذلك ، ولأنهم ما جربوا عليه كذبا قط . ويسمونه قبل الأربعين الأمين .

وقولهم : أضغاث أحلام أفسد من قولهم : إنه سحر ؛ لأنه يجانسه ، من حيث إن كلا منهما خارق ، لكن بينهما ما بين العرش وثور أسفل الأرضين .

وقولهم : إنه شعر أفسد من قولهم : إنه مفترًى ؛ لأنه مشحون بالحقائق والحكم ، وليس فيه ما يناسب قول الشعراء .

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ) كاليد والعصى وإبراء الأكمه ، وإحياء الموتى والدقة ، إن كان صادقا .

(كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) إن قلت : كيف شبهوا الإتيان بالآية بإرسال الأولين ؟

قلت : صح ذلك ؛ لأن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية ؛ فإن قولك : أتى سيدنا محمد بالمعجزة ، مثل قولك : أرسل سيدنا محمد ﷺ ؛ فإن الإتيان بها من فروع الإرسال ولوازمه ، أو لأن التقدير : كما أرسل الأولون بها .

ولا مانع من حذف هذا الضمير المجرور ، ولو تعلق بما لم يتعلق به بآية ؛ لأن ما موصول حرفى ، بل ولو جعل اسميا ، أى كالإرسال الذى أرسله الأولون؛ لأن الإرسال والإتيان ما صدقهما واحد .

ويجوز أن يكون التقدير : فليأتنا مرسلاً بآية كما أرسل الأولون آتين بها ، فحذف فى كل من طرفى التشبيه ماذكر فى الآخر .

وبعضهم يسمى الحذف من الأول مع ذكر المحذوف فى الثانى ، مع الحذف من الثانى ، مع ذكر هذا المحذوف فى الأول احتباكا ، والكاف نعت لآية ، أو نعت لمصدر محذوف ، أو هى حرف ، ويقدر الاستقرار نعتا .

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ) من زائدة فى الفاعل ، على حذف مضاف ، أى ما آمن أهل قرية .

(أَهْلَكْنَاهَا) صفة لقرية برسم ذلك المضاف .

وإنما أهلكنا قرية ، طلبت آية ، فجاءتها ولم تؤمن . ولولا اقتضاء الحكمة أن لا نهلك هذه الأمة لأرسلنا إليهم آية يطلبونها فلا يؤمنون فنهلكهم .

(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) إن جئتهم بها . وفيه إيماء إلى الوعيد ، كأنه قال: فإن وراء عدم إيمانهم بها إهلاكا كإهلاك من تقدمهم . كذا ظهر لى .

وقيل : المعنى : أفهم يؤمنون مع أنهم أعتى ممن سبقهم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) ومثله: فلا تستبعدوا كون الرسول بشرا .

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) هل كانت الرسل قبله بشرا رجالا ، يأكلون ويشربون .

(إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فذلك جواب لقولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم وأهل الذكر : أهل الكتاب . والذكر : التوراة والإنجيل .

وقيل : التوراة فقط ، فأهله اليهود فقط . وإنما أمرهم بسؤال أهل الكتاب لأن المشركين يشاورونهم فى أمر النبى ﷺ ويثقون بقولهم ولا سيما اليهود ، ولأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم . وإذا أخبروهم أوجب لهم العلم وقواه ، ولأنهم اشتدت عداوتهم - أهانهم الله - لرسوله ﷺ . فإذا أخبروهم كان أوقع فى النفس وما شهد به العدو أفضل .

وإنما سموا أهل الذكر - لعنهم الله وأهانهم - كما تقول : زيد حامل القرآن وأهله ، أى حافظه ، ولو كان لا يعمل به .

وقيل المراد : من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام وغيره . وهذا مجرد تمثيل وإلا فعبد الله أسلم بالمدينة بعد الهجرة .

وقيل : أهل الذكر : أهل القرآن المؤمنون ، العاملون به ، وهو ضعيف ؛ لأنهم خصماؤهم فلا يصدقونهم .

وقرأ حفص نوحى بالنون وكسر الحاء .

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ) أى الرسل أو الرجال الموحَى إليهم والمَصْدَقُ واحدٌ .

(جَسَدًا) مفرد مراد به الجنس ، كأنه قيل : أجسادا ، أو فى الإفراد والتنكير إيماء إلى نوع ، كما يظهر بتقدير مضاف ، أى ذوى قوى من الأجساد أو أفرد لأنه فى الأصل مصدر ، أو الحكم على الجمع ، أى ما جعلنا آدم جسداً لا يأكل ، وما جعلنا إدريس جسداً لا يأكل . وهكذا ، فاختص بقوله : ما جعلناهم جسداً .

والجسد : جسم ذو لون ، ولذلك لا يقال للماء والهواء ؛ لأنهما ولو كانا جسمين لكن لا لون لهما . وإنما يتلون الماء بكون ظرفه أو مقابله ، وما يُرى فى الريح إنما هو تراب أو نحوه .

وقال الفخر : بل للماء له لون يُرى لا يحجب ما وراءه .

وقيل : الجسد جسم ذو تركيب ، لأن أصله جمع الشىء واشتداده .

(لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) نعت لجسدا على المعنى ، أو مفعول ثان بعد مفعول ثان متعدد

فإن أريد بالجسد ما لا يتغذى ، فهو منفى كالجملة بعده المؤكدة ، وإن أريد مايتغذى فهو مثبت. والنفى متسلط على الجملة بعده. وذلك من تمام الجواب السابق.

وقيل : جواب لقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام .

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) تأكيد لما قبله ؛ فإن من يأكل الطعام لا بُدَّ له من الموت . والطعام نفسه من أسباب الموت . وذلك إما لاعتقادهم أن الملائكة لا يموتون ، أو علموا أنهم يموتون ، لكن سموا طول حياتهم خلودا .

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) مفعول ثان مقيد بمعنى حرف الجر ، أى فى الوعد ، أى لم نخنهم فى الوعد ، أو مفعول ثان غير مقيد بل مصرح على تضمين صدق معنى ما يتعدى لاثنين .

ومن أجاز قياس النصب على نزع الخافض أجاز تخريج ذلك عليه ، والضمير للرجال المرسلين . والوعد وعده تعالى بإهلاك مكذبيهم ، والعطف على نوحى إليهم وأجاز بعضهم مجىء ثم للاستئناف .

(فَأَنْجَيْنَاهُمْ) المرسلين (وَمَنْ نَشَاءُ) المؤمنين وغيرهم ، ممن فى بقائه مصلحة ، كمن سيؤمن هو أو من أحد من ذريته .

قال القاضى : ولذلك مُدت العرب عن الاستئصال .

قلت : ومن بقى من غير المؤمنين ، دون الموصوفين بالإسراف فى قوله : (وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) فى الشرك والمعاصى .

وقيل : المراد بمن نشاء : المؤمنون

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ) يا قريش (كِتَابًا) القرآن ، ونكر للتعظيم .

(فِيهِ ذِكْرُكُمْ) بذكركم به غيركم ، لأنه بلغتكم ، أو المراد شرفكم ، أو الثناء عليكم ، أو مكارمكم التى تطلبون بها حسن الذكر ، كحسن الجوار ، والوفاء بالعهد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والسخاء

وقيل : المراد : لغتكم .

وقيل : ذكر ما تحتاجون إليه من دينكم

وقيل : تذكرة لكم ومن فسره بالشرف فإنما نظر إلى قيد الإيمان به ، أو إلى أنه مشهور بأنه نزل على نبى عظيم من قريش .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتؤمنون به ، وهذا تحريض .

(وَكَمْ قَصَمْنَا) أهلكنا (مِنْ قَرْيَةٍ) هذه الجملة واردة عن غضب شديد ، منادية على سخط عظيم ، لأن القصم كسر فظيع ، وهو الذى يُبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم بالفاء . واستعير للإهلاك العظيم وكم للتكثير .

والمراد بالقرية أهلها تعبيرا بلفظ المحل على الحال ، أو بلفظ أحد المتجاورين عن الآخر ، أو بقدر مضاف وذلك بدليل قوله : (كَانَتْ ظَالِمَةً) أى مشركة فإن المشرك من فيها .

(وَأَنْشَأْنَا) أحدثنا (بَعْدَهَا) بعد إهلاك أهلها (قَوْمًا آخَرِينَ) بدلا منهم مكانهم .

(وَلَمَّا أَحَسُّوا) أدركوا (بَأْسَنَا) عذابنا وشدّته، إدراك المشاهد المحسوس. و لواو لأهل القرية، أو لها؛ لأنها قائمة مقامهم، أعنى قيام لفظها.

(إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو شبهوا بمن يركض دابته فى الإسراع الشديد، فقال لهم: إنك ومَن هناك من المؤمنين، أو لسان الحال، على سبيل الاستهزاء:

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) نعمتم فيه، وترفهتم بلا شكر (وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) بطلب شىء من أموالكم، وكانوا أسخياء رياء أو بخلا، أو أسخياء بلا رياء، لكن لا ينفعهم، فقيل لهم ذلك تهكما، أو لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم فى أموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا أو اجلسوا وتزينوا كما كنتم، فيأتى من يجرى عليه أمركم ماذا نفعل وماذا نترك، أو لعلكم تسألون فى النوازل، ويستضاء برأيكم وذلك كله تهكم.

ومن جملة تلك القرى المقصومة قرية باليمن. قيل: أهلها عرب.

وعن ابن عباس: اسمها حضور وهى وسحول قريتان فيه، تنسب إليهما الثياب. وفى الحديث: كُفّن رسول الله ﷺ فى ثوبين سحوليين. وروى: حضوريين.

وقيل: حضور أرسل الله إليها نبيًا فقتلوه، وأرسل الله عليهم بُخْتَ نَصَّرَ، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم.

وقيل: هزموا جيشه مرتين، ونهض فى الثالثة بنفسه فهزمهم ولما أخذ فيهم السيف هربوا مسرعين، وقيل لهم: لا تركضوا إلخ ونودوا من السماء أيضا: يا لثارات الأنبياء، فندموا واعترفوا، إذ لم ينفعهم الندم والاعتراف.

ومَن زعم أن المراد هذه القرية وحدها فقد أخطأ ؛ لأن كم للتكثير .

وقيل : قائل لا تركضوا الخ ملائكة العذاب بالنار .

وروى أن القائل لذلك رجال بخت نصّر على جهة الخداع والهزء .

وروى أنهم هربوا ، فأمر بُخت نصّر أن ينادى فيهم : يا لثارات النبي المقتول ، فقتلوا بالسيف عن آخرهم .

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا) يا هلاكنا ، نداء تفجع بغير « وا » لعدم اللبس ، أو استغاثة مجردة عن اللام وغيرها .

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) بالكفر والمعاصى وقتل النبي .

(فَمَا زَالَتْ تِلْكَ) الدعوى ، أو القولة ، أو الكلمات (دَعْوَاهُمْ) يدعون بها ، ويرددونها

وإنما سماها دعوى ؛ لأنهم كالداعى : يا ويلُ احضر ، فهذا وقتك . وتلك اسم زال ، ودعوى خبر ، أو تلك خبر ، ودعوى اسم ، والأول أولى لسلامته من التقديم والتأخير . ولأن المراد الإخبار لدوام تلك الدعوى الصادرة منهم ، ولأنه لا يظهر الإعراب فى واحد فهو محل لبس ، فليكن المقدم هو الاسم ، كما أن المقدم هو الفاعل فى نحو ضرب موسى عيسى ، حيث لا دليل على خلاف ذلك ، لكن التباس اسم زال بخبرها غير ضائر ؛ لأن كلا منهما هو الآخر ، بخلاف المفعول والفاعل .

قال ابن هشام عن ابن الحاج عن الزجاج : لا خلاف فى أنه يجوز كون تلك اسم زال ، ودعواهم خبرها ، وبالعكس . انتهى .

ولا يقال : كما يمنع تقديم الخبر على المبتدأ إذا خيف اللبس ، كذلك يمنع جعل تلك خبراً مقدما ؛ لأنا نقول : محل المنع ما إذا فسد المعنى فى الآية صحيح على كل وجه .

(حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) أى كزرع محصود بالمنجل ، فهو استعارة على أحد القولين ، فى نحو زيد أسد ، مما ذكر فيه المشبه والمشبه به ، بدون أداة التشبيه ، أو الأصل : مثل حصيد ، فهو مجاز بالحذف وقد علمت أن حصيدا نعت لمحذوف .

ولك أن تجعل حصيدا مصدراً مبالغة ، أو يقدر ذوى حصيد ، أو يؤول باسم مفعول

ووجه الشبه بالزرع المحصود القطع المستأصل ، وعدم الاجتماع ، شبههم بزرع محصود ، كل قبضة متروكة فى موضعها

(خَامِدِينَ) ساكنين كسكون النار ، فانطفاؤها كناية عن الموت ، وهو مفعول ثان بعد مفعول ثان .

قيل هما مثل : جعلته حلوا حامضا ، أى جامعين بين الحصيدية والخمود .

قيل : أو خامدين صفة لحصيدا نظرا للمعنى ، أو حال من ضميره .

وما قيل من أن حصيدا يستوى فيه المفرد وغيره ؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول غير صحيح ، وإنما ذلك فى فعول بمعنى فاعل .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) بل دالين على قدرتنا ، ونافعين عبادنا ، وللحساب والعقاب ، والجنة والنار . فمن اعتبر بهما وما فيهما ، وما بينهما من البدائع ، ولم يغتر بالزخارف الدنيوية الزائلة ، فله الجنة الدائمة .

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) ما يلتهى به من زوجة وبنين وبنات وغير ذلك (لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا) من عندنا مما يليق لحضرتنا ، أو من جهة قدرتنا ، لا من الأشياء التى مثلها عندكم تعرفونها ، مثل الزوجة من الحور العين ـ حاشاه . وفى ذلك رد على من يقول : عزير أو عيسى ابن الله ومن يقول : الملائكة بناته .

وقال الحسن : اللهو : المرأة بلغة اليمن . وعن ابن عباس : إنه الولد . وعنه أيضا : إنه المرأة .

وقيل : من لَدُنَّا : من الملائكة ؛ لا من الإنس، ردًّا لولادة عيسى وعزير عليهما السلام ، ولكن اقتضت الحكمة أن لا نتخذ لهوا ؛ لأنه نقصان .

وفى كتاب لبعض أصحابنا : لا يقال : الله قادر على اتخاذ الولد والزوجة ، ولا غير قادر . وصرح بعض قومنا بجواز ذلك .

(إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) لكنا لا نفعل ؛ لأنه لم تسبق به إرادتنا . وليس هذا تأكيدا ؛ فإن الإرادة غير الفعل ، وإن شرطية .

وقيل : نافية ، أى ما كنا فاعلين لامتناع إرادتنا لذلك قال القاضى : والجملة كالنتيجة للشرطية ، وعلى أنَّ إنْ شرطية ، جوابها محذوف ، دل عليه اتخذناه .

(بَلْ نَقْذِفُ) نرمى . (بِالْحَقِّ) الإيمان والقرآن والرسالة والشرع ، وكل ما هو حق

وقيل : هو قوله : إنه لا ولد له .

(عَلَى الْبَاطِلِ) الشرك وما ليس بحق .

وقيل : قولهم : اتخذ الله ولدا .

(فَيَدْمَغُهُ) يذهبه .

وقرئ بضم الميم وقرئ بالنصب عطفا لمصدره على الحق ، على حد :

* ولُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عينى *

أو على القذف المفهوم ، أى يكون منا القذف بالحق على الباطل فيدمغه . وهذا ضعيف . وعبارة ابن هشام : حذفت أن فى هذه القراءة شذوذا انتهى .

وقيل بقياس حذفها مطلقا فى كل موضع . وقيل : بشرط رفع الفعل فى غير المواضع المشهورة ، مثل ما بعد لام كى .

ووجه الضعف : أنه لم يتقدم نفى أو طلب . والإضراب هو عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، أى ليس من عادتنا اللهو ، بل تغليب الحق على الباطل .

والقذف : الرمى البعيد المستلزم لصلابة المرمى . وذلك حقيقة فى الأجسام ، فاستعير لإيقاع الحق على الباطل ، واشتق منه نقذف بمعنى نوقع الحق عليه .

والدمغ: كسر الدماغ بحيث يشق غشاءه ، فتزهق الروح ، استعير لإذهاب الباطل ، واشتق منه يدمغ بمعنى يذهب ، أو شبه الحق بنحو حجر ، والباطل بنحو إنسان ، فنسب القذف للحق ، والدمغ والزهوق للباطل ، نسبة إيقاعية ، إلا الزهوق فنسبته وقوعية . كذا ظهر لى . ويحتمل غير ذلك ، كما تعلمه من شرحى على شرح عصام الدين .

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) ذاهب الروح، فهو ترشيح للاستعارة ، إذا جعلنا الباطل مستعملا فى الإنسان ، أى أطلق ، وأريد به الإنسان مجازاً لا الإنسان حقيقة أو لا استعارة بيدمغ .

(وَلَكُمُ الْوَيْلُ) العذاب الشديد ، أى واد فى جهنم يا كفار مكة ، أو الخطاب لجميع الكفار .

(مِمَّا تَصِفُونَ) ما مصدرية ، أو موصوفة ، وعليهما فالرابط محذوف ، أى مما تذكرونه ، وتقولونه فى الله .

وأما قول بعضهم : إن الأصل مما تصفون الله به فضعيف ؛ لأن هذا الرابط المجرور لم يتعلق بما تعلق به الموصول ولم يجر بما جر به ، فإن ما مجرورة بمن ،

متعلقة بما تعلق به لكم ، وهو الاستقرار ، أو بمحذوف حال من ضمير الاستقرار ، ومن هذه للتعليل أو الابتداء ، على معنى أنه تحصّل لكم الويل ، وخرج لكم مما تصفون ، والهاء مجرورة بالباء متعلقة بتصفون .

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) خلقا وملكا . ومَن للعقلاء . ويدخل غيرهم فى ذلك بالأولوية ، أو للعقلاء وغيرهم ؛ فإن فى الأرض العاقل وغيره ، وفى السماء العقلاء . ويُصْرَف معنى مَن فى جانب السموات إلى العقلاء .

وقيل : إن فى السموات دوابَّ وطيرا من نور بلا عقول ، وهم غير ملائكة .

(وَمَنْ عِنْدَهُ) هم الملائكة . ومعنى العندية : قرب المنزلة فى الخير ، أو عبر بعند ؛ لأنهم محلهم الأصيل الذى كثروا فيه هو السموات ، ومن فيهن هو عند الله الذى هو فى كل مكان لا عندنا ، ومَن مبتدأ خبره (لَا يَسْتَكْبِرُونَ) لا يتعظمون (عَنْ عِبَادَتِهِ) طاعة .

(وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) لا يعيون ولا يتعبون فينقطعوا عنها .

ويقال : حسر الوادى ، أى انكشف أرضه بزوال الماء ، وحسر عن رأسه : كشف وحسِر : تعب وأعْيى ، والسين والتاء للمبالغة والمبالغة راجعة للنفى ، أى انتفى عنهم الحسور انتفاء بايناً ، على أحد الأوجه ، فى نحو : «وما ربك بظلام» أو النفى هو الراجع للمبالغة ، على معنى أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور ، لكنهم لم يحسروا غاية الحسور ولا أدناه .

والمراد : إنكم يا كفار لكم الويل على كفركم ، وليس الله بمحتاج إلى عبادتكم ، لإن عنده من يداوم على العبادة ، ولا يَعْيَى عنها ، مع أن الله غنى عنها أيضاً

وقيل : مَن معطوف على مَن عطف خاص على عام لمزية الذين عنده ، وهم الملائكة ، أو اعتبر أن مَن عنده أعم من جهة أن يراد الملائكة الذين فى السموات والذين فى الأرضين وتحتهن ، وبين السماء والأرض ، وبين السموات وبين الأرضين ، فلا يبقى إلا مَن فى الأرض من غيرهم فلا يعمهم ، أو اعتبر أن مَن عنده نوع من الملائكة ليس فى الأرض ، ولا فى السماء ، بل بين السموات وبين السماء والأرض .

(يُسَبِّحُونَ) أى ينزهون الله (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) عن التسبيح حال من واو يسبحون ، أو واو يستحسرون ، والحال مقدرة

وعن كعب الأحبار : التسبيح لهم كالتنفّس لبنى آدم كما لا يشغله عنهم شىء ، كذلك لا يشغلهم شىء عنه .

قيل : ولا بُدّ لهم منه ، كما لا بُدّ لنا من طعام وشراب، فهم يقرنه . وعن أبى ذر وابن عباس وعائشة وأنس وعطاء عنه ﷺ : إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطّت السماءُ ، وحُقَّ لها أن تئط ، ليس فيها موضع شبر ، ولا أربع أصابع إلا وعليه ملك قائم ، أو راكع ، أو ساجد .

(أَمِ) بمعنى بل الإضرابية والهمزة الإنكارية وهى منقطعة (اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ) من للابتداء (الْأَرْضِ) مثل الحجر والخشب والذهب والفضة ، ومن متعلقة باتخذوا ، أو بمحذوف نعت لآلهة . وعليه فيجوز فيها أن تكون للتبعيض ، ويجوز جعل اتخذ تصييرها والجار والمجرور متعلقاً بمحذوف مفعولا ثانياً . والمراد بذلك تحقير الآلهة المأخوذة من الأرض .

(هُمْ يُنْشِرُونَ) أى أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض .

ويجوز كون هذه الجملة هى نعت آلهة، أو مفعولاً ثانياً ، ومن متعلق بينشرون

وإن قلت: هم ينكرون البعث رأسا. وإن أقرّ به بعضهم فليس يثبته للأصنام.

قلت: نعم لكن أثبت لها نشر الموتى على ما يقتضيه ادعاؤهم أنها أرباب وفى ذلك تجهيل لهما وتهكم وتوبيخ إن كانت آلهة. فمن لوازم الألوهية القدرة على جميع الممكنات، فهل تقدر آلهتكم على البعث ؟!

قال جار الله: وفائدة قوله «هم» اختصاص الانتشار بهم، أى اتخذوا آلهة تختص بالبعث للموتى.

قلت: لم يظهر لى إفادة ذلك الضمير الحصرَ هنا إلا إن كان يستفاد منه فى العرف أو بوجه.

وقرأ الحسن بفتح الياء وضم الشين يقال: أنشر الله الموتى ونشرها.

ويصح أن يراد بقوله: من الأرض، الإشعار بأنها الآلهة التى من الأرض لا التى من السماء وهى الله والملائكة، فإن من العرب من يعبدهم

وسأل ﷺ أمَةً: أين ربك ؟ فأشارت إلى السماء، ففهم منها أن مرادها نفى الآلهة الأرضية وإثبات الله سبحانه، لا إثبات السماء مكانا له، ولا إثبات الألوهية للملائكة، فقال لها: مؤمنة.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا) فى الجنسين، أحدهما السموات، والآخر الأرض.

(آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) هما وما فيهما إن الرعية وسائر الأملاك تفسد بتدبير الملكين فكيف بملك بين متعدد من التغالب والاختلاف ؟!

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمر بن سعد الأشدق: كان والله أعز علىّ من دم ناظرى، لكن لا يجتمع فحلان فى شول. فهذا يريد أن يكون السموات والأرض على صفة كذا، وهذا على صفة كذا. وهذا يريد أن يفعل

من فبهما كذا . وهذا يريد غير ما أراد ذاك ، وذلك على وقف العادة عند تعدد الحاكم .

فلو أراد أحد الآلهة تحريك شيء وأراد الآخر تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال ؛ لأنه جمع بين الضدين ، وإما أن لا يقع واحد ، وهو محال أيضا ؛ لأن مانع مراد كل هو مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد واحد إلا عند وجود مراد الآخر .

وإما أن يقع واحد دون الآخر ، وهو محال ؛ لأن كل قادر على ما لا نهاية له فتستوى الآلهة فى القدرة . فإثبات الألوهية لأحدها ، وإثبات وقوع مراده ترجيح لا مرجح ، ولأنه إن وقع مراد أحدها دون غيره ، فالذى لم يقع مراده عاجز ، فليس بإله .

وإن فرضنا آلهة قادرة على جميع الممكنات غير مختلفة الإرادة ، فالفعل الواحد إنما يصدر من واحد ؛ إذ لا يشترك اثنان فى فعل ومهما تخيل لك من ذلك ، فقد اختص كل واحد بجزء ، وباشره هو لا غيره . وكل موجود دليل على وجود الله تعالى أشار إلى دلالة الدهر .

وإيضاحه : أنه لو كان معه إله آخر ، لم يخل إما أن يختلفا فى الإرادة على إرادة حكم للتضاد ، أو يتفقا . والثانى فى نفسه محال ، فالمقدم مثله .

أما الملازمة فدليلها وجوب عموم تعلق إرادة الإله وقدرته وسائر صفاته المتعلقة . فلو كان ثَمَّ إلهان لوجب تعلق إرادة كل واحد منهما ، وقدرته بكل ممكن . ومتى تعلق بالفعل إرادتان ، لم يخل من الاتفاق عليه أو التباين . أما بطلان التالى فببطلان طرفيه ، وهما الاختلاف والاتفاق .

فوجه بطلان الطرف الأول وهو الاختلاف : هو أن تقول : لو اختلفا فى فعل ، بأن يريد أحدهما وجود الجسم ، ويريد الآخر عدمه ، أو يريد أحدهما حركته ، والآخر سكونه ، يلزم عجزهما معا ، أو عجز أحدهما ؛ لأن نفوذ إرادتهما معا مستحيل ، لما يؤدى إليه من اجتماع النقيضين ، أو ما فى حكمهما ، فيكون الشىء فى الزمان الواحد موجوداً معدوماً أو متحركا ساكنا .

فإذن لابد من تعطيل النفوذ لإحدى الإرادتين ، أو لكلتيهما . فإن تعطلتا معا لزم عجز الإلهين ، لتعذر الفعل من كل واحد منهما ، ويلزم عليه أيضا خلو المحل عن النقيضين . ولا مانع من نفوذ إرادة كل واحد منهما وقدرته ، إلا نفوذ إرادة الآخر وقدرته .

فإذا لم تنفذ الإرادتان لزم وجود الفعل بهما ، وعدم وجوده بهما ، إن ثبت المانع ، أو حصول المنع من غير مانع ، إن لم يثبت المانع .

وإن كانت إرادة واحد منهما خاصة فمستحيل ؛ لأنه يلزم عليه عدم عموم تعلق إرادة الإله وقدرته ، ولزم عليه العجز ، والعاجز غير إله ، فيلزم أيضا عجز الذى نفذت إرادته ، لأنهما مثلان . واستحال ذلك أيضا بلزوم ترجيح أحد المثلين بلا مرجح . وإن فرض المرجح فلزم عجز الذى نفذت إرادته كما مر ، ولزم حدوثهما .

وأما بطلان الطرف الثانى من التالى ، وهو الاتفاق ، فمن أوجه ؛ لأن الاتفاق إما واجب أو جائز . فإن وجب لزم كون أحدهم مقهورا ، إن قدر الآخر على الترك ، وإلا فمقهوران . ولزم من قهر أحدهما قبل قهر الآخر ؛ لأنه مثله ، ويلزم الافتقار إلى المرجح فى تخصيص أحد المثلين بما لم يثبت لمثله .

ولزم فى الاتفاق الواجب انقلاب الممكن مستحيلا ؛ لأن كل واحد منهما ، إن نظرنا إليه منفرداً ، أمكن أن يوجد كلا من الحركة والسكون مثلا ؛ لأنه

إله لا جزء له . فإذا فرضنا تعلق إرادة أحدهما بخصوص الحركة مثلا ، صار وقوع السكون الممكن من الآخر مستحيلا ، وذلك قلب الحقائق . كذا قيل .

وأيضا كون المانع له تعلق إرادة الآخر بضده ، ويلزم منه إيجاب المانع حكم المنع لما لم يقم به ، وذلك كله مستحيل .

ويلزم أيضا فى الاثنين فى الواجب عدم وجوب الوجود لكل واحد منهما ؛ لأن وجوب الوجود إنما يثبت للإله ، من حيث توقف وجود الحوادث عليه ؛ لئلا يلزم التسلسل أو الدور ، عند تقدير جواز وجوده .

فإذا قدر أن ثم إلهين لم ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء بل هما متفقان أبدا لزم عدم توقف الحوادث على خصوص كل واحد منهما فلا يتحقق وجوب الوجود لكل واحد منهما ؛ إذ على تقدير عدمه ، تستغنى الحوادث عنه بصاحبه ، والإله متحقق وجوب وجوده .

وإن قلت : يكون وجوب الوجود متحققا لأحدهما لا بعينه .

قلت : فيثبت جواز الوجود لأحدهما لا بعينه ، وتماثلهما يمنع من اختلافهما وجوبا وجوازا .

وإن قلت : تمنع أن الفعل يستغنى بأحدهما عن الآخر لا يوجد إلا بهما فوجودهما واجب .

قلت : فيلزم أن يكون كل واحد منهما جزءا للإله لا إله ، فيقوم بكل واحد منهما جزء العلم ، وجزء القدرة ، وجزء الإرادة ، إلى غير ذلك ، مما لا يقول به عاقل .

وإذا كان التركيب من جزءين منفصلين محالا . فما بالك بتركيبه من جزءين منفصلين :

ولزم أيضا من وجود ابتداء الحوادث بكل منهما أن تكون محتاجة لكل واحد منهما ، غنية عن كل واحد منهما ، وهو جمع بين متنافيين .

وإن لم يجب اتفاقهما بل جاز اختلافهما ، لزم قبولهما العجز . وكلما كان الاتفاق جائزاً كان الاختلاف جائزاً ؛ لأن جواز أحد المتقابلين يستلزم جواز الآخر ، والقابل للاختلاف قابل للعجز ضرورة . والجواهر والجسم عندنا قابلان للقسمة .

وزعم قومنا أن الجواهر جسم دقيق لا يقبلها ، وأن العرض لا يقبلها .

ومذهبنا أن الجوهر والجسم واحد ، وأن العرض يقبلها فلو بنينا على زعم قومنا ، لزم أن تنفذ فى ذلك الذى لا يقبل القسم ، إرادة واحدة ، وقدرة واحدة . فمن لم تنفذ إرادته وقدرته فعاجز ، فليس بإله . وإن لم تنفذ إرادتهما وقدرتهما فعاجزان ، والإله لا يوصف بالعجز ؛ لأن العجز إما قديم وهو محال ، بأدائه إلى استحالة اتصاف الإله بالقدرة . وفى اتصافه بها مع العجز ، لزم اجتماع الضدين .

وإن اتصف بها بعد عدم العجز ، لزم عدم ما ثبت قدمه . وإما حادث وهو محال ؛ لأنه إذا كان حادثا فضده وهو القدرة قديمة . وإن اتصف بالعجز مع وجود القدرة ، لزم اجتماع الضدين ، وإلا لزم عدم القديم كما مر آنفا . والعجز فى الحى نقص ، ويلزم على اصطلاح الإلهـين عجزهما واحتياجهما أو عجز أحدهما واحتياجه ؛ إذ ليس أحد يطلب الصلح أو يرضى به إلا لجر منفعة ، أو دفع مضرة ، أو لعجزه عن القيام بالكل .

وإن قلت : فليقسم العالم بينهما قسمين ، كل واحد قادر على قسم .

قلت : الإله يجب عموم إرادته وقدرته . فإذا عمت لزم تعلق إرادة كل وقدرته لكل ممكن ، فيلزم التمانع بينهما .

وأيضا أحد النوعين الذى تعلقت به إرادة أحدهما أو قدرته ، إن ماثل للنوع الآخر الذى هو مقدور الإله الثانى ومراده ، لزم عموم قدرة كل منهما وإرادته النوعين ، ضرورة أن القادر على أحد المثلين قادر على مثله . وإن كان أحدهما جسما والآخر عرضا ، فهو محال من وجهين :

أحدهما : أن الجواهر والعرض لما لم يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، استحال تصور القدرة على أحدهما بدون الآخر .

ثانيهما : أن التمانع لا ينتفى بذلك ، على تقدير تسليمه ؛ لأنه من الجائز أن يريد أحدهما وجود الجواهر ، والآخر عدم العرض ، أو بالعكس . ونفوذ الإرادتين مستحيل ، فيلزم عجزهما ، أو عجز أحدهما .

وأيضا اختصاص أحد الإلهين بنوع دون نظيره ، يلزم فيه التخصيص من غير مخصص ؛ إذ ليس اختصاص أحدهما بنوع بأولى من اختصاص الآخر به ، فإن فرض ثم مخصص لها بما اختصا به لزم حدوثهما . وهذا التخصيص لو كان باختيارهما لأمكن منهما تركه ، بأن يتصرف كل فى مقدور الآخر ومراده . والتالى باطل للزوم التمانع ، فالمقدم وهو كون التخصيص باختيارهما باطل ، فا تخصيص إما من الغير، فذلك تخصيص بلا مخصص أو منهما ، وكل ذلك محال ولو تعدد الإله ، فإما بتعدد الممكنات وهو محال لما فيه من وجود ما لا نهاية له .

وإن قلت : لا يلزم وجود ما لا نهاية له ؛ لأن المراد بالممكنات ما سبق به قضاء الله لا كل ما يمكن فى العقل .

قلت : يلزم وجود الممكنات التى لا توجد مستحيلة بل الممكنات التى توجد لا نهاية لها ، كنعيم الجنة ، وعذاب النار . وفى التعدد بقدر الممكنات تأخر بعض الآلهة عن بعض ، وإما لا يتعدد الممكنات وهو محال ، لاستلزام الجواز والحدوث ،

لافتقار وجود الآلهة على عددها المخصوص، دون غيره من الأعداد المتساوية عقلا بالنسبة إليها إلى فاعل مختار، وإلا لزم ترجيح أحد المتساويين بلا مرجح.

وإن قلت: يلزم مثل ذلك في الوحدة لأن وجوده على ذلك دون تعدد يفتقر إلى مخصص.

قلت: قام البرهان على أن الإله واجب الوجود ولا يتحقق الوجود دون ذات واحدة. والزائد منها مستغن عنه. وفي الآية إيراد حجة للمطلوب. يسمى ذلك المذهب الكلامي.

الإعراب: مجموع إلا الله نعت آلهة. والإعراب على آخر الجزأين والجزء الأول حرف، وهو إلا. قال السعد: إجماعا وأجاز الدماميني أن تكون وحدها نعتاً، وأنها اسم، نقل إعرابها لما بعدها، لكونها على صورة الحرف

والمعنى على كل حال: لو كان فيهما آلهة مغايرة لله، أي انتفى عن كل واحد منهما أن يكون هو الله تعالى. ولذا صح وصف ذلك الجمع المنكر بقوله: إلا الله وليست إلا للاستثناء؛ لأن المعنى حينئذ: لو كان فيهما آلهة إلا الله لم يكن فيهما لفسدتا.

ومفهوم هذا المعنى أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسد، أو ليس كذلك؟ فإن الفساد يترتب على تعدد الآلهة مطلقا.

وأيضا آلهة جمع منكر في الإثبات، فلا عموم له، فلا يصح الاستثناء منه.

ولو قلت: قام رجال إلا زيد لم يصح، خلافا لبعض الأصوليين، فإنه أجاز استعماله عاما.

وأجاز المبرد أن يكفي في الاستثناء صحة التناول، بل لابد من التناول بالفعل. وعليه فيصح المثال.

والتحقيق أنه يعتبر دخول زيد فى الرجال ، وأنه واحد منهم على معنى قام رجال فيهم زيد ، لكن لم يقم . وأما « إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط » فالاستثناء منقطع ، أو متصل ، على أن المراد بالقوم المجرمين : قوم لوط كما قال : « إنا أرسلنا إلى قوم لوط » ولكن الحكم بالإجرام حكم على المجموع .

وقال المبرد : « إلا » فى الآية للاستثناء وما بعدها بدل ، محتجا بأن لو تدل على الامتناع ، وامتناع الشىء انتفاؤه . وزعم أن التفريغ بعدها جائز ، وأن نحو لو كان معنا أحد إلا زيد أجوز كلام . انتهى .

وقد مر عنه أنه يكتفى بصحة الدخول ، وإن لم يدخل بالفعل ، لكن التحقيق عند الأصوليين أن دلالة الجمع المستغرق على الواحد بالمطابقة ، وأن أفراد الجمع آحاد .

ويرد كلام المبرد فساد مفهومه ـ كما مر ، وأنه لايقال : لو جاءنى ديار لأكرمته ، بذكر ديار المختص بالنفى بعد لو ، ولو جاءنى من أحد أكرمته ، باستعمال أحد ، وهو مثل ديار بعدها ، وبزيادة مِن وهى تزاد بعد النفى ونحوه . ولو كان امتناع « لو » قائما مقام النفى لصح أن يقال ذلك ، كذا فهمت من كلام ابن هشام .

ويجاب بأن الاستثناء يوسّع فيه . ألا ترى وقوع التفريغ بعد أبَى والاستفهام الإنكارى ، نحو : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » « ومن يغفر الذنوب إلا الله » كما أشار إليه فى التوضيح وغيره .

وقال الشَّلَوْبين وابن الصائغ : لايصح المعنى حتى تكون إلا بمعنى غير التى يراد بها العوض والبدل .

ويرده أن المفهوم حينئذ أنه لو كان فيهما آلهة ليست بدلا من الله بل هو معها لم تفسدا ، وهو باطل ، إلا إن اعتبر مفهوما آخر، هو أنه لو لم تكن فيهما آلهة بدلا من الله ، بل كان الله وحده لم تفسدا ، وإذا امتنع الاستثناء امتنع الإبدال لفرعيته عليه ، واشتراط كونه من غير موجب .

(فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) عما يصف المشركون ، من الشركة أو الجحود ، ومن الولادة والزوجة .

قيل : العرش : جسم عظيم محيط بجميع الأجسام ، كيف يوصف خالقه ومالكه بتلك النقائص

وقيل : العرش : الكرسى .

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) من إيجاد وإعدام ، وإعزاز وإذلال ، وإسعاد وإشقاء ، وإضلال وهداية ، وغير ذلك سؤال رد . وذلك لعظمته وسلطانه وتفرده بالألوهية ، وكل ما فعل فهو على حكمة . وذلك على ظاهره ، أو كناية عن كونه فى غاية العظمة والملك والحكمة والإتقان ، وليس فى فعله خلل فضلا عن أن يرد عليه .

(وَهُمْ يُسْأَلُونَ) عما يفعلون ؛ لأنهم مملوكون مستعبدون يخطئون ، سؤال توبيخ وسؤال تقريع والضمير للناس كلهم والمشركين؛ فإنهم سألوا سؤال توبيخ على ما قرر فى غير هذه الآية ، أو للآلهة المعبودة فتقول الملائكة وعيسى وعزير والأصنام : لم نرض عبادتهم ، وإنما خلقتهم . ويجوز سؤال عالم عن شىء على جهة الاعتبار ، لا على جهة التفكر فى الخالق ، ونحوها .

روى أن موسى عليه السلام قال : يا رب إنك عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت . ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت مع ذلك تعصى .

فأوحى إليه : لا أسأل عما أفعل ، وهم يُسألون . هذا مخزون علىّ ، فلا تسألنى عنه . فأعاد السؤال .

فقال له : لا أسأل عما أفعل .

فأعاد فقال له : هل تقدر أن تصرّ صرة من الشمس ، وتقدر على رد أمس ؟

فقال : لا يارب .

فقال له : فقد نهيتك عن السؤال عن هذه المسألة . فإن عدت إليه ، جعلت عقوبتك محو اسمك من أسماء الأنبياء أو النبوة ، فلا تذكر إذا ذُكروا . فكف عن السؤال عنها .

وسأل عنها عيسى أيضاً ، فأوحى إليه : أن عزيرا سألنى عن هذه المسألة ، فكان من أمره كذا وكذا ، فكفّ عيسى أيضاً — عليهم السلام .

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) مثل الذى مر ، وأعاده استعظاما لكفرهم ، وليطلب عليه منهم الحجة بقوله :

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) على ذلك من العقل أو النقل ؛ إذ لا يصح قول بلا دليل . كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلا ونقلا ، أو الأول بمعنى : هل وجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة ، لما وجدوا من خواص الألوهية ، وأعقبه بما يدل على فساده عقلا ، وهو قوله : « لو كان » الخ والثانى بمعنى هل وجدوا آلهة فى الكتب الإلهية فاتخذوهم ، وأعقبه بما يدل على فساده نقلا ، وهو « قل هاتوا » الخ .

(هَـٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) أمتى وذكرهم القرآن (وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) من الأمم . وهو التوراة والإنجيل وغيرها ، وهل وجدتم فى واحد منها إلهاً آخر . والإشارة إلى جميع الكتب ، جعلت كأنها شىء شىء حاضر محسوس ، أو إلى القرآن ؛ فإنه متضمن ما فى غيره ، وما فيه كان فى الكتب السابقة .

وقيل : مَن معى : مسلمو أمتى ، ومَن قبلى : مسلمو الأمم .

وقيل : المراد بذكر مَن قبلى : التوراة والإنجيل .

وإنما أضيف الذكر إلى مَن معه ومَن قبلى ؛ لأنه عظتهم أو شرفهم .

وبعث الرسل يمكن عقلا مع التوحيد ، ومع التعدد . وكذا إنزال الكتب فصح الاستدلال بالنقل .

وقرئ بتنوين الذكرين ، فمَن بعدها مفعول به . وذلك من إعمال المصدر المنون ، جعله جار الله أصلا لإضافة المصدر لمعموله .

وقرئ بتنوينهما وإسقاط الميم بعدها ، فذلك جرٌ لمع . وقيل : بمن وإدخال من الجارة على مع غريب .

وقرئ بتنوينهما وإسقاط مَن ، والظرفان نعت للذكرين .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) هو توحيد الله ، لا يميزونه من الباطل وهو الشرك . كذا قيل .

والتحقيق أن المراد ماهية ما هو حق ، فينتج منه أنهم لا يعلمون هذا الفرد العزيز الذى هو التوحيد الذى تضمنته الماهية

ويجوز أن يكون الحق مفعولا لمحذوف ، أى أمدح الحق ، وهو التوحيد ، أو مفعولا مطلقا ، أى حق التوحيد الحق الكامل .

وقرئ بالرفع ، أى الممدوح الحق ، وهو التوحيد ، أو التوحيد الحق ، أو الحق التوحيد . وعلى النصب بمحذوف والرفع ، تكون الجملة معترضة لتأكيد بين السبب الذى هو عدم العلم ، والمسبب الذى هو الإعراض المشار إليه بقوله : (فَهُمْ مُعْرِضُونَ) عن التوحيد واتباع الرسل والكتب

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ) وقرأ حفص وحمزة والكسائى نوحى بالنون وكسر الحاء (أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وهذا

تكرار لقوله «هذا ذكر مَن معى وذكر مَن قبلى» تأكيدا . وإن أريد بالذكرين القرآن والتوراة والإنجيل فهو تعميم بعد تخصيص كذا قيل .

والظاهر جواز كونه تكريراً وتأكيداً أيضاً على هذا ، نظراً إلى أن الثلاثة متضمنة لسائر الكتب . وكذا إن أريد بالذكرين معاً القرآن والكتب ولو كانت أقل من الرسل ، لكن مَن لم يكن له كتاب منهم يجرى على كتاب مَن قبله أو معه .

والواو للرسل نظراً للمعنى ؛ لأن المعنى : وما أرسلنا قبلك الرسل إلا يوحى إليهم أنه الخ ، أو الواو للكفرة ، أو للناس ، أى إذا قام عندكم دليل التوحيد فاعبدون ، أى أطيعونى ، أو وحدونى .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) نزلت فى خزاعة قالوا : إن الملائكة بنات الله .

وقيل فى طائفة من اليهود قالوا : إنه تعالى صاهر الجن ، فكانت منهم الملائكة . وقالت اليهود : عزير ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابنه .

(سُبْحَانَهُ) تنزيه عن الولادة ومقدماتها .

(بَلْ عِبَادٌ) أى بل هم عباد . وإنما جمع لأن الولد يطلق على الثلاثة فأكثر كما يطلق على أقل .

(مُكْرَمُونَ) مفضلون على غيرهم لما فيهم من أحوال وصفات ليست فى غيرهم ، لا لأنهم أولادى وإنما هم خلق خلقتهم بقدرتى للعبودية والخدمة ، والولادة تنافى العبودية .

وقرئ بفتح الكاف وتشديد الراء .

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) لا يقولون شيئاً قبل أن يقوله ، وهم بهذا فى غاية الأدب . والسبق إنما هو للقول ، أى لا يسبق قوله ، ولكن أسند إلى الذات

استهجانا له . وإنما أنيب أل عن الضمير اختصارا وتجافيا عن تكرير الضمير ، فإنه لو قيل : لا يسبقونه بقولهم ففيه ضميران : الواو والهاء المتصل بها الميم لواحد .

وقرئ بضم الياء دلالة على غاية للفاخر ، أى ليس من شأنهم ادعاء السبق ومداناته . ولك أن تقول : أل للحقيقة .

(وَهُمْ بِأَمْرِهِ) بإذنه لا بغيره ، متعلق بقوله : (يَعْمَلُونَ) لا يعملون إلا ما أمرهم به كما لا يقولون إلا بما قال .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما قدموا ؛ لأن ما وقع كأنه شىء حاضر بين الأيدى ولو مضى وانقطع ، من حيث إنه موجود .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) ما أخروا ، ويصح العكس ، فلإحاطة علمه بهم ، راعوا أحوالهم ، وحفظوا أوقاتهم ، لخوف العقاب ، وللإجلال .

قول : ما قبل خلقهم وما بعده .

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) إلا لمن رضى الله أن يشفعوا له مهابة منه ، فهو لموافقة المجرد ، أو الزيادة للمبالغة . فإذا كان مرضيا عند الله فشفاعتهم إنما هى تعظيم ، وزيادة ثواب من الله بواسطتهم ، قد سبق به القضاء .

(وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ) مهابته (مُشْفِقُونَ) من للابتداء ، أو للتعليل . والخشية : أصلها الخوف مع التعظيم ، ولذلك خص بها العلماء ، والإشفاق : احتراق القلب من الفزع وشدة توقع المكروه .

وعن بعض : الإشفاق : خوف مع اعتناء ، وأنه إن عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، أو بعلى فبالعكس . رأى ﷺ ليلة الإسراء جبريل ساقطا كالحلس من خشية الله سبحانه .

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ) أى من الملائكة : (إِنِّى) وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو (إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ) أى إله غير الله .

(فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) هذا تقبيح لأمر الشرك ، وتهديد للمشركين . وقد سبق فى علمه أنهم لا يشركون ، فإنهم جُهلوا جَبْل من لا يعصى .

وزعم بعضهم أن المراد بمن يقل إبليس ، وأنه منهم ، أو من بينهم ؛ لأنه فيهم قبل إظهار شقائه . ورُدّ بأنه لم يَرِدْ قط أنه ادعى الربوبية .

قلت : بلى ، فإنه كثيرا ما يقول للناس : اسجدوا لى ، كما روى عنه ـ لعنه الله ـ مع امرأة أيوب . وكثيراً ما يدخل فى جوف الصنم ويتكلم ، فيُعبد الصنم على رسمه إلى غير ذلك . وقد قال الشيخ إسماعيل : إنه يدعو إلى عبادة نفسه فانهم

وقيل : المراد من الجملة : الخلق .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ) من ظلم بالإشراك ، بادعاء الربوبية من غير الملائكة ، أو كذلك نجزى من ظلمه غير ذلك الإشراك الذى هو ادعاء الربوبية ، بل شرك آخر ، وكبائر أخرى ، من الجملة : الخلق .

قال بعضهم : تقرأ من قوله جل وعلا : « وما أرسلنا من قبلك مِن رسول إلا نوحى ـ إلى ـ الظالمين » سبع مرات لتعم الجهار ، على تراب مجموع من قبر مسلم ونصرانى ويهودى ومجوسى ومن بيت جبار قديم ومِن دار خراب ودار خراب موقوف وترش التراب فى منزله كل أربعاء من آخر الشهر حتى تتم السنة أو تتكفيها وترش بمائها منزله كذلك .

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أو لم يعلموا . وقرأ ابن كثير بإسقاط الواو . (أَنَّ السَّمَٰوَاتِ) أى هذه الجملة التى هى سموات ، ولذا قال: كانتا ولم يقل: كنّ .

(وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) ذاتَىْ رتقٍ ، أو مرتوقتين ، أو أخبر بالمصدر مبالغة . والرتق : الضم . كانت السموات شيئا واحداً والأرض شيئا واحداً .

(فَفَتَقْنَاهُمَا) سمٰوٰتٍ وأرَضينَ ، أو كانت السمٰوٰت متصلات ، كورقة على ورقة ، والأرضون كذلك ، فرفعت كل عن الأخرى ، أو كانت السموات ملقاة على الأرض ، فرفعت ففتقت ، أو كانت السموات والأرضون شيئاً ، ففتق سموات وأرضين ، وهو قول ابن عباس .

وعن كعب : كانتا ملتزقتين ، فخلق ريحاً بوسطها ففتحها .

وقيل : معنى كون السمٰوٰت رتقا لا تمطر ، بناء على أن السمٰوٰت كلها لها مدخل فى الإمطار ، أو المراد السماء الدنيا ، وجمعت باعتبار الآفاق . ومعنى كون الأرض رتقا لا تنبت، ففتقهما بالإمطار والإنبات، وهو قول الكلبى . ولم أبحث عن أصحاب الأقوال السابقة .

وعن الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد . ولذا قال : كانتا بناء على قول الكلبى ، وفتقت بعد الرفع قبل ويناسب قول الكلبى : وجعلنا من الماء كل شىء حى

وقالت فرقة : كانتا رتقا بالظلمة ، ففتقهما بالضوء .

قيل : والرؤية على هذين القولين : قول الكلبى وقول الفرقة : رؤية عين .

قلت : لا تكون بالعين بل بالقلب ، فإنهم لم يكونوا موجودين فى حال كونهما ظلماوين ، ولا فى حال كون السماء لا تمطر ، والأرض لا تنبت .

والمراد : ألم يعلموا أن الأمر قد كان كذلك ؟

وإن قلت : من أين علم الكفرة ذلك حتى قال : « أو لم ير الذين كفروا » ؟

قلت : ما قال ذلك إلا بُعَيْد إنزال ما يعلمون به ذلك فى القرآن . والقرآن معجزة يوجب العلم ، أو بعد ما علموا ذلك من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل بواسطة علمائها ، أو قال ذلك لأن لهم نظراً يوصلهم إلى ذلك لو استعملوه ؛ فإن العقل كون السموات والأرض متصلتين ، وكونهما منفصلتين ، فلا بد من كونهما على أحد الشقين ، وهو الانفصال من مختار مخصّص .

هذا . ولك أن تجعل الرؤية مطلقا رؤية بصر ، جُعل ذلك كأنه شىء محسوس لقوة الدلالة .

وقرئ رتقا ، بالفتح للراء والتاء معا ، أى شيئا مرتوقا كالرفض بمعنى المرفوض .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الجعل بمعنى الخلق ، فله مفعول واحد أى خلقنا من الماء كل شىء حى .

معنى خلقه منه : أنه جعل الماء أعظم ما بنى عليه ؛ فإنه مخلوق من النطفة . والنطفة إنما هى من ماء وطعام ، والطعام إنما هو من الماء ، وبعد خلقه يحتاج إلى ما يتقوت به ، ولا قوت إلا من الماء ويحتاج إلى الماء نفسه للشرب وغيره ، احتياجا شديداً ، ولا يكاد يصبر عنه ، فكأنه مخلوق منه بعينه لذلك ، ولكونه لا يحيى إلا به ، كقوله : « خُلق الإنسان من عجل » ودخل فى الشجر والنبات ، فإنها خلقت بالماء ، وبه تحيى .

وأيضا خُلق أبونا وتراب .

وقيل : والنخل بقية من طينته . فالحيوان كله من الماء ولو اختلفت خلقته منه .

وقيل : الماء : النطفة فالحى : الحيوان : الإنس والدواب إلا آدم وعيسى ـ قيل : والجن ، وإبليس ـ أبعده الله .

والحق أن الجن منهم مَن يُخلق من النطفة ، بل هو غالبهم . والملائكة أحياء لا من ماء ، ولا بماء ، ولا من نطفة ؛ وقرائن الخروج ما أخرجناه من العموم واضحة .

وعن أبى هريرة : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

فقال : كل شىء خُلق من الماء .

فقلت : نبئنى بما إذا أخذتُ به دخلتُ الجنة .

فقال : أفشِ السلامَ ، وأطِبِ الكلام ، وصِلِ الأرحام، وقم بالليل والناس نيام ، تدخل الجنة بسلام .

ويصح كون جَعَل تصييرية ، فمن الماء مفعول ثان ، وحىّ نعت كل شىء ، أو كل على كل حال .

وقرئ بنصب حى نعتا لكل ، أو مفعولا ثانيا لجعل التصييرى ، فيكون من الماء متعلقا بجعل .

ويصح أيضا تعليقه بحيًا إذا جعل مفعولا ثانيا . ويبعد كون حى بالجر نعتا لكل وجر للمجاورة .

وإن قلت : إذا كان حيا مفعولا ثانيا عم الشىءُ الحيوانَ وغيره .

قلت : لا يعم إلا ما هو حى ، فإن ما هو كالحجر لا يتوهم أنه مجعول حيا .

قال ابن هشام : أل فى الآية للحقيقة ، لا تخلفها كل ، لا حقيقة ولا مجازا .

وبعضهم يقول فى أل التى للحقيقة : إنها لتعريف العهد ؛ لأن الأجناس أمور معهودة فى الأذهان متميز بعضها عن بعض اه .

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) مع ظهور الآيات ، ماء أبيض ، أو أصفر يكون منه أبيض وأصفر وأسود وغير ذلك ، وماء ينزل من السماء أو يخرج من الأرض شفاف ، ولا لون له تتكون به ألوان وأجسام كثيرة . وفى ذلك توبيخ وإنكار عدم صلاح أمرهم .

قيل : يكتب « أو لم ير الذين كفروا - إلى - أفلا يؤمنون » مريم ولدت عيسى سبحان الله بعد عسر يسرا اخرج كما فتقت الأرض بالنبات ، والسماء بالمطر ، فكذلك يسِّر مفلاة بنت فلانة الوضع .

فينظر الإنسان - إلى قوله - شفاءٌ ، لتسهيل الولادة ، أو يقرأ الآية على بطنها أو أسفل ظهرها . وإن ذلك مجرب صحيح .

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ) جبالا ثابتات ، من رسا بمعنى ثبت .

(أَن تَمِيدَ) مفعول لأجله ، على حذف مضاف ، أى كراهة أن تميد ، أو حَذَرَ أن تميد .

ومعنى حذر الله : المنع . واشتهر فى كتب التوحيد أن الله لا يوصف بالحذر ، وتأويله بالمعنى الذى فى الحروف ، للإيهام . فافهم ، أو تقدر لا النافية ، بعد أن ولام التعليل قبلها . أى لئلا تميد ، لعدم الإياس ، كما زيدت لعدم الإلباس فى لئلا يعلم على أحد وجوه . وبه قال ابن هشام : تعسف ، لحذف شيئين . والحق أنه لا تعسف بذلك . أما اللام لحذفها شائع كثير جدا ، وأما لا لحذفها لدليل كسائر المحذوفات لدليل . والأول قول البصريين .

قال : وقيل : أنْ بمعنى اللام ولا وهو خطأ . والميد : التحرك . قيل : إن الأرض بُسطت على الماء ، وكانت تتحرك كالسفينة فى الماء ، فأرساها بالجبال .

(بِهِمْ) فلو كانت تميد بهم لم يستقروا منها ، ولم يتمكنوا فيها .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا) فى الأرض ، أو فى الرواسى ، أو فى الجميع ، إما لأن الرواسى لما جعلت فيها كانت منها ، وإما لذكرها كما ذكرت الأرض .

(فِجَاجًا) مسالك واسعة ، ففيه معنى الوصف . والمفرد فج ، ولا يختص بالجبل ، خلافاً لبعضهم ، وهو مفعول جعلنا .

(سُبُلًا) بدل منه أى طرقا نافذة .

وفائدة هذا الإبدال تضمين الدلالة على أنه تعالى جعل فيها المسالك واسعة للسابلة ، أعنى لمن يمشى فى السبيل ، أى لمن يريد المشى فى السبيل . وفيه بعض توكيد ، أو فجاجا حال من سبلا ولو كان سبلا نكرة ، لتقدم الحال . ولو تأخر فتكون صفة . قيل : ليدل التقديم على أنه حين خلقها ، خلقها واسعة ، على صفتها الآن .

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) إلى مقاصدهم فى الأسفار وغيرها . ولعل للتعليل ، فى الأظهر .

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) عن الوقوع بقدرته ، وعن الفساد والانفطار والانحلال ، وعن استراق السمع .

وقيل : المراد الحفظ عن الوقوع .

وقيل : عن الاستراق . وذلك إلى أجل قد قرب يا أخى ، كأنك بذلك السقف ذاب ووقع .

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا) الدالة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال قدرته وحكمته ، من شمس وقمر ونجوم ومسائرها ومطالعها ومغاربها ، على حساب قويم وترتيب عجيب .

(مُعْرِضُونَ) لا يستدلون بها على الواحد ولا يعتبرون .

وقرئ عن آيتها بالإفراد والإضافة للاستغراق ، فهو بمنزلة الجمع أو جُعلن كأنهن حجة واحدة .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) بعضٌ من تلك الآيات . قدم الليل لسبق الظلمة على النور .

وقدم الشمس لأن نور القمر منها وأقرب الأرض إلى السماء بيت المقدس ه بينهما اثنا عشر ميلا . وأبعد الأرض منها أيلة . والسماء كالقبة ، والشمس والقمر لم يلزقا بسمائهما ، بل كل فى فلك دون سمائه ؛ لقوله : (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يمشون بسرعة ، كما يسبح الإنسان فى الماء ، ووجوههما إلى السماء ، يضيئان فى السماء ، كما يضيئان فى الأرض ، قيل : الشمس فى الصيف فى الخامسة ، وفى الشتاء فى السابعة . وتكلمت فى غير هذا الموضع .

قال مجاهد : السباحة : الدوران كفلكة المغزل .

وعن بعض : كالطاحونة .

وعن بعض : يجرون .

وعن بعض : يسبحون فى طاحونة .

وعن بعض : إن الفلك : الجسم الدائر دورة اليوم والليلة .

وقيل : موج مكفوف .

وعن بعض : الفلك : هو السماء .

وقيل : جسم مستدير دون السماء . والجدى كحديدة الرحى .

وزعم بعض أن الفلك جرم صلب لا ثقيل ولا خفيف ، لا يقبل الخرق والالتئام والسمو والدنو ، وهو قول باطل . والمراد لكل الشمس والقمر . وفلك

جنس . و« فى » متعلقة بيسبحون ؛ ويسبحون خبر ، أو بمحذوف خبر ، ويسبحون خبر ثان ، أو حال من ضمير الاستقرار .

وإنما عبر عن الشمس والقمر بضمير الجماعة ، باعتبار تعدد طلوعهما ، وكان الضمير واو العقلاء ؛ لأن السباحة من فعلهم ، فكأنه شبههما بالعاقل ، فعبر بالواو والسباحة . وجملة المبتدأ والخبر مستأنفة ، أو حال من الشمس والقمر فقط ، لأنهما السابحان لا الليل والنهار .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) فى الدنيا ولا أنت ولا هم إلا عرضة للموت. فكيف يتربصون موتك ويتمنونه ؟! نزلت حين قالوا : نتربص به ريب المنون قال الشاعر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

قال كعب :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

وروى أن أبا ركان الأعمى قد انقطع إلى آل برمك ، ولما أمر الرشيد بقتل يحيى بن جعفر ، ودخل عليه القاتل ، فوجد عنده أبا ركان الأعمى يغنيه :

فلا تحزن فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى

فقال : فى هذا ، والله أتيناك . ثم أمسك بيد جعفر ، فأقامه ، وضرب عنقه .

فقال أبو ركان : ناشدتك لله إلا ألحقتنى به .

فقال له : ما الذى حملك على هذا ؟

قال : أغنانى عن الناس .

فقال : حتى أستأمر أمير المؤمنين ، وأخبره بخبره

فقال : هذا رجل فيه مطمع اضممه إليك . وانظر ما كان جعفر يجريه عليه ، أجره عليه .

(أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ) الهمزة لإنكار الخلود ، وهي مما بعد الفاء العاطفة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ) ولا يبقى إلا الحى الدائم . والذوق عبارة عن مقدمات الموت ، أى ذائقة مرارة الموت . وفى ذلك موعظة بالغة .

وكان الثورى إذا ذكر الموت لا يُنتفع به أياما . وكثرة ذكره تردُّ عن المعاصى ، وتلين القلب القاسى

قال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حَذِرًا من الموت ، حزينا من أجله . وطول الأمل يكسل عن العمل ، ويورث التوانى ، ويُميل إلى الهوى . وهذا مشاهد بالعيان ، لا يحتاج إلى بيان ، يطالَب صاحبه ببرهان .

ولما دنا الموت من معاوية قال : الموت لا مَنْجَىً من الموت . والذى يحاذَر بعد الموت أدهى وأعظم . ثم قال : اللهم أَقِل العثرة ، واعف عن الزلّة وعد على مَن لم يرج غيرك ، ولا يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة مهرب منك .

وقيل لأعرابى : إنك تموت .

فقال : إلى أين يُذهب بى ؟

قالوا : إلى الله تعالى .

قال : ما أكره أن أذهب إلى مَن لا أرى الخير إلا منه .

وأوصى علىّ أباذر ـ رضى الله عنه ـ : زُر القبور ، وتذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، واغسل الموتى ، وصلِّ على الجنائز ، لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين فى ظل الله .

ودخل ملك الموت على داود فقال : مَن أنت ؟

قال : الذى لا يهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولا يقبل الرشا ..

قال : فأنت إذًا ملك الموت ، ولم أستعد بعدُ .

قال : يا داود أين جارك فلان ، وأين فلان قريبك ؟

قال : ماتا .

قال : أما كان فيهما عبرة لتستعد !

وأجمعت الأمة أن الموت ليس له زمان معلوم ولا مرض معلوم . فليكن المرء على أهبة من ذلك .

فبينما حسان جالس وفى حجره صبى يطعمه الزبد بالعسل، إذ شرق الصبى بهما فمات فقال :

اعمل وأنت صحيح مطلق فرح ما دمت – ويحك يا مغرور – فى مهَل
ترجو حياةَ صحيحٍ ربما كنتْ له المنيــــة بين الزبد والعسل

وسمع أبو الدرداء رجلا يقول فى جنازة : مَن هذا ؟

قال : أنت . فإن كرهت فأنا .

وكان يزيد الرقاشى يقول : أخبرونى مَن كان الموت موعده ، والقبر بيته . والثرى مسكنه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ! ثم يبكى حتى يغشى عليه .

(وَنَبْلُوكُمْ) نعاملكم معاملة المختبر (بِالشَّرِّ) ما تكرهه النفس ، كالفقر والذل .

(وَالْخَيْرِ) كالغنى والعز، هل تصبرون وتشكرون أم لا ؟

وقدم الشر لأن العرب كا تقدم الخير تقدم الشر وذلك من عادتها ، ولأن الشر يتبادر إلى النفس أن الابتلاء به أشد .

(فِتْنَةً) مفعول مطلق ، كقعدت جلوساً .

وقيل : مفعول لأجله . وفيه أن الشيء لا يعلل بنفسه إلا إن أريد بالفتنة الإيقاع في الضر لا الاختبار .

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) للجزاء الذي هو المقصود بالابتلاء في هذه الدنيا .

(وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ) ما (يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) أي ذا هزو يستهزئون به ـ أو مهزوءاً به ـ أو حكم بأنه عندهم نفس الهزؤ مبالغة .

قيل: نزلت في أبي جهل مرّ به ﷺ فضحك وقال: هذا نبي بني عبد مناف

(أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) مفعول لمحذوف ، أي يقولون على جهة الإنكار والهزؤ ، هذا الذي الخ ، أو مفعول للهزؤ ؛ فإنه سخرية باللسان .

والمراد بالذكر : الذكر بالعيب ، لدلالة الحال أن العدو إنما يذكر عدوه بالسوء . ومثله : « سمعنا فتى يذكرهم » تقول العرب : سمعت فلاناً يذكرك . فإن كان صديقاً فالذكر بخير ، أو عدواً فبشر أورد المسند إليه اسم إشارة للتقريب تحقيراً له .

(وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ) هم الثاني تأكيد للأول . والذكر : القرآن ، أو التوحيد ، أو إنزال الكتب وإرسال الرسل ، أي منكرون لذلك .

وهم أحق بالهزؤ ، حيث عكفت هممهم ، وقصرت على ذكر آلهتهم بما لا يجوز ذكرها به ، من كونها شامة ، ويسوؤهم أن يذكرها ذاكر بغير ما يذكرونها به ، وكفروا بالرحمن جل وعلا ، بل بذكره .

أو المعنى أنه غاظهم ذكرك آلهتهم بالسوء ، والله قد ذكرهم أنفسهم أعينهم بالسوء لإشراكهم ، وهم لا يصدقون بذكره لهم بالسوء غافلون . والجملة حال من واو يتخذونك .

وقيل: أنكروا تسمية الله جل وعلا بالرحمن وقالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، وهو مسيلمة. فنزل ذلك.

وإن قلت: إذا كان م الثانى تأكيداً للأول، فهلا اتصل به؟

قلت: مجافاة عن تكرير اللفظ فى محل واحد. وكثيرا ما يكون التكرير للفصل نحو: فيك زيد راغب فيك.

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ) الجنس: آدم ومن دونه.

(مِنْ عَجَلٍ) هو كثير العجلة، مَرِطٌ فيها، حتى كان مخلوقا منها، كما تقول فى مبالغة كرم زيد: إنه مخلوق من الكرم ومن عجلته مبادرته إلى الكفر، واستعجال العذاب.

وقد قيل: إنها نزلت فى النضر بن الحارث، حين استعجل.

وقيل: الإنسان: آدم: خلق عجولا. وكانت ذريته كذلك.

وعن مجاهد: خُلق آخرَ الساعة من يوم الجمعة، فلما دخلت الروح عينيه ورأسه ولم تبلغ أسفله، قال: ربى استعجل بخلقى قد غربت الشمس. وكان خلقه بعد سائر الأشياء.

وروى أنه لما دخل الروح عينيه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل جوفَه اشتهى الطعام، فأراد القيام قبل أن تبلغ إلى رجليه عجلا إلى ثمار الجنة فوقع.

وعن ابن عباس: بلغت الروح صدره فأراد القيام.

وقيل: المعنى: أنه خلق بمرة على غير قياس بنيه، فإنهم نطفة فعلقة فمضغة وهكذا.

وعن بعض: أن فى الآية قلبا، أى خلق العَجَل من الإنسان، كما قرئ به.

وقيل: العَجَل: الطين بلغة حمير قال الشاعر:

والماء فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعَجَل

قلت : الظاهر أن البيت مصنوع ولكن فى القاموس : العجل - بالحركة أو بالسكون - : الطين أو الحمأ . والعَجَلة ولو خلق عليها الإنسان لكنه قد أعطى قوة يستطيع بها ترك العجلة ، فليس مكلفا بما لا يطيق .

وقرئ : خَلَقَ الإنسانَ ، بالبناء للفاعل والنصب .

(سَأُورِيكُمْ آيَاتِي) مواعدى بالعذاب ، كوقعة بدر ، ويوم القيامة ، وعذاب النار . وكانوا يقولون : متى هذا العذاب الذى توعدنا به فى الدنيا ؟ متى يوم القيامة وعذابها ؟

(فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) بالإتيان بها .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ) خطاب للنبى وللمؤمنين .

(صَادِقِينَ) فيه .

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ) ذكر الوجه من قدام ، وهو أعز الأعضاء الظاهرة ، وذكر الظهر من خلف .

والمراد أن النار تعمهم كلهم من خلف وقدام فإذا كانت لا تُمنع عن الوجه فأحرى أن لا تمنع من غيره . وجواب لو محذوف لدلالة المقام والسياق عليه . وحين مفعول يعلم بمعنى يعرف .

والمراد معرفة شدة ذلك الحين ، أى لو يعلمون ذلك الوقت الصعب الذى يغمسون فيه فى النار غمساً ، لا يقون أنفسهم عنها بشىء .

(وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) بالمنع منها ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال وجهلهم هو الذى هوّنه عندهم ، أو يعلم على بابه ، والمفعول الثانى محذوف ، أى لو يعلمونه صعبا ، أو لا مفعول له أصلا تنزيلا له منزلة التام ، أى

لو كان عندهم علم . وعليه فالوقف على كفروا وحين متعلق بمحذوف ، أى يعلمون ، أى ينتفى عنهم هذا الجهل ، ويعلمون أنهم على الباطل ، حين لايكفون . وأقام الظاهر وهو الموصول مقام الضمير إيذاناً بصلته بأن كفرهم هو الموجب لذلك الخزى . وإنما فصل بالنار بين الظهر والوجه ، ليكون ذكرها متصلة بالوجه أدعى إلى ترك الكفر .

وقيل : الأصل : لايكفون عن وجوههم النار ، ولا عن ظهورهم السياط .

(بَلْ تَأْتِيهِمْ) أى القيامة والساعة ، لدلالة السوق أو النار ، لتقدم ذكرها .

(بَغْتَةً) فجأة (فَتَبْهَتُهُمْ) تغلبهم وتحيرهم .

وقرأ الأعمش يأتيهم ويبهتهم ، بالمثناة التحتية ، والضمير للوعد أو للحين . ويجوز عوده إلى أحدهما فى القراءة الأولى ؛ لأن الوعد بمعنى العِدَة . والحين بمعنى الساعة . وقرئ أيضا بفتح الغين .

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) زعم بعضهم أنه يجوز عود ضميرى التأنيث بعد بغتة إلى فتة . وفيه رجوع الضمير إلى الحال وهو ضعيف . ومعنى بغتة : ذات بغتة ، أو باغتة ، أو لايؤول مبالغة .

ويجوز كونه مفعولا مطلقا لتأتيهم بمعنى تبغتهم ، أو لنعت محذوفا .

(وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) يمهلون بتوبة أو معذرة . فيه تذكير وإيماء إلى أنهم فى الدنيا فى إمهال ، لو انتفعوا به .

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) كما استهزئ بك ، فاصبر كصبرهم .

(فَحَاقَ) فنزل وأحاط (بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) وهو العذاب .

ويجوز وقوع « ما » على الأقوال التي يستهزئون بها على الأنبياء المرسلين ، على حذف مضاف أي جزاء ما كانوا الخ فسيحيق يا محمد بقومك المستهزئين ما حاق بهؤلاء .

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ) يحفظكم (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) أي من عذابه . والاستفهام إنكاري ، أي لا أحد يكلؤكم من عذابه لو نزل . والمخاطبون لم يخافوا العذاب أصلا لإنكارهم له ولفظ الرحمن للدلالة على أن تأخير العذاب من رحمته العامة ، و« من » متعلق بيكلؤكم .

ويجوز أن يكون النفي على التقرير ، أي من هؤلاء الذين هم من الرحمن يحفظونكم مما لم يقدر عليكم ؟

الجواب : إنهم ملائكة . والكفرة ولو لم يكن عندهم علم بذلك لكن من شأنهم أن يعلموه ويصدقوا به ، لكثرة الإخبار به .

وعن مجاهد : ما من آدمي إلا ومعه ملكان يحفظانه في ليله ونهاره ، ونومه ويقظته ؛ من الجن والإنس والدواب والسباع والهوام والطير ، كلما أرادوه بشيء قالا : إليك حتى يأتي القدر .

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) وذكره : أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه في القرآن والسنة ، لا يخطر ذلك ببالهم ، فضلا عن أن يخافوا عقابه .

(أَمْ) للإنكار (لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ) من العذاب (مِنْ دُونِنَا) أي غيرنا (لَا يَسْتَطِيعُونَ) الآلهة . وعبر عنها بالواو ؛ لأنها عندهم بمنزلة العاقل .

قال ابن هشام : وقد تستعمل الواو لغير العقلاء ، إذا نزلوا منزلتهم ، نحو : « يا أيها النمل ادخلوا » .

(نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ) فكيف ينصرونكم .

(وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) قال ابن عباس : لا يمنعون منا ؛ لأن المنع من لوازم الصحبة ومسبباتها .

وقيل : لا ينصرون منا . وعُدِّيَ على هذا بمن ؛ لأن النصر فيه معنى المنع .

وقيل : لا يصحبون منا بخير

وقيل : لا يصحبهم أحد منا ، أى لا يرسل إليهم شافعاً ، من ملك ، أو نبى ، فإنها تاتى معهم فى النار تعذيباً لهم بها لا لها .

وقيل : الضمير الأول للآلهة ، والثانى لعابديها

وقيل : كلاهما لعابديها ، لا يستطيعون نصر أنفسهم بآلهتهم ولا بغيرها ، ولا يصحبون منا .

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ) الكفرة ، استدراجاً بالصحة ، وطول العمر ، والمال ، والنعم .

(وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) أى ظهر لهم طوله ، فاغتروا بذلك ، وظنوا أن لا يزول عنهم .

وقيل : المراد طال عليهم العمر بلا مجىء رسول إلى أن جاءهم محمد وبل فى « بل تأتيهم » للانتقال إلى ما هو أعظم من عدم كفهم النار عن أنفسهم ، وهو كون وقت ذلك يأتى بغتة ، أو للإضراب عما يتوهم من بعده ، أو امتناع الوقوع .

والإضراب فى قوله : « بل هم عن ذكر » الخ ، والإضراب فى قوله : « أم لهم » إلى آخره ، هما عن الأمر بالسؤال على الترتيب ، فإنه عن المعرض الغافل عن الشىء بعيد . وإنما يسأل عن الشىء المقبل إلى ذلك الشىء العالم بحاله ، وعن المعتقد لنقيضه أبعد

والإضراب فى « بل متعنا » هو عما توهموا ، أضرب عنه ببيان ما هو الداعى إلى حفظهم ، وهو الاستدراج ، أو أضرب عن الدلالة على بطلانه ، ببيان

ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى متعهم بذلك ، فتوهموا أنه بسبب ما هم عليه ، وهو أصل كاذب كما قال : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتسليط المسلمين على أهلها الكفار ، يفتحها الله للنبي ﷺ وللمؤمنين ، ويزيل حكمهم منها ويطوى نشرهم .

والإتيان : الإرادة هنا والقصد ، كأنه قيل : نريدها بالنقصان . وننقص حال مقدرة . ولو قال : أفلا يرون أننا ننقص الأرض من أطرافها لصح ، لكن عبر بالإتيان تصويراً لما يجرى الله على أيدى المسلمين ، من أنهم يأتون أرض المشركين ويغزونهم ويغلبونهم ، أو كما يقول السلطان : قتلنا فى موضع كذا وكذا غالبين وإنما قتلت جنوده .

أو الأصل : يأتيها جنودنا ، فحذف المضاف فناب المضاف إليه ، فجىء بننقص موافقاً له ، والأصل : ينقصونها .

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لا بل الغالبون هم النبى ﷺ والمؤمنون بالقهر وموت رؤوس المشركين المستعجلين ، أفلا يصدقون بمحمد ؟!

وعن ابن عباس : ننقصها من أطرافها : إماتة فقهائها وعلمائها .

قيل : موت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد .

ومراد ابن عباس : الفقهاء والعلماء من الأمم السابقة يميتهم الله ، ويبقى الناس بلا دين ، ويطيل أعمارهم فى المعاصى ، وذلك استدراج شديد ، وهم المفرطون فى أخذ الدين ، حتى مات أهله . وليس ذلك ليكونوا غالبين ، بل ليموتوا كفرة على يد غالبهم ، وهو النبى ﷺ . والأول قول الحسن .

وروى عنه أن الله جل وعلا يبعث قبل القيامة ناراً تطرد الناس من أطراف الأرض إلى الشام ، تنزل إذا نزلوا ، وترحل إذا رحلوا ، وتقوم القيامة عليهم فى الشام ، وإن ذلك هو قوله : ننقصها من أطرافها . أفيظن المشركون أنهم

يغلبون هذا الأمر ، ويتنقصون منه كأنه قال : أفلا يعلمون ذلك ، وإن لم يعلموا فليعلموا .

(قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) بما أوحى الله إلىَّ ، لا من قِبَل نفسى .

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ) جمع أصم ، كحُمْر جمع أحمر .

(الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) شبه عدم العمل بما يسمعون بعدم السمع ، فاستعار له اسم عدم السمع ، وهو لفظ الصمم ، واشتق منه الصم . واستعير لهؤلاء الذين لا يعلمون ، ووجه الشبه عدم الانتفاع .

وقرئ بالبناء للمفعول من أسمع ، والصم مفعول أول نائب عن الفاعل .

وقرئ بضم الياء وكسر الميم ونصب الصم ، والفاعل ضمير الرسول ، أى إنما أنا رسول أنذركم بالوحى ، وليس على الرسول إسماع الصم الدعاء . وذلك من جملة المأمور بأن يقوله ، على القراءات الثلاث . ويحتمل أن يكون من كلام الله .

وقرأ ابن عامر بتاء مضمومة خطابا من الله جل وعلا لرسوله ﷺ وكسر الميم .

والمراد بالصم ، الكفار المذكورون ، فهو موضوع موضع الضمير ، للدلالة على أن الصمم سجية لهم يداومون عليها ؛ لأنه يعرض لأحد عدم السمع ، لنحو غفلة ، ثم يرجع يسمع ، والهمزة الثانية مسهلة إلى الياء ، ومنهم من يحققها كالتى قبلها .

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) أى وقعة خفيفة .

(مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا) للتنبيه أو للنداء ، والمنادى محذوف والويل : الهلاك .

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) بالإشرك وتكذيب النبى محمد . فإذا كانوا بهذا الضعف وعدم النصرة ، بحيث يصرخون هذا الصريخ بعذاب قليل ، فلمَ يجسرون على ما يوجب العذاب الشديد ؟!

وقد بالغ فى تقليل ذلك العذاب الذى يصرخون به ، بثلاثة أشياء : بالمس ، وبالنفح ، فإنه فى معنى القلة نفحته الدابة : رمحته يسيرا ، وبصيغة المرة

وعن ابن عباس النفحة : الطرف .

وقيل : المراد بها هذا النفحة التى يهلك الناس بها . وفيه أنهم إذا سمعوها لم يلبثوا قدر ما يقول ذلك ، إلا أن يقولوه بعد الموت ، أو يخطر فى قلوبهم ، فى ذلك الوقت الضيق .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) القسط : مصدر نعت به مبالغة ولذا أفرد كأنها لشدة قسطها نفس القسط ، أى العدل ، أو يقدر مضاف ، أى ذوات القسط ، أو يؤول بقاسطة ، بمعنى عادلة .

والحق عندنا ــ معشر الأباضية ــ أن وضع الموازين كناية عن إثبات الحساب فى المكلفين ، وجزائهم على أعمالهم ، أى يبالغ فى الحساب مبالغة شديدة كما قال :

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أى ظلما ، أو مفعول ثان لتظلم ، بمعنى تُنقَص ، أو تمييز محول عن النائب على هذا المعنى ، أى لا ينقص شيء نفس ، أى عملها ، أى لا ينقص من حسناتها ، ولا من سيئاتها ، واللام ظرفية ، أى فى يوم القيامة قاله أبو حيان وابن هشام . وعن بعض بأنها بمعنى عند .

وقيل : للتعليل ، على حذف مضاف ، أى لأهل يوم القيامة .

وقال الشنوانى : أو الجزاء يوم القيامة .

(وَإِنْ كَانَ) تامة بمعنى حصل (مِثْقَالَ) زنة (حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) ما يرى في الشمس من الهباء ، أو بذر اللفت ونحوه .

وقرأ غير نافع بنصب مثقال على نقصان كان ، واسمها ضمير الفعل ؛ قيل : أو في غير الظلم ، وهو ضعيف ، إن لم يكن باطلا .

(أَتَيْنَا بِهَا) الباء للتعدية ، أي أحضرناها ، وضمير المؤنث للمثقال ؛ وإنما أنث لتأويله بالزنة ، أو لإضافته المؤنث ، مع صحة الاستغناء عنه ، فإنه لو قيل : وإن كانت حبة من خردل ، لظهر المراد .

وقرأ ابن عباس ومجاهد آتينا بالمد ، أي أعطينا صاحبها ثوابها أو عقابها وعُدِّيَ بالباء ، لتضمنه معنى المجازاة ، أو هو بمعنى المؤاتاة ، فإنهم أتوا بالعمل ؛ وأتاهم بالجزاء .

وقرأ حميد أثبنا بها ، من الثواب . وقرأ أبيّ جئنا بها .

(وَكَفَىٰ بِنَا) الباء صلة ، ونا فاعل به .

(حَاسِبِينَ) حال لا تمييز ، لضعف كون التمييز وصفاً . والمعنى : إن حسابنا كاف فوق كل حساب ؛ لكمال علمنا وحفظنا . وفي ذلك ترغيب في الحسنات وبعد عن السيئات قال ﷺ : لا تغتروا بالله ، فإنه لو كان مُغْفِلاً شيئاً لأغفل الذرة والبعوضة والخردلة .

﴿ فصـــل ﴾

مذهبنا ـ معشر الأباضية ـ كما مر ـ أن الميزان عبارة عن إثبات الحساب والجزاء ، وإظهار أن فعلك أيها المكلف كذا وكذا ، قد أوجب لك من الخير أو الشر كذا وكذا أصح . وإن شرك مغفور ، وخيرك مقبول .

وإن خيرك غير مقبول، وشرك مؤاخذ به ، وذلك مذهب أكثر المعتزلة .

وقالت الأشعرية وغيرهم : إن الميزان ميزان عمود وكفتين ولسان ، وإن طول الدنيا وسعة كفتيه سعة السموات والأرض .

وروى أن داود ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب . فلما رآه غُشى عليه ، ثم أفاق وقال : إلهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات ؟

قال : يا داود إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة .

وذكر أحمد بن حنبل وابن حبان والحاكم ومسلم والترمذى وابن ماجه واللفظ للترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل سيستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك شيئا كتبتى الحافظون ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول : ألك عذر ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول الله تبارك وتعالى : بل لك عندنا حسنة ؟ فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فيقول : احضر وزنك .

فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ !

فيقول : فإنك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء .

والسجل : الكتاب الكبير . والبطاقة : الصغير . والطيش : الخفة . وأجر

الشهادة كما ذكروا وأكثر ، ولكن المراد أن ذلك لمن مات تائباً ، فيظهر الله له أن ذنوبه مثل تلك السجلات ، وأنه لما تاب قبلت توبته ، فغلبت عليها شهادته .

ونسبوا كونه ميزانا فى كفتين وعمود ولسان إلى الحسن، وذكروا أن الكفة اليمنى كفة نور توضع فيها الحسنات ، واليسرى توضع فيها السيئات ، وهى كفة ظلمة . فبعض يقول : ليس علينا البحث عن كيفية الوزن ، بل نؤمن به ونفوّض كيفيته إلى الله تعالى .

وقيل : توزن صحائف الأعمال .

قلنا : إذاً تكون الزيادة فى الموزونات من الأعمال .

وبعض يقول : تجعل الحسنات أجساما نورانية بيضاء حسنة ، والسيئات أجساماً ظلمانية قبيحة ، جواباً عما يقال : إن الأعمال أعراض لا توزن ، وأنها قد عدمت ، فلا توجد . سلّمنا أن الله قادر على قلب الأعراض أجساماً، بل وعلى إيجاد الأعراض المعدومة وعلى وزنها ، لكن لا فائدة فى الوزن ، مع أن الله عالم بمقاديرها ووزنها غيب .

وإن قالوا : فائدته امتحان العباد بالإيمان بالغيب فى الدنيا ، وجعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة .

قلنا : هذا موجود فى تفسيرنا الميزان ، بتعريف العباد ، ما لهم من الجزاء على الخير والشر ، وإحضار ذلك الجزاء .

وبعض يقول : يخلق الله أجساما على عدد تلك الأعمال من غير قلبها . وفيه ما فى الذى قبله . وإذا أدحضت حججهم قالوا : إن لوزنها حكمة أبهمها الله ، كما صرح به بعض ، وبأن ذات الميزان لا تعرف من أى شىء هى ؟ وما ورد فى ذلك من الأخبار فمعناه معنى الآية الذى أوضحناه .

فمن ذلك ما روى عنه ﷺ أنه توزن الصحف . فمعنى وزنها الجزاء بما فيها وترجيح خيرها على شرها ، أو شرها على خيرها .

وزعم بعضهم أن الراجح فى ذلك الميزان يرتفع والمرجوح يتسفل . ولا توزن أعمال المشركين لقوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » عند بعضهم .

والراجح عندم وزنها ؛ لقوله عز وعلا : «ومن خفت - إلى - تكذبون» .

وأجيب من الآية الأولى ، أن المعنى احتقارهم ، وأنهم لا قدر لهم فى الآخرة أو أنه لا يقوم لهم وزن نافع .

وقالوا : إنه توزن سيئات من لا حسنة له إعلانا بفضوحته ، وحسنات من لا سيئة له ، إعلانا بشرفه .

وقيل : بعض الكفار يعجل بهم إلى النار بلا وزن ، وبعضهم يوزن له ويلقى فى النار

وقال الغزالى : من الأمة سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب ، لا يرفع لهم ميزان ، ولا يأخذون صحفا ، يكتب لكل واحد صحيفة ، فيها براءة فلان ابن فلان . ولا توزن أعمال الأنبياء ، ولا أعمال الملائكة .

قال أبو الحسن القابسى : والصحيح أن الحوض قبل الميزان . وما ذهب إليه أبو طالب المكى وغيره أن الحوض بعد الصراط غلط فيه .

وأجيب عن قوله ﷺ لأنس : إن لم تلقنى عند الصراط فاطلبنى عند الميزان ، فإن لم تلقنى فعند الحوض ، بأن الذكر فيه بحسب الأهمية .

وصحح القرطبى أن للنبى ﷺ حوضين ، كلاهما يسمى كوثرا ، وأن الحوض الذى يذاد عنه من بدّل أو غيّر ، يكون فى الموقف قبل الصراط .

وإن قلت : إذا كان الميزان بمعنى ما ذهبتَ إليه ، أو بمعنى ما ذهب إليه القوم فكيف جمع ؟

قلت : جمع إما للتعظيم ، وإما نظراً لتعدد الموزون ، وإما لأن لكل صنف من الأعمال ميزانا ، وإما لأن لكل مكلف ميزانا . أقوال .

والجمهور على أن الميزان واحد .

قيل : إن الموازين جمع مَوْزَن .

واختلفوا : هل تجعل حسنات العباد كلها فى كفة النور ، وسيئاتهم فى كفة الظلمة ، ويخلق الله علما ضروريا لكل إنسان ، يعلم به خفة أعماله ، أو ثقلها ؟ أو يقوم عمود من نور من كفة النور ، فيغطى كفة الظلمة ، يظهر للسعيد ، وبالعكس للشقى ، أو يوزن عمل كل أحد على حِدَة ، كما رزقهم على كثرة عددهم ؟ أقوال .

قالوا : وصحف الأعمال التى توزن كلها تحت العرش . وهل الحوض مختص بنبينا ﷺ ؟ أو لكل نبى حوض يتباهَوْن أيهم كَثُر وِرْد حَوضه ، كما روى فى حديث غريب لا تقوم به حجة ؟ قولان .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ) التوراة الكثيرة : المفرّق بين الحق والباطل .

(وَضِيَاءً) هو التوراة أيضاً ؛ لأنه يستضاء بها فى ظلمات الجهل .

(وَذِكْرًا) هو هى ؛ لأنها عظة . (لِلْمُتَّقِينَ) وأما غيرهم ممن سبق فى علم الله أنه لا يكون مستقيما ، فلا يتعظ بها .

ويحتمل أن يكون مصدرين ، أى وضياء بها ، وذكراً بها . فعلى الأول

يكون ذلك كعطف صفة على أخرى ، كقولك : جاء الرجل الكريم والعالم والورع ، وأنت تريد بالكل واحداً ، أن في إتيانهما كتابا جامعاً بين تمييز الحق والضوء والوعد .

وقرأ ابن كثير وضيئاء بهمزة قبل الألف وبعدها ، ومر بيانها في سورة يونس — عليه السلام .

وقرأ ابن عباس ضياء ، بدون واو ، على الإبدال ، أو الحالية من الفرقان .

وعنه : الفرقان : الفتح والنصر ، كقوله عز وعلا : « يوم الفرقان » .

وعن الضحاك : فلق البحر .

وعن محمد بن كعب : المخرج من الشبهات .

وقيل في الذكر : إنه ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم ، أو الشرف .

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) نعت ، أو يقطع إلى النصب أو الرفع مدحاً .

(بِالْغَيْبِ) حال من الواو ، أي يخشونه ، وهم لا يرونه ، أو يخشونه وهم غائبون عن أعين الناس ، على ما يأتي في مثل هذا الموضع ، أو متعلق بيخشون ، أي يخشونه في الخلوة عن الناس كما يخشونه في حضرتهم .

(وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ) وأهوالها

(مُشْفِقُونَ) خائفون . ولو قال : الذين يخشون ربهم ومن الساعة يشفقون أو مشفقون من الساعة لصح . لكن صدّر الجملة بالضمير، وبنى الحكم عليه مبالغة وتعريضاً بأن الكفار غير مشفقين منها لإنكارهم إياها .

(وَهَٰذَا) أي القرآن . (ذِكْرٌ) لك يا محمد ، كما أن التوراة ذكر لموسى وهارون .

(مُبَارَكٌ) كثير الخير .

(أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) لاستفهام توبيخي .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) الاهتداء لوجوه الصلاح، من الهدى والنبوة وغير ذلك ، كتوجيهه إلى الجواب السديد .

وإن قلت : إذا كان له رشد موجود فقوله : آتيناه إياه تحصيل الحاصل .

قلت : لا بل المعنى : آتيناه ما له عندنا من الرشد فى قضائنا ، أو المراد : آتيناه رشداً يليق بمثله ، وهو رشد له شأن .

(مِن قَبْلُ) قبل موسى وهارون ومحمد .

وقيل : قبل استنبائه .

وقيل : قبل بلوغه ، وهو وقت خروجه من السَّرَب وقوله : إنى وجهت .

وعن مجاهد : الرشد : الهدى .

وعن الحسن : النبوة .

وقرئ بفتح الراء والشين .

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أى عالمين بأحواله البديعة وأسراره العجيبة ، وصفاته المرضية المحمودة ، المثبتة لأن يكون أهلا لذلك . وفى ذلك ثناء جسيم ، وإشارة إلى أن فعله — عز وجل — باختيار وحكمة ، وأنه عالم بالجزئيات .

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ) إذ متعلق بعالمين ، أى هو فى حال القول ، قد علمناه كما علمناه فى سائر الأوقات ، فلم يغلبوه عند القول ؛ لأنا عالمون بحاله ، ونصرناه ، أو متعلق بآتينا ، أو برشده ، أو مفعول به لمحذوف ، أى اذكر من أوقاته وقت قوله لأبيه وقومه .

والفاء فيها زيادة معنى، وهو التعجب ، تعجب من تسهيل الكيد على يديه ، لأنه أمر صعب ، متعذر فى كل زمان ، خصوصا فى زمان نمرود ، مع عتوه واستكباره ، وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرة دينه . ولكن إذا قضى الله شيئاً تيسر ، ولتلك الصعوبة عبّر بالكيد المتضمن لنوع من الحِيَل .

(لَأَكِيدَنَّ) أسدها بالمكر (أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا) تدبروا عنها إلى مجتمع عيدكم .

وقرئ بفتح التاء واللام أى تتولوا . ويدل لهذا القراءة : « فتولوا عنه مدبرين » .

(مُدْبِرِينَ) حال مؤكدة لعاملها .

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) وقرأ الكسائى بكسر الجيم ، وهو مصدر على وزن فُعال ، بضم الفاء وكسرها ، بمعنى مجذوذة ، أى مقطوعة ، أو يقدر مضاف ، أى ذوى قطع ، أى مقطوعين ، وهم بمنزلة العقلاء . وأخبر أنهم نفس القاطع . والضم والكسر لغتان ، والالفاظان جمعا جذيذ .

وقرئ بالفتح مصدرا ، أو جمع جذيذ .

وقرئ جذذ ، بضم الجيم وفتح الذال وإسقاط الألف ، جمع جذيذ .

وقرئ بضمهما ، جمع جذيذ ، أو جذة بضم الجيم .

(إِلَّا كَبِيرًا) صنما كبيرا ، تركه بلا كسر ، وعلق الفأس التى كسر الأصنام بها فى عنقه .

قيل : علقه بيده اليمنى . (لَهُمْ) أو هو نعت كبير ، أو نعت لذن ، محذوف . وفائدته على النعتية الإشعار بأن كبره إنما يثبت لهم لا لنا ، فإنه عندنا

أهون شيئا ، وكلما عظمت جثته وهيئته ، زاد بغضا وإهانة عندنا . وكان عندهم عظيم الجثة والمنزلة ، صاغوه من ذهب ، وجعلوا فى عينيه جوهرتين ، مضيئتين ليلا ونهاراً ، وكانوا سائره بالجواهر، وسائر الأصنام بعضها من ذهب، وبعضها من فضة ، وبعض من حديد ، وبعض من نحاس ، وبعض من رصاص، وبعض من حجر ، وبعض من خشب .

(لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ) إلى مكسوره . (يَرْجِعُونَ) كما يرجع الى من عظم شأنه فى الأمور المعضلة ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورةً ومالكَ صحيحاً ، والفأس فى عنقك أو يدك ، فإنه ـ عليه السلام ـ قد علم أنهم يعظمون آلهتهم، ولا سيما هذا ويعتقدون لها أباطيل .

وفائدة رجوعهم إليه : أن يتبين أنه لا يضر ولا ينفع ، وأنهم فى عبادته على جهل عظيم . وقال ذلك وهو عالم بأنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم ، واستجهالا؛ فإن قياس من سجد له ، أن يرجع إليه فى إزالة الأمور المعضلة . والضمير لإبراهيم؛ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ؛ لتفرده بعداوة آلهتهم واشتهاره بعداوتها .

وفائدة رجوعهم إليه أن يفحمهم بقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » والأول عندى أظهر ، والثانى عند الثعالبى أظهر .

ويجوز عود الضمير إلى الله عز وجل، أى لعلهم يرجعون إلى توحيد الله ودينه إذا رأوا أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع عن نفسها .

(قَالُوا) بعد رجوعهم من العيد : (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا) استفهام توبيخى ، أعنى أنه يتضمن توبيخ الفاعل وتهديده ، وإلا فهو حقيقى ، لجهلهم بالفاعل .

وقيل : لما خرجوا للعيد وهو معهم ، بدأوا بالأصنام ، فدخلوا عليها [إنه] فسجدوا إلا إبراهيم لها ، ووضعوا طعاما ، وخرجوا به ثم رجع .

وقيل : بقى معها ، وقال : إنى سقيم .

وقيل : إنها سبعون ، وكسرها كسرا فظيعا ، مع أنها — مما علمت — من ذهب وغيره ، مما هو قوى بعون الله .

وروى أنه قطع أيديها وأرجلها ، وفقأ أعينها وكسّر وجوهها إلا كبيرها .

فلما رجعوا من عيدهم ، رأوا هذا الكسر الشديد ، فحسبوه من الظلم ، الجراءة على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير ، لإفراطه فى كسرها والاستهانة بها .

(قَالُوا أأَنْتَ) بتحقيق الهمزتين ، وإبدال الثانية ألفا وتسهيلها وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه . وأنت مبتدأ خبره مابعده ، أو فاعل لمحذوف مدلول عليه بما بعده ، وهو عندهم أولى .

والأصل : أفعلت . ولما حذف الفعل انفصل الضمير .

(فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ) : لا .

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا) غضباً أن تعبد معه هذه الأصنام التى دونه وليس — عليه السلام — مريدا حقيقة هذا الكلام ، ولكنه أراد أنه ما فعل ذلك إلا أن يبكتهم تعريضا لا تصريحا ، وهو أبلغ ، كما لو فعلت فعلا حسنا ، وقد اشتهرت بحسن ذلك الفعل ، وقال لك من لا يفعل مثله أصلا ، أو يفعله ولا يحسنه : أأنت فعلت هذا ؟ فتقول له : بل فعلته أنت . فإنك تقصدك بهذا الجواب تقرير الفعل لنفسك ، ونفيه عنه ، مع الاستهزاء به وهذا قصد إبراهيم ، مع قصد النجاة من ضرهم ، بأن يحملوا كلامه على ظاهره ، من أن الفاعل هو كبيرهم ، وإن فطنوا به فقد فطنوا بالحجة عليهم ، والله منجيه . أو أسند الفعل إلى كبيرهم :

لأنه هو السبب لفعل إبراهيم ذلك . وذلك أنه غاظته تلك الأصنام ، إذ رآها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد بما رآه من شدة تعظيمهم له ، أو أراد أن النهاس – على زعمكم – أن يكون الفاعل هو الكبير . ومن شأن من يُعبد أن يفعل هذا وأشد منه .

ويحتمل أن يريد بل فعله إبراهيم والفتى ، وهو هو . ويدل له وقْفُ بعضٍ على « فَعَلَهُ » ويكون كبيرهم هذا مبتدأ أو خبرا . وعبّر بالغيبة ، مع أن مقتضى الظاهر أن يقول : بل فعلته ، ليتوهموا أن الفعل مسند إلى كبيرهم ، وأن هذا بدل ، أو بيان ، كما في الأوجه السابقة وعلى هذا فبل إضراب عن الشك الموقع في الاستفهام .

وقال الفراء : الأصل : فلعله ، حذفت اللام الأولى من لعل ، وخففت الثانية ؛ وهو تكلف ، لكن تطابقه قراءة محمد بن السميفع فلعله كبيرهم ، بالتشديد اللام .

وفي حديث الشفاعة : إنهم يأتون إبراهيم فيقولون له : قم اشفع في أهل الموقف . فيقول : لستُ بأهلها ؛ لثلاث كذبات : قولي : « إني سقيم » وقولي : « بل فعله كبيرهم هذا » وقولي في سارة لمّا تعرض لها سلطان : إنها أختي ، مع أنها زوجتي . أو قال لها : إن سألوكِ فقولي : إنه أخي

وقال رسول الله ﷺ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . قلنا : ليس حمل ذلك على ظاهره من قول المسلمين ، ولكن سميت المعاريض كذبا لأنها على صورته . وقد قال ﷺ : إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب ، فالمراد أنه لم يتكلم بما على صورة الكذب ، لكراهته صورتها ، إلا بهذه الثلاثة وأشفق منها .

أما قوله : « بل فعله كبيرهم » فقد مر بيانه .

(وَلَا يَضُرُّكُمْ) إن تركتم عبادته . أنكر عليهم عبادة جماد لا ينطق ، فضلا عن أن ينفع أو يضر .

(أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى نتنا وقبحا لكم . والأصل مثلا قبحتم أنتم وما تعبدون قبحا ، فحذف قبحتم وما تعبدون ، فجىء بما هو عوض من ضميره ، مجرورا باللام بيانا ، وبما مجرورا باللام أيضا . فأف مفعول مطلقا ، كذا قيل . والصواب أنه اسم فعل .

قال بعضهم : أف صوت إذا صوت به ، علم أن صاحبه متضجر ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتهم ، بعد وضوح الحق .

وقرئ أف بكسر الهمزة ، وأفا بفتح الفاء .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن هذه الأصنام ليست أهلا للعبادة .

(قَالُوا حَرِّقُوهُ) أى إبراهيم لما عليهم الحجة أرادوا إحراقه . وهكذا المبطل ، إذا أدحضت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ، ولم يكن له مفزع إلا معاداته ، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ ، حين أعجزهم .

وقائل ذلك هو نمرود

وقال ابن عمر : رجل من الأكراد ، من فارس ، من باديتهم ، وهو عجمى .

قال شعيب الجبائى : اسمه هرز وهو قول ابن عباس .

وقيل : نمرود بن لوش

وقيل : هينون ، وخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة

ونسب القول إليهم ، إما حكاية عن المجموع ، وإما لرضاهم قول القائل وأتباعه ، أو لقولهم تبعا لقوله ، فالكل قال ، لكن بعض قال أصالة ، وبعض تبعا ،

بواخذوا العقاب بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأعظمه ولذلك لا يعذب بالنار إلا خالقها كما قال .

(وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ) أى ناصرين لها نصراً مؤزراً ، وإلا كنتم مقصرين فى حقها .

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : لما عزم نمرود وقومه على إحراق إبراهيم ، حبسوه فى بيت ، وبنوا له بنيانا كالحظيرة ، فى قرية تسمى « كوثى » بثاء مثلثة ، من العراق ويقال لها : ضرة السواد ، وبها ولد ، ثم جمعوا له الحطب من أصناف الخشب ، حتى إن المرأة تمرض وتقول : لئن عوفيت لأجمعن حطبا لإبراهيم .

وكانت المرأة تنذر إن أدركت ما تطلب لتجمعن له حطبا ، وكذلك الرجل ويفعلون ذلك احتسابا ، وتغزل المرأة ، وتشترى الحطب بغزلها .

وكانوا يوصون بشراء الحطب ، حتى إن الشيخ الكبير الفانى الذى لم يخرج زمانا يجىء بالحطب ، ويلقيه تقربا إلى آلهتهم .

قال ابن إسحق : كانوا يجمعون الحطب شهرا ، وجمعا كثيرا ، فأشعلوا النار فى كل ناحية ، فاشتد التهابها ، حتى إن الطائر يمر بالهواء فيحترق .

قيل : أوقدت سبعة أيام ، ثم أرادوا إلقاءه فيها ، ولم يتمكنوا منه ، لشدة الحريق ، فجاء إبليس فى صورة شيخ فقال : أنا أدلكم على صنعة آلة يلقى بها ، فعلمهم صنعة المنجنيق ، وهو أول ما صنع ، فوضعوه مقيدا مغلولا فى المنجنيق .

وقيل : رفع إلى رأس البنيان وقيد ، وصنع المنجنيق ، وأمسكوا المنجنيق ، فقبضت الملائكة على أستاره . فقال لهم إبليس : إيتوا بالنساء منكشفات ، فينكشفن للرجال ، ففعلوا . وصاحت السموات والأرض ، من الملائكة والدواب إلا الإنس والجن صيحة واحدة : يا ربنا إبراهيم خليلك ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره ، يحرق فيك . فائذن لنا فى نصرته .

فقال لهم تبارك وتعالى : إن استغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه . فخلوا بينى وبينه .

فلما أرادوا إلقاءه ، أتاه ملك المياه فقال : إن أردت أخمدت النار ، فإن خزائن المياه والأمطار بيدى . وأتى خازن الريح فقال له : إن شئت طيرت النار فى الهواء ؛ فإن خزائن الريح بيدى . فقال لهم إبراهيم : لا حاجة لى إليكم ثم رفع رأسه إلى السماء . فقال : اللهم أنت الواحد فى الأرض ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى .

وقيل : قال لهم : لا حاجة لى إليكم ، حسبى الله ونعم الوكيل .

وعن المنتم عن أبىّ بن كعب عن أرقم : قال إبراهيم — حين أوثقوه ليلقوه فى النار — : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك . قالوا : ثم رموا به فى النار من موضع بعيد . فقال له جبريل فى الهواء : يا إبراهيم ألك حاجة ؟

قال : أما إليك فلا .

قال له جبريل : فاسأل ربك .

قال له إبراهيم : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، حسبى الله ونعم الوكيل .

وفى الخبر أنه نجّى بقوله : حسبى من سؤالى الخ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال إبراهيم : حسبى الله ونعم الوكيل حين ألقى فى النار . وقالها سيدنا محمد ﷺ ، حين قيل له : إن الناس قد جمعوا لكم .

وجعل كل شىء يطفىء النار بالماء إلا الوزغة ، فإنها كانت تنفخ فى النار ، ولذلك أمر ﷺ بقتلها ، وفى قتلها أجر عظيم ، وهى سام أبرص بتشديد الميم ، وسم أبرص ، بإسقاط الألف .

وفى القاموس : إن سامّ أبرص ، وسمّ أبرص : الوزغة الكبيرة الجسم .
وأكثر اجتهاداً فى إطفاء النار الضفادع ، كانت تحوم حولها ما لا يحوم غيرها .

قال الشيخ إسماعيل - رحمه الله - عن النبى ﷺ : لا تقتلوا الضفادع ، فإن الذى تسمعون منها تسبيح وتقديس ، وإن إبراهيم - عليه السلام - لما أتى فى النار استأذنت دواب البر والطير أن تطفىء عن إبراهيم النار ، فأذن الله الضفادع ، متركات على النار ، أى رمت بنفسها عليها ، فذهب ثلثاها ، أى ثلثا كل ضفدع ، وبقى الثلث ، فأبدل الله لها بحرارة النار برد الماء . وظاهره ما أذن فى الإطفاء إلا الضفادع وذكر بعضهم خلاف ذلك .

وروى أن الدواب التى يحمل عليها امتنعت من حمل الحطب إلا البغل والبغلة ، فأعقمها الله . وناداها جبريل : « يانار كونى بردا وسلاماً » وهو المراد بقوله :

(قُلْنَا) أمرنا بالقول فإن القائل جبريل ، أو من قول الشىء ، بمعنى إيجاده .
(يَا نَارُ) نكرة مقصودة .
(كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) أمرها أن تكون نفس البرد والسلامة مبالغة ، أو يقدر مضاف ، أى ذات برد وسلامة ، أو يؤولان بالوصف ، أى باردة وسالمة ، من أن تضره ، أو مصدران لخبر محذوف ، أى كونى باردة برداً وسالمة سلاماً ، والواو عاطفة لمحذوف على قلنا ، أى وسلمنا سلاماً عليه .

وفى الكلام مبالغة ، بجعل النار مسخرة بقدرته ، مأمورة مطيعة ، وإقامة كونى بردا مقام أبردى ، وأمرها بأن تكون نفس البرد ، على ما مر . والمراد بردا عظيما لكنه غير ضار .

وعن ابن عباس وعلىّ : لو لم يقل : وسلاما ، لقتله البرد فيموت .

قيل : لو لم يقل : على إبراهيم ، لبقيت بردا أبدا ، نزع الله طبعها الذى هو الإحراق .

ويجوز أن يكون باقيا فيها ، لكن دفعه الله عن جسم إبراهيم ، وأذاقه عكسه ، كما رفعه عن الخزنة ـ عليهم السلام ، وكما يرى فى السمندل ، وهو طائر ، يرمى نفسه فى النار ولا تؤذيه .

قال عمرو بن واصل : كنت عند سهل ليلا ، فأخرجت فتيلة السراج ، فقالت من أصبعى شيئا يسيرا ، فألمت منه . فنظر إلىّ ، ووضع أصبعه على النار ، نحو ساعتين ، لا يجد ألما ، ولا أثرا بأصبعه ، وهو يقول : أعوذ بالله من النار .

ويدل لهذا قوله : « على إبراهيم » وما روى أنهم قالوا : هذه النار مسحورة لا تحرق ، فرموا فيها شيخا منهم فاحترق ، ولم تحرق من إبراهيم إلا ما ربطوه به ، ولم يبق يومئذ نار إلا طفئت .

وعن كعب وقتادة والزهرى : ما انتفع يومئذ أحد بنار فى الدنيا .

ولما كان فى الهواء أحدث الملائكة بضبعيه ، فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس صفر ، وطعام من الجنة وفراش منها .

وروى أن العيدان أثمرت له ثمارها هناك ، وأقام فيها سبعة أيام .

قال المنهال بن عمر : قال إبراهيم الخليل : ما كنت قط أياما أنعم عيشا من الأيام التى كنت فيها فى النار .

قال ابن إسحاق : بعث الله له ملك الظل فى صورة إبراهيم ، فقعد إلى جنبه يؤانسه ويحدثه . وأتاه جبريل بقميص من الجنة فقال : يا إبراهيم إن الله تعالى يقول لك : أما علمت أن النار لا تضر أحبابى . وألبسه القميص .

وروى أنه أتاه بقميص حرير وطنفسة منها ، ألبسه القميص ، وأقعده على الطنفسة ، وأشرف عليه نمرود من عِلِّية له ، وما يشك أنه غير محترق هالك ، فرآه جالسا على تلك الحال المذكورة كلها ، والحطب يشتعل حوله .

فناداه : يا إبراهيم إن إلهك الذى بلغت قدرته إلى أن حال بينك وبين النار ، وصرف عنك ضررها الكبير . يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟

قال : نعم .

ثم قال : نخشى إن أقمت فيها أن تضرك .

قال : لا .

قال : قم فاخرج منها .

فقام فخرج منها .

فقال له : يا إبراهيم مَن الرجلُ الذى رأيتُ يجعلك فى مثل صورتك قاعدا؟

قال : ذلك مَلَك الظل ، أرسله ربى إلىَّ ليؤنسنى .

قال نمرود : يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانا ، لما رأيت من قدرته بما صنع لك ، حتى أبيت إلا عبادته وتوحيده .

قال إبراهيم : هو إله قادر .

قال نمرود : إنى أريد أن أذبح له أربعة آلاف بقرة .

قال له إبراهيم : إذن لا يقبل الله منك ما كنتَ على دينك حتى تفارقه وترجع إلى دينى .

قال : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى ، ولكن سوف أذبحها له ، فذبحها له نمرود ، وصرف الله ضره عنه من يومئذ . وقال له : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

قال شعيب الجبائى : ألقى فى النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق ،

وهو ابن تسع سنين ، وولدت سارة له ، وهى بنت تسعين سنة ، وصومت يومين ، وماتت فى اليوم الثالث ، وآمن به لذلك رجال من قومه، على خوف من نمروذ .

وقيل : كان ذلك فى كوثى الشام لا كوثى العراق ، وهو باطل .

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا) إهلاكا دخلها وهو التحريق .

(فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) الكاملين الخسران فى سعيهم ، اجتهدوا فى الحطب والبنيان ، وإنفاق المال ، فضاع سعيهم ، ولم تحرقه النار .

قال أحمد بن حنبل : يعلق على المحموم : بسم الله الرحمن الرحيم . يا ألله . يا ألله محمد رسول الله ﷺ . يانار كونى بردا وسلاما - إلى - الأخسرين . اللهم رب جبريل وميكائيل ، اشف حامل هذا بحولك وقوتك ، يا أرحم الراحمين .

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا) وهو ابن أخته هاران ، من العراق ، على الصحيح ، ووالد هاران تارخ ، ولهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : فهاران أبو لوط ، وناخور أبو توبيل بن لابان بن ناخور ، ورفقاء بنت توبيل امرأة إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب . وليًّا وراحيل زوجتا يعقوب هما ابنتا لابان ، وآمنت به سارة بنت عمه ، وهى سارة بنت هاران الأكبر ، عم إبراهيم . وكانت سارة بنت ملك حران، طعنت فى دين قومها ، فتزوجها إبراهيم .

قال ابن إسحاق : خرج إبراهيم من كوثى ، وهى قرية فى العراق ، ونزل لوط المؤتفكة وهى من العراق . ونزل إبراهيم بحرّان ، فمكث ما شاء الله ، ثم قدم مصر ، ثم الشام فنزل السبع من أرض فلسطين .

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وهى الشام . نزل إبراهيم السبع

ولوط المؤتفكة ، وبينهما نحو يوم وليلة : وذلك قول الجمهور وبَرَكة الشام : الخصب ، وكثرة الشجر والثمار والأنهار .

قال أُبىّ : ما من ماء عذب إلا ينبع من تحت صخرة بيت المقدس .

وقيل : إن أكثر الأنبياء منها

وقال عمر بن الخطاب لكعب ـ رضى الله عنهما ـ : ألا تتحول إلى المدينة؟ فيها مهاجَر رسول الله ﷺ ، وقبره .

فقال كعب : إنى وجدت فى كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله فى أرضه .

وعنه ﷺ : ستكون هجرة بعد هجرة . فخيار أهل الأرض ، ألزمهم مهاجرَ إبراهيم . أراد الهجرة إلى الشام ، ورغب فى المقام فيها . وقال : طوبى لأهل الشام ؛ لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها .

وأمر أويس هرم بن سنان أن يكون بالشام .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أين تأمرنى ؟

فقال : ها هنا ، وأشار إلى الشام بيده الكريمة ، وهى أرض المحشر ، وبها ينزل عيسى ـ عليه السلام ، ويقتل الدجال .

قيل لسفيان ـ وقد رحل إليها ـ : إلى أين ؟

فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم .

وقيل : المراد بالأرض : مكة .

وروى أن نمروذ ـ لعنه الله ـ قال له : أين جنود ربك الذى تزعم ؟

فقال له : سيريك بعض أضعف جنده .

فبعث الله إليه سحابة بعوض، فأكلت جلده ودوابهم ومالهم، حتى إن العظام بقيت بيضا ، ودخلت بعوضة فى رأسه . وكان يضرب بالعمود ثم هلك .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قيل: بمعنى عطية ، فهو حال مؤكدة لعاملها ، وكلاهما عطية .

وقيل : بمعنى زيادة على التنجية ، فهو حال غير مؤكدة ، والإفراد لتضمن معنى المصدر .

وقيل: النافلة : ولد الولد ، فهو حال من يعقوب؛ فإنه ابن إسحاق بن إبراهيم وهو قول ابن عباس .

وروى أنه سأل ولدا فأعطيه ، وأعطى ولد الولد ، زيادة وتفضلا ، من غير سؤال .

(وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) بالتوفيق للصلاح : إبراهيم ولوطا وإسحاق ويعقوب .

وقيل : المراد : هو وولداه .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم فى الخير ، بهمزة مفتوحة محققة ، فهمزة مكسورة مسهلة ، وبعض يحققهما ، وبعض يبدل الثانية ياء .

(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم : أن يهدوا ، وبإرسالنا .

وفى الآية إشارة إلى أن من صلح أن يكون قدوة فى دين الله، فالهداية محتومة عليه ، ليس له أن يتثاقل عنها. وإلى أنه يجب أن يتقدم على هداية غيره ، اهتداؤه فى نفسه . فإن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل . وبذلك يكون كاملا .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) العمل بالشرائع .

قيل : الأصل : أن يفعل الخيرات ، بالفعل وحرف المصدر ، ثم فعلا الخيرات بالمصدر المنون العامل ، ثم قيل : فعل الخيرات ، بترك التنوين ، وبالإضافة .

(وَإِقَامَ الصَّلَاةِ) الأصل : إقوام ، نقلت فتحة الواو للقاف ، فقلبت ألفا ، فحذفت إحدى الألفين ، لالتقاء الساكنين ، أو لما نقلت الفتحة ، حذفت الواو لذلك ، ولم يعوض التاء عن المحذوف ، على خلاف القياس .

وقيل : عدم التعويض مع الإضافة مقيس لقيام الإضافة مقام التاء ، والأول مذهب ابن هشام .

قال في المغنى : وأما « وإقام الصلاة » فما يوقف عنده . انتهى . وأطلت في شرح اللامية .

(وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) في إقام الصلاة ، وفي إيتاء الزكاة ونحوهما ، من المصادر المضافة لمعمولها ما مر في قوله : « فعل الخيرات » وعطف إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات ، عطف خاص على عام للمزية ؛ فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية ، وشرعت لذكر الله والخشوع . والزكاة أفضل العبادات المالية ، وشرعت للشفقة على خلق الله .

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) مطيعين أو موحدين بإخلاص كما يفيده تقديم لنا .

(وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا) فصلا بين الخصوم ، أو حكمة ، أو نبوة (وَعِلْمًا) يليق بالنبي .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) وهي سدوم ، أي يعمل أهلها الخبائث ، وهي اللواط ، والرمي بالبندق ، واللعب بالطيور ، والضرط في مجالسهم .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) دليل على تقدير المضاف في قوله : «نعمل» قبل هذا كالتعليل لما قبله . والسوء مصدر ساءه نقيض سرّه . والفسق : الشرك . قاله الشيخ هود .

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) النبوة ، أو الثواب وهو الجنة ؛ أو الرحمة العامة لذلك ولإنجائه من قومه ، أقوال . وقدر بعض : في أهل رحمتنا .

(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) هم الأنبياء أو أهل الجنة ، قولان . (وَنُوحًا) مفعول لمحذوف ، أي اذكر نوحا .

(إِذْ) بدل اشتمال من نوح والرابط ضمير الجملة المضاف إليها إذ ، وهي قوله : (نَادَى مِنْ قَبْلُ) من قبل هؤلاء المذكورين . وقيل : من قبل إبراهيم ولوط . ونداؤه هو دعاؤه : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا» الخ

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) دعاءه (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) قيل : كان معه في السفينة ثلاثة بنين ونساؤهم وامرأته ، ولعلها امرأة غير الكافرة .

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الكرب : الغم . وقيل : الشدة . والمراد : الغرق وتكذيب قومه له . وروى أنه ـ عليه السلام ـ كان أطول الأنبيا عمراً وأشدهم بلاء .

(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) قال ابن هشام : من بمعنى على .

وقيل : هي على بابها لتضمين النصر معنى المنع . والأول قول أبي عبيدة . ويجوز أن يكون المعنى جعلناه منتصراً منهم . قال جار الله : سمعت هذليا يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أي اجعلهم منتصرين منه .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) لأمرين ما اجتمعا فى قوم إلا هلكوا : التكذيب ، والانهماك فى الشر

(وَدَاوُودَ) مفعول لمحذوف مستأنف ، أى واذكر ، أو معطوف على نوحا وقد مر أن نوحا مفعول لمحذوف .

ويجوز عطف نوحا وداود على لوطا ، أى وآتينا لوطا ونوحا وداود . وهذه الأوجه أيضاً فى قوله : « وأيوب » وقوله : « وإسماعيل » . وقوله : « وذا النون وزكريا ومريم » وإذ فى الكل بدل اشتمال مما قبله ، والرابط الضمير من الجملة بعده .

(وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ) قال ابن عباس والجمهور : كان الحرث كرْما قد نزلت عناقيده .

وقيل : كان زرعا مثل اللفت والجزر والبر والشعير (إِذْ نَفَشَتْ) رعت (فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) ليلا بلا راع ، بأن انفلتت .

قال بعضهم : النفش : الرعى ليلا .

وقيل : الانتشار فيه ولو من العقلاء .

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ) الضمير لسليمان وداود الحاكمين ، ولمن حكما له ، ومن حكما عليه .

وقيل : لداود وسليمان ، والاثنان جمع مجازا . وقيل : حقيقة . ويدل لرجوع الضمير لهما قراءة بعضهم : وكنا لحكمهما

(شَاهِدِينَ) حاضرين عالمين .

(فَفَهَّمْنَاهَا) أى الحكومة ، أو القضية المفهومة من الكلام . وقرئ فأفهمناها (سُلَيْمَانَ) أى أفهمناه إياها ، مفعول ثان مقدم ، وسليمان مفعول أول .

(وَكُلًّا) داود وسليمان (آتَيْنَا حُكْمًا) نبوة (وَعِلْمًا) بأمور الدين ، على وجه الاجتهاد .

وقيل : على طريق الوحى . فضل الله حكم سليمان ، ونسخ به حكم داود . وفى ذلك دليل أن الاعتبار بالحق لا بالتقدم والأبوة ونحوها . فقول : حكما بالوحى ، ونسخ وحْىُ سليمان وحْىَ داود .

وقيل بالاجتهاد بناء على جوازه للأنبياء . والاجتهاد لا ينسخ الوحى ، فيحتمل أن الله قد عرفهما أن حكم سليمان هو الحق .

ويحتمل أنه لم يعرفهما ، وأخبر الله به هذا النبى الكريم .

والحاكم المجتهد إذا أخطأ فله أجر واحد ، ولا إثم إلا فى الخطأ فى الأصول . وإذا أصاب فله أجران .

وإذا اختلف المجتهدون ، فالحق مع واحد فقط عند الله ، لا معهم ، على الصحيح . ويمكن خطؤهم . وفى مضمونه « وكلا آتينا حكما وعلما » دليل على إصابتهما لكن أحدهما أولى .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حبوب ، والآخر صاحب غنم . قلت : ظاهر هذه الرواية أن الحرث فى الآية الزرع .

قال : فقال صاحب الزرع : إن غنم هذا أكلت زرعى ليلا وأفسدته ، ولم يبق شىء .

قلت : هذا نص أن الحرث : الزرع . وإنما كتبت ما كتبت من الاستظهار ، قبل اطلاعى على هذا .

فأعطاه داود رقاب الغنم ، فخرجا فمرا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه .

فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا .

وقيل : قال : غير هذا أرفق بهما . فأخبر بذلك داود فدعاه وقال : كيف تقضى ؟

وروى أنه قال : بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق .

قال : صاحب الغنم يدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدَرّها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، ويقوم به حتى يصير كهيئته ، فيدفعه إلى صاحبه ويرد غنمه .

فقال داود : القضاء ما قضيتَ . حكم بذلك .

وفى ذلك بيان أن الغنم هنا : الضأن لقوله : وصوفها . وسليمان إذ ذاك ابن إحدى عشرة سنة. ووجه حكومة داود أن الضرر وقع بالغنم فسلم بجنايته إلى المجنى عليه ، كما أن العبد إذا جنى مثل قيمته أو أكثر بلا أمر صاحبه ، فالمجنى عليه يأخذ العبد له ، عند بعض أصحابنا . وبه قال أبو حنيفة . وزاد : أو يفديه صاحبه .

وقال الشافعى : يبيعه فى ذلك أو يفديه .

وقال بعض أصحابنا : الخيار له يدفعه أو قيمته ، وإن أمره لزمه كل ما فعل .

قال جار الله : ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث .

ووجه حكم سليمان أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يرجع كما كان ، بناء على أنه بقيت أصوله ، أو يجدد حرثا يربيه ، حتى يصير كذلك ، وصاحب الحرث لم يأخذ زيادة ؛ لأنه ولو كان قد رجع حرثه ، واستنفع بالغنم ، لكنه قد يفنى بالغنم ، كما أن من غصب عبدا ، وأبق من يده ، يرد قيمته إلى صاحبه ينتفع بها . فإذا رجع ترَادّا ، عندنا وعند الشافعى .

وعن الشيخ هود ـ رحمه الله ـ عن الكلبى : أن ثمن الحرث قريب من ثمن الغنم . ونص الشيخ هود ـ رحمه الله ـ أن داود لما دعا سليمان، ودخل عليه واستفتاه قال: قد عدل النبى وأحسن، وغيره كان أرفق. وذكر له ما مر ولا يخفى ما فيه من لطف وأدب .

وروى عن الكلبى : الحرث كان تبنا .

وقال ابن مسعود وشريح : إن راعيا نزل ذات ليلة قريبا من كرم ، فدخلت الأغنام الكرم ولا يشعر ، فأكلت القضبان ، وأفسدت الكرم قاله فى عرائس القرآن ، وذكر فيه أن ابن عباس وقتادة قالا : كان الحرث زرعا ، وجعل تلك القصة منه . وكذا غالب القصص أنقلها منه ، ومؤلفه الثعلبى ، وهو غير ثعلب ، وغير الثعالبى . وهو مجموع عظيم فى القصص فقط

وإن قلت : فما الحكم فى مثل ذلك إن وقع بالإسلام ؟

قلت : مذهبنا ـ معشر الأباضية ـ أن ما أفسد الحيوان قل أو كثر ، فى مال ، أو نفس ، يضمنه صاحب الحيوان إلا إن عقر حيوانا آدميا أو غيره ، ولم يعرف أنه يعقر ، فلا ضمان إلا أن يعود وإن عرف أنه يعقر فى صنف ، فعقر فى غيره ضمن .

وقيل : لا حتى يعود .

وإن هربت دابة فأفسدت فى هروبها فلا ضمان إن لم يصح عليها .

وقيل : وإن صاح وإن نطحت فيما يربط فيه مثلها فقطعته لم يضمن .

وقيل : ما أفسده الحيوان ليلا ضمن صاحبه ، ولا ضمان عليه فيما أفسدت نهارا .

وروى أن ناقة البراء بن عازب وقعت فى حائط رجل من الأنصار أفسدت ،

فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: لا أجد الحكم إلا قضاء سليمان بن داود.
وقضى على أهل المواشى بحفظها ليلا، وعلى أهل الحوائط بحفظ حوائطهم نهاراً.
وبذلك يحكم شريح، وهو مذهب الشافعى وشيخه مالك، وجمهور الأمة
ووجهه أن النهار وقت لرعيها.

وقال ابن سحنون من علماء الأندلس: ذلك فى أمثال المدينة التى هى
حيطان، وأما البلاد التى هى غير محوطة، فعلى أصحاب الغنم فيها الضمان ليلا
ونهاراً.

وعن مالك أن الدواب المعتادة أن تأكل الزرع والثمار تباع فى بلد لا زرع
فيه. قال ابن حبيب: وإن كره أصحابها. وأما ما يستطاع الاحتراز منه، فلا يؤمر
صاحبه بإخراجه من ملكه.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا ضمان بالدابة إلا أن يكون معها سائق أو قائد.
وعن أبى رحمة من أصحابنا — رحمهم الله — فى من أفسد غرسة: إن تم لها
سنة فعليه دينار، أو سنتان فديناران، أو ثلاث فثلاثة، أو أربع فأربعة أو خمس
فخمسة. وما زاد فبقيمته.

وفى زرع دخلته ماشية قوم بين غنم وجمال وبقر ودواب فوطئته بأرجلهن إلا
عشر شياه بدرهم، ولكل جمل أربعة دراهم، ولكل ثور درهم، ولكل ذى حافر
درهم ونصف.

وقيل: فى الفرس ثلاثة دارهم.

ومن أحكام داود وسليمان — عليهما السلام — ما روى أن النبى ﷺ قال:
« بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى
داود، فقضى به للكبرى. فخرجتا فدعاهما سليمان. فقال: هاتوا السكين أشقه

يبكياً . فقالت الصغرى : يرحمك الله ، هو ابنها . لا تشقه . فقضى به للصغرى ؛ أى استدلالاً بشفقتها . والله أعلم .

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) حال من الجبال ، أو مستأنف . أقدرها الله على التسبيح : يقلن : سبحان الله . هذا قول الأكثرين .

وروى أنه كان يمر بالجبل يسبح ، فيجاوبه الجبل بالتسبيح . وفى ذلك تنشيط له .

وقال منذر بن سعيد : تسبيح الصلاة .

وقيل : تسبيح الجبال وإذا مر سمع تسبيحها فينشط .

وقيل : إن الجبال تسير معه ، فمن رآها تسير ، سبح تعظيما لقدرة الله . ولما كانت حاملة على التسبيح وسببا له ، جعلت مسبحة .

وقيل : التسبيح : السير من السباحة . شبه سيرها ؛ لأنه ليس كالسير فى الماء .

وقيل : يسبحن بلسان الحال ، أو بصوت من غيرها يتمثل له . و « مع » يتعلق بيسبحن أو سخرنا .

(وَالطَّيْرَ) مفعول معه ، أو معطوف على الجبال .

وقرئ بالرفع على الابتداء أو عطفا على الضمير المرفوع المتصل ، وهو نون يسبحن بلا فاصل ، وعلى الابتداء ويقدر الخبر هكذا : أى والطير كذلك ، أو تسبح .

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ) ذلك وأمثاله . وليس ببدع فى قدرتنا وإن كان عجيبا عندكم .

وقيل : وكنا فاعلين مثل ذلك للأنبياء .

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ) واللبوس : الدرع ؛ لأنها تلبس فهو كقولك : حلاقة ركوب . وهو أول من صنعها ، وكانت قبل ذلك صفائح ، فخلقها وسردها .

ويحتمل أن يكون اللبوس بمعنى مطلق اللباس ، ولو كان المراد الدرع فلا يكون كحلاقة ركوب ، بل كجمل ركوب . وكان الحديد فى يده كالطين يصنع منه الدرع للحرب بلا نار . وفى صنعها جمع الخفة والتحصن .

(لَكُمْ) فى جملة الناس ، متعلق بعلمناه ، أو بمحذوف نعت لبوس .

(لِيُحْصِنَكُمْ) أى ليحصنكم داود ، أو ذلك اللباس الملبوس ، على طريق جمل ركوب ، أو ليحصنكم الدرع اللبوس . وذكرت لتأويلها باللباس .

وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء ، أى لتحصنكم الدرع اللبوس أو اللباس ؛ لتأويله بالدرع ، أو لتحصنكم الصنعة .

وقرأ أبو بكر وورش بالنون .

وقرئ بتشديد الصاد وفتح الحاء ، قبلها مثناة تحتية .

والحصن والتحصين : المنع لكن فى الثانى مبالغة ، وليحصنكم بدل من لكم بدل اشتمال .

(مِنْ بَأْسِكُمْ) حرب عدوكم أو وقع السلاح فيكم .

قال بعضهم : وقيل : ليحصنكم الله ، يعنى على طريق الالتفات

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) والخطاب فى ذلك كله لهذه الأمة ، أو لجملة الناس بعد داود وأهل بيته .

وظاهر اللفظ استفهام . والمراد : الأمر بالشكر ، وفى ذلك مبالغة وتقريع .

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) عطف على معمولى عامل ، أى وسخرنا لسليمان الريح .

وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر .

وقرئ الرياح بالنصب والرفع .

قال القاضى : ادة اللام فيه دون الأول ؛ لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له . وفى الأول أمر يظهر فى الجبال والطير مع داود بالإضافة إليه . انتهى .

قيل: الريح جسم لطيف ، يمنع لطفه من القبض عليه ، يظهر الحس بحركته.

(عَاصِفَةً) حال من الريح ، فى قراءة النصب ، ومن ضميرها فى قوله : لسليمان ـ فى قراءة الرفع ، أى شديدة الهبوب . وإذا أراد لانت كما قال : رخاء .

وقيل : تحمل بساطه ومن معه فيه من الأرض ، وهى عاصفة وتسير بهم لينة .

ويصح أن يقال: عاصفة ، من حيث عملها ، إذ كان غدوها شهراً ، ورواحها شهراً ، ورخية : طيبة فى نفسها .

قيل : ويحتمل أن يكون العصوف فى الرجوع ، على عادة الدواب فى الإسراع إذا رجعت ، واللين فى الذهاب ، فإنه وقته تأن وتدبر ما يصلح .

(تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) هى الشام وهو منزله ، وجريها به إليها جرى رجوع بعد ذهاب .

وقيل : الأرض هنا هى التى سبق فى علمه أن تكون فيها البركة ، فيمشى إليها سليمان عليه السلام ، يصلحها . والجملة حال ثانية ، أو حال من ضمير الأولى ـ قيل : أو بدل منها .

قال زيد بن ثابت بينما نحن حول رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع ، إذ قال : طوبى لأهل الشام .

قيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟

قال : لأن ملائكة الرحمة باسطة أجنحتها عليهم .

وعن عبد الله بن حوالة . قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله فيكم أرض فارس والروم وأرض حمير . ثم تكونوا أجناداً ثلاثة : جند بالعراق ، وجند باليمن ، وجند بالشام .

فقلت : أخبرنى يا رسول الله إن أدركنى ذلك أين أكون ؟

قال : أختار لك الشام ، فإنها صفوة الله من بلاده ، وإليها يلتجىء صفوة الله من عباده . يا أهل الإسلام عليكم بالشام وأهله .

وعن عبد الله بن مسعود قال : الخير عشرة أجزاء : تسعة بالشام ، وواحد بالعراق . ودخل الشامَ عشرةُ آلاف عين رأت رسول الله ﷺ ، فيهم سبعون بدرياً .

وعن الكلبى : صعد إبراهيم جبل لبنان . فقيل : انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك من بعدك ، فذلك قوله عز وجل : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى أن تسكنوها .

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : قيل : ما تنقص الأرض تراه بالشام ، وما تنقص الشام تراه بفلسطين . وذكر أن وهب بن منبه قال : بينما سليمان ـ عليه السلام ـ يسير على ساحل البحر ، والريح تحمله ، والإنس عن يمينه ، والجن عن شماله ، والطير تظله ، إذ نظر إلى أمواج البحر ، فدعته نفسه أن يعلم ما فى قعر البحر فأمر الريح فسكنت .

ثم قعد على كرسى مُلكه ، ثم دعا رئيس الغواصين فقال : اختر لى من أصحابك مائة ، فاختار مائة .

قال : اختر لى ثلاثين منهم فاختار .

ثم قال : اختر لى من الثلاثين عشرة ، فاختار .

ثم قال : اختر لى من العشرة ثلاثة ، فاختار .

فقال لأحدهم : غص حتى تنظر قعر البحر ، وتأتينى بالخبر . فغاص وأبعد .

ثم خرج فقال له سليمان ـ عليه السلام ـ : ما الذى رأيت ؟

قال : رأيت يا نبى الله أمواجا وحيتانا وبنيانا ، غير أنى رأيت ملكا .

فقال لى : أين تريد ؟

فقلت : إن نبى الله سليمان بعثنى أنظر قعر البحر .

قال : ارجع إليه ، واقرأه منى السلام ، وقل له : إن قوما ركبوا البحر منذ أربعين سنة ، فسقط من أيديهم قدوم ، فهو يتلجلج فى البحر ما بلغ قعره بعد .

قال : فتعجب من ذلك وأتى بما قصد . فبينما هو على شاطىء البحر ، رأى قبة من زجاج ، تضربها الأمواج فى لجة البحر .

فقال سليمان ـ عليه السلام ـ : غوصوا فى أثرها ، فغاصوا فأخرجوها .

فلما وضعت على ساحل البحر انفتح لها بابان ، أى مصراعان .

فخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن ، كأن رأسه يقطر ماء .

فجاء حتى وقف بين يدى سليمان . فقال له : أمن الجن أنت يا فتى ؟ أم من الإنس ؟

فقال : من الإنس . فعجب منه ومن هيئته .

فقال : ما بلغ بك ما أرى ؟

قال : يا نبى الله كانت لى والدة ، وكنت من أبر الناس بها ، أطعمها وأسقيها بيدى ، ولا أترك شيئا من صنائع البر إلا صنعته بها .

فلما أدركتها الوفاة سألتها أن تدعو لى . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا رب قد عرفت برّ ولدى ، فارزقه العبادة فى موضع لا يكون لإبليس وجنوده إليه سبيل فيه . ثم ماتت ودفنتها .

فلما خرجتُ إلى الساحل إذا أنا بهذه القبة فدعتنى نفسى أن أدخلها . فلما دخلتها انطبق علىّ بابها ، وتزاخرت الأمواج بها .

فقال له : من أين مطعمك ومشربك ؟

فقال له : يا نبى الله إذا كان الليل جاءنى طائر أبيض فى منقاره شىء أبيض، فيدفعه إلىّ ، فهو يغنينى من الطعام والشراب .

فقال : من أين تعرف الليل والنهار وأنت فى ظلمات البحر ؟

قال : فى القبة خطان : خط أبيض ، وخط أسود . فإذا رأيت الأبيض غالباً علمت أنه النهار ، وإذا رأيت الأسود غالباً علمت أنه الليل . وقال له : هل لك فى صحبتنا ؟

فقال : يا نبى الله ائذن لى حتى آتى قبتى . فأذن له ، فانطبق عليه بابها ، وتزاخرت بها الامواج ، والله أعلم .

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) نجرى الأشياء على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا فما أعطى سليمان يدعوه إلى الخضوع لربه .

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : عن مجاهد وابن إسحاق وابن بشار وغيرهم . كان سليمان ـ عليه السلام ـ رجلا غزّاء ، لا يكاد يقعد عن الغزو . وكان لا يسمع بملك إلا اتاه وأذله وقهره . وإذا أراد الغزو بعسكره يضرب له ، بحيث يحمل عليها الناس والدواب وآلة الحرب . وما يحتاج ، أمر العاصفَ تحملها عن الأرض ، فيأمر الرخاء

قال ابن إسحاق : ذكر لى أن منزلا من ناحية دجلة ، وجد مكتوب فيه : كتبه بعض أصحاب سليمان من الجن ، أو من الإنس : نحن نزلناه وما بنيناه . غزونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون : إن شاء الله بائتون بالشام ، وتمر ريحه الحاملة لذلك بالمزرعة ، ولا تحركها ، ولا تحمل ترابا ، ولا تؤذى طائرا .

ومر يوما بحراث فقال : لقد أوتى ابن داود ملكا عظيما . فحملت الريح كلامه ، وألقته فى أذن سليمان . فنزل مأتى الحراث . فقال : إنى سمعت كلامك . وإنما مشيت إليك ، لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه . تسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتى آل داود .

فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همى

وعن مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان بساطا ، فرسخا فى فرسخ ، ذهبا فى إبريسم . ويوضع له منبر من الذهب ، فى وسط البساط ، فيقعد عليه ، وحوله ثلاثة آلاف كرسى ، الأنبياء على كراسى الذهب ، والعلماء على كراسى الفضة . وحولهم الإنس ، وحولهم الجن . وحول الجن الشياطين . وتظلهم الطير بأجنحتها ، لا تقع عليهم الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط .

وكان فى عسكره خمسة وعشرون فرسخا للإنس ، وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة حرة ، وسبع مائة سرية ؛ تحمل الريح ذلك .

وبينما هو تمشى به الريح بين السماء والأرض إذ سمع : إنى قد زدت فى ملكك : أن لا يتكلم أحد من الخلائق إلا أخبرتك الريح بما قال . وهذه الريح عوض عن الخيل التى عقرها غضبا لله ؛ إذ شغلته عن العصر . وكان يغزو من إيليا فيقيل بإصطخر ،

فيروح منها ويصل إلى كابل فى الغروب . وسار يوماً من العراق . وقال فى بلخ ، وسار متخللا بلاد الترك ، ثم جاوزهم إلى الصين إلى غير ذلك .

وروى أن سليمان كان يصنع نيروزا فاجتمع إليه جميع الإنس والجن والطير والوحوش والهوام . كل يحمل على طاقته . وإذا نملة تحمل فى فيها نبقة ، لم تطق أن تحمل غيرها فلم يعبأ بها سليمان - عليه السلام - فانكسرت وذلت ، وأنشأت تقول :

على العبد حق وهو لا شك فاعله … وإن عظم المولى وجلت فضائله

ألم ترنا نهدى إلى الله حقه … وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله

فلو كان يهدى للجليل بقدره … لقصر ماء البحر عنه مناهله

ولكننا نهدى إلى من نحبه … ولو لم يكن فى وسعنا ما يشاكله

فلما فرغت من إنشادها نزل عليه جبريل - عليه السلام - فقال له : ربك يقرؤك السلام ويقول لك : اقبل هديتها ، فقد أبكت أهل السموات والأرض . فقبل منها ﷺ . على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ) مبتدأ وخبر ، أو مَن مفعول ، أى وسخرنا من الشياطين من يغوصون له ، على الاستئناف ، أو معطوفة على الريح ، وهى نكرة موصوفة ، أى شياطين غائصة ، أو موصولة . والجمع مراعاة لمعنى مَن .

والغوص : الدخول فى الماء ، كانوا يأتون له بالجواهر النفيسة وغيرها من قعر البحر .

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ) كالبناء والصنائع العجيبة ، كاتخاذ الزجاج والصابون .

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) عن أن يفسدوا ما عملوا ؛ لأنهم كانوا إذا فرغوا

من عمل قبل الليل أنسدوه ، إن لم يشغلوا بغيره ، وعن أن يخرجوا عن أمره ، وعن أن يفسدوا شيئا ما ، ومقتضى جبلتهم على الفساد ، وعن أن يقصروا فى الصنعة والخدمة .

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ) أى بأنى .

وقرأ إنى بكسر الهمزة تضمينا للنداء معنى القول ، أو تقديرا للقول .

والضر ، بالضم : ما فى النفس من مرض أو هزال أو نحوهما ، وبالفتح شائع فى كل ضرر . فالضر هنا : مرضه وهزاله وانتشار لحمه .

وقيل : المضموم كالمفتوح . وقد فسره بعض هذا بما ذكر ، وذهاب أولاده وماله ، وتفرق الناس عنه غير زوجته . بقى كذلك ثمانى عشرة سنة .

وقال قتادة : ثلاث عشرة سنة .

وقال مقاتل : سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبع ساعات

وقيل : ثلاث سنين . وهو قول وهب

وقال كعب : سبع سنين .

وقال الحسن : سبع سنين وأشهرا .

وكان ـ عليه السلام ـ من الروم ، من ولد عيص بن إسحاق . وسكن حمزة ياء مسنى ، فتحذف للساكن بعدها .

(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وصف خالقه بغاية الرحمة ، بعد ذكر نفسه بما يقتضى الرحمة ، مما مسه . وذلك تعريض لطيف فى السؤال ، كقول الفقير للسلطان : عندى كذا وكذا ولدا ، وقد بافنى جودك العام .

تعرضت عجوز لسليمان بن عبد الملك وقالت : يا أمير المؤمنين مشت جُرذان بيتى على العصى ، أرادت أن الفئران لم تجد ما تأكل فى بيتها حتى كأنها رجال ضعيفة ، تجرى على العصى .

فقال : ألطفت في السؤال ، لا جرم ، لأردّنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا .

وروى أن امرأته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف ، أو ماخير بنت ميشا بنت يوسف . قالت له : لو دعوتَ الله .

فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟

فقالت : ثمانين سنة .

فقال : أنا أستحيي من الله أن أدعوه ، وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي .

(فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ) نداءه .

(فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) أزلناه . قال أسامة بن زيد: إن رسول الله ﷺ قال : إن لله تعالى ملكاً موكلا بمن يقول : يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثا قال له الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل .

ومر ﷺ برجل يقول : يا أرحم الراحمين .

فقال له ﷺ : سل فقد نظر الله إليك ، أى رحمك .

(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ) أولاده الذكور ، وهم سبعة . وقيل : ثلاثة ، وأولاده الإناث ، وهم سبعة ، أو ثلاثة . القولان : أحياهم بعد موتهم .

(وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) من زوجته . رد شبابها ، وزيد فيه . وذلك قول ابن مسعود وابن عباس والجمهور .

وفى رواية عن ابن عباس : رد الله عز وجل على المرأة شبابها ، فولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا . فإما أن يكونوا قبل ذلك ذكورا ، كلهم ، على نصف هذا العدد ، أو يكونوا ذكورا وإناثا ، أو أقل من النصف . فالمثلية فى الوجهين الأخيرين : فى العدد والجمل ونحوها .

وعن عكرمة : قال الله له : إن أولادك لى الآخرة ، فإن شئت رددناهم إلى الدنيا ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة ، وآتيناك مثلهم فى الدنيا .

فقال : يكونون لى فى الآخرة ، ويكون لى مثلهم فى الدنيا . (رَحْمَةً) مفعول لأجله . (مِنْ عِنْدِنَا) نعت رحمة .

قال الثعلبي فى عرائس القرآن : كان أيوب رجلا من الروم طويلا ، عظيم الرأس ، حسن الشعر ، حسن العينين ، قصير العنق ، غليظ الساقين والعضدين ، مكتوباً على جبهته : المبتلى الصابر .

وهو أيوب بن أموص بن زارح بن عوفان بن روم بن عيص بن إسحاق ابن إبراهيم .

وكانت أمه من ولد لوط بن هارون وكان الله قد اصطفاه ونبأه .

وكان له الثلث من أرض الشام كلها : سهلها وجبلها وكلّ ما فيها .

وكان له من أصناف المال كله : من الإبل والبقر والغنم والحمير وغير ذلك ما لا يكون لغيره .

وكان له خمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد مال وامرأة وولد . ويحمل آلات كل فدان أتان ، ولكل أتان ولد أو ولدان إلى خمسة وأعطاه الله أهلا وولداً رجالا ونساء .

وكان تقيًّا رحيما بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، شاكراً لأنعم الله ، ممتنعاً عن عدو الله إبليس أن ينال منه ما ينال من أهل الغنى ، من الغرة والغفلة عن الله .

وكان معه ثلاثة نفر ، قد آمنوا به وصدقوه ، وعرفوا فضله : رجل من اليمن ، اسمه الفيزور . واثنان من بلدة تلك وظفر ، وكانوا كهولا .

قال وهب : إن لجبريل م قفاً بين يدى الله ليس لغيره وهو الذى يتلقى السلام ، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه ثم ميكائيل ، وحوله الملائكة المقربون والحافون من حول العرش، فإذا شاع ذلك فى الملائكة ، صارت الصلاة عليه منهم ثم تهبط الصلاة إلى ملائكة الأرض .

وكان إبليس لا يحجب عن شىء من السموات حتى رفع الله عيسى ـ عليه السلام ـ فحجب من أربع ، فكان يصعد فى ثلاث فلما بعث الله نبينا محمدا ﷺ حجب من الثلاثة أيضاً .

وهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلا من استرق السمع . فلما سمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب والثناء عليه ، أدركه البغى والحسد ، وصعد سريعاً حتى وقف موقفاً كان يقفه . فقال: يا إلهى نظرت إلى عبدك أيوب ، فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، لم تبله بشدة ولين ، ضربته ببلاء ليكفرن بك وينساك .

فقال له : انطلق إليه ، فقد سلطتك على ماله .

فانطلق وجمع العفاريت فقال : ما عندكم من القوة ؟ فإنى قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة والفتنة التى لا يصبر عليها الرجال ؟

قال عفريت : أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار ، وأحرقت كل شىء آتى عليه .

قال إبليس : فائت الإبل ورعاتها .

فانطلق إلى ذلك ، ووجدها وضعت رءوسها فى مراعيها ، ولم يشعر الناس حتى ثارت من الأرض إعصاراً من نار . فنفخ فيها ريح السموم فأحرقها ورعاتها .

ولما فرغ إبليس على قعود منها ، وانطلق إلى أيوب فوجده يصلى . فقال : يا أيوب .

قال : لبيك .

قال : هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترته وعبدته بإبلك ورعاتها ؟

قال أيوب : إنها ماله أعارنيه ، وهو أولى به .

فقال إبليس : أرسل إليها ناراً من السماء فأحرقت .

فمن الناس من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا فى غرور .

ومن يقول : لو كان إله أيوب يقدر على أن يمنع شيئاً لمنع عن وليه .

ومن يقول : أفعل به ربه ذلك ليشمت به عدوه ، ويفجع به صديقه ؟!

فقال أيوب : الحمد لله حين أعطانى ، وحين نزع منى . عرياناً خرجت من بطن أمى ، وأعود إلى القبر بلا مال ، وعرياناً أحشر إلى الله . ليس لك أن تفرح حين أعارك ، ولا أن تجزع حين رد العارية . ولو علم فيك خيراً لنقلك مع تلك الأرواح ، كذا قال .

والخطاب للرجل الذى تمثل به إبليس . وهو مشكل ، فإنه إنما يقول : لو علم فيك خيراً لنقلك مع تلك الأرواح ، لو كان مؤمناً ، ولعل الخطاب لنفسه فرجع إبليس - أبعده الله - خائباً ذليلا . فقال لأصحابه : ما عندكم ؟

فقال عفريت : عندى ما إذا شئت صحت بصوت لا يسمعه ذو روح إلا مات .

فقال له : إيت الغنم ورعاتها .

فانطلق وتوسطها وصاح ، وماتت ورعاتها ، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب ، وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الأول ، ورد عليه أيوب كرده الأول .

فرجع إلى أصحابه . فقال لهم : ما عندكم فإنى لم أكلم قلب أيوب ؟

فقال عفريت : عندى ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل ما مرت عليه

فقال له : إيت الفدادين ، فأتاها ريحاً نسفت كل ما فيها من بذر وتراب .

فخرج إبليس - أبعده الله - متمثلا بقهرمان الحرث ، فجاء أيوب ، وهو يصلى ، فقال له كما مر ، وأجابه بما مر ، وجعل يصيب أمواله مالا مالا ، كلما أتاه هلاك مال حمد الله ، وأثنى عليه ، ولم يبق له مال . فلما رأى إبليس - لعنه الله - قد أفنى ماله ولم يقل شيئاً شق ذلك عليه ، وصعد سريعاً ، حتى وقف الموقف الذى يقفه فقال : اللهم إن أيوب يرى أنه إذا متعته بنفسه وولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطى على ولده ؟ فإنهم الفتنة المضلة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب .

فقال الله سبحانه : قد سلطتك على ولده ، فجاءهم فى قصورهم فزلزلها بهم ، ووقعت عليهم .

فجاء إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى يعلمهم الحكمة ، مخدوش الوجه ، سائل الدموع فقال : لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف نكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وأفواههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم ، لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق قلب أيوب ، فبكى

فوضع قيل : قبضة من التراب على رأسه ، فاغتنم إبليس ، فصعد سريعاً بجزع أيوب ، ثم تفكر أيوب وتاب . فسبقت ملائكته بتوبته إبليس .

فوقف خاسئاً فقال : يا إلهى إنما هوّن على أيوب ماله وولده ، أنه يرى أنك إذا متعته بنفسه أعدت له المال والولد ، فهل أنت مسلطى على بدنه ؟

فقال : قد سلطتك عليه إلا لسانه وقلبه ، فأسرع إليه ، فوجده ساجدا ، فجاءه من تحت الأرض ، فنفخ فى منخره نفخة ، فخرج من قرنه إلى قدميه ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت به حكة لا يملك منها ، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حك بالمسوح الخشنة ، فلم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير وأنتن .

فأخرجه أهل القرية ، وجعلوه على كناسة لهم ، وجعلوا له عريشا ، ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب وكانت تختلف بما يصلحه ويكرمه .

لما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه من غير أن يتركوا دينه .

فلما طال عليه البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له : تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به . وحضر معهم فتى حديث السن ، وقد كان آمن به فقال : إنكم تكلمتم أيها الكهول ، ولم تدروا حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومَن الرجل الذى اتهمتم ؟

ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض ؟ ولم تعلموا أن الله سخط شيئا من أمره ، منذ آتاه الله النبوة . فإن كان البلاء هو الذى أزرى بكم عنده ، ووضعه فى أنفسكم . وقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وليس بلاؤه لأوليائه على سخط عليهم ، ولا هوانهم عليه ، ولكنها كرامة ، وخير لهم . ولو كان أيوب على غير هذه المنزلة إلا أنكم صحبتموه ، فليس للحليم أن يعزل عن أخيه عند المصيبة ، ولا أن يعيب ما لم يعلم ، بل يرحمه ويبكى معه ويستغفر . فالله فالله أيها الكهول ، قد كان لكم فى عظمة الله ما يقطع ألسنتكم ، ويسكن قلوبكم . ألم تعلموا أن لله عبادا سكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم ، وإنهم لهم الفصحاء النبلاء ،

العالمون بالله وآياته ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله ، انقطعت ألسنتهم ، واقشعرت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاما لله ، وإعزازا وإجلالا ، يستبقون إلى الله بالأعمال الزاكية ، يعدون أنفسهم مع الخاطئين المفرطين ، لا يستكثرون لله الكثير ، ولا يرضون له بالقليل ، ولا يُدِلُّون عليه بالأعمال ، فهم ورعون خاشعون .

فقال أيوب : إن الله يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير . فمتى نبتت فى القلوب أظهرها الله على اللسان . وليست الحكمة من قِبَل السن والتجربة فإذا جعل الله العبد حكيما فى الغيوب ، لم تسقط منزلته عند الحكماء ، وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة .

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال : أتيتمونى غضابا قبل أن تُستغضبوا ، ورهبتم قبل أن تُسترهبوا ، وبكيتم قبل أن تُضربوا . كيف بكم لو قلت لكم : تصدقوا عنى بأموالكم ، لعل الله يخلصنى ، أو قربوا عنى قربانا لعل الله يتقبله ويرضى عنى ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم ، ولكم عيوب سترها الله بالعافية ، وقد كنت موقرا مسموع الكلام ، وليس لى اليوم رأى ، ولا كلام معكم . أنتم اليوم أشد من مصيبتى .

ثم أعرض عنهم . فقال : يا رب لأى شىء خلقتنى . ليتنى إذ كرهتنى لم تخلقنى . يا ليتنى كنت حيضة ألقتنى أمى ، ويا ليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت ، فصرفتَ عنى وجهك . لو أمتنى وألحقتنى بالموتى كان أجمل لى .

إلهى ألم أكن للغريب والمسكين قرارا ، ولليتيم وليا ، وللأرامل قيما ؟

إلهى أنا عبد ذليل ، إن أحسنت فالمنة لك ، وإن أسأت فالعقوبة بيدك ، جعلتنى للبلاء غَرَضا ، وللفتنة نُصُبا ، وقد وقع علىّ بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله .

إلهي تقطعت أصابعي ، فلا أرفع أكلة إلى فمي إلا على الجهد .

إلهي تساقطت لهواتي ولحم رأسي فما بين أذنيّ من شيء ، حتى إن إحداهما لترى من الأخرى ، وإن دماغي ليسيل من فمي .

إلهي تساقط شعر عيني وحدقتاي مائلتان على خدي ، وَوَرِمَ لساني فيّ ، حتى ملأ فمي ، فما أدخل فيه طعاماً إلا غَصَّني ، وَوَرِمَت شفتاي حتى غطت العليا أنفي ، والسفلى ذقني ، وتقطعت أمعائي في بطني ، وإني لَأُدْخِلُ الطعام فيخرج كما دخل ، ولا يدفعني .

إلهي ذهبت قوة رِجْلَيَّ فلا تحملاني ، وذهبَ المال ، فصرت أسأل بكفي ، ويُطعِمُني مَن كنت أمونه ، وأُعَيَّر بهلاك أولادي ، ولو بقي واحد أعانني على بلائي .

إلهي مَلَّني أهلي ، وعقني أرحامي ، وتنكَّرت إليَّ معارفي ، ورغب عني صديقي ، وقطعني أصحابي ، وجُحِدت حقوقي ، ونُسِيَت صنائعي . أصرخ فلا يُصْرِخونِي ، وأعتذر فلا يعذروني ، وأدعو غلامي فلا يجيبني ، وأتضرع لأمَتي فلا ترحمني . كذا قيل ، ولعله تمثيل للإهانة ، وإلا فلا غلام ولا أمَة له إذ ذاك ، وإن قضاءك هو الذي أذلني ، وسلطانك هو الذي أسقمني وأنحلَ جسمي ، فلو أطلق لساني حتى أتكلم .

ثم قال : لو كان ينبغي للعبد أن يحاجج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ، ولكنه ألقاني فهو يراني ولا أراه ، ويسمعني ولا أسمعه .

قال ذلك أيوب ، وأصحابه عنده ، فأظلته غمامة ، حتى ظنوا أنه عذاب ؛ فنادته الملائكة منها ، أو خلق الله فيها كلاما : يا أيوب إن الله قريب معك في كل حين ، فأدل بعذرك ، وتكلم ببراءتك ، وخاصم عن نفسك ، واشدد عليك

إزارك ، وقم مقام جبار ، فإنه لا ينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى إلا من يجعل السخال فى فم العنقاء ، واللخام فى فم التنين ، ويكيل مكيالا من الريح ، ويصر صرة من الشمس ، ويرد أمس . لقد منت نفسك أمراً ما يبلغ بمثلك ، أم أردت أن تكابرنى بضعفك ، أو تخاصمنى بعيك أو تحاجنى بخطئك ؟

أين أنت يوم خلقت الأرضين ؟ هل علمت بأى مقدار قدرتها ؟ أم على أى شىء وضعت أساسها ؟ وكم قدرها وبعد زواياها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ؟ أم بحكمتك كانت الأرض غطاء للماء .

أين أنت يوم رفعت السماء سقفاً ؟ وهل يختلف بأمرك ليلها ونهارها ؟

أين أنت يوم سخرت البحار ، وفلقت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحر على حدودها ؟ أم فتحت الأرحام ؟

أين أنت يوم خلقت البهموت ، وجعلت مكانه فى منقطع الثرى ؟

وأين أنت يوم خلقت الجبال ؟ وهل تدرى بأى مقدار وزنت ؟ وعلام أرسيت ؟ وهل لك ذراع تحملها بها ؟ وهل تدرى من أين الماء ؟ وممّ أنشئت السحاب ؟ أين خزانة الثلج ؟ أم من جبل البرد ؟ وأين خزانة الليل بالنهار ؟ وخزانة النهار بالليل ؟ وأين خزانة الريح ؟

وبأى لغة تتكلم الأشجار ، ومن جعل العقول فى أجواف الرجال ؟ وشق الأسماع والأبصار ؟ ومن ذلت للملائكة لملكه ؟ وقسم الأرزاق بحكمته ؟

أين أنت يوم خلقت التنين رزقه فى البحر ، ومسكنه فى السماء ، وعيناه تتوقدان نارا ، ومنخراه يثوران دخانا ، وفوه يثور منه نار ، جوفه يحترق ، ونفسه يلتهب وزبده جمر كالصخور ، وصرير أسنانه كأصوات الصواعق ، ونظر عينيه كلمع البرق ،

والحديد عنده كالتبن ، والنحاس كالخيط يسير فى الهواء كالعصفور ، ويهلك كل ما مر عليه . هل أنت آخذه وواضع اللجام فى شدقه ؟ هل تحصى عمره ؟ هل تدرى ما خرب من الأرض ؟ وماذا يخرب فيما بقى من عمره ؟ أتطيق غضبه حين يغضب ؟ أم تأمر فيطيعك .

قال أيوب : إلهى قصرت عن هذا الأمر الذى عرض على . ليت الأرض انشقت لى فذهبت فيها ، ولم أتكلم بشىء يسخط ربى . اجتمع على البلاء ، وقد علمت أن ذلك كله صنعك ، وأعظم منه . ولا تخفى عنك خافية ، ولا يعجزك شىء . وقد علمت فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم ، وخفت أن يكون أمرا أكثر مما كان . إنما كنت أسمع بصوتك ، والآن شاهدت .

تكلمتُ حين تكلمتُ لتعذرنى ، وسكتُّ حين سكتُّ لترحمنى كلمة زلت على لسانى فلن أعود ، وقد وضعت يدى على فىّ ، وعضضت على لسانى ، وألصقت بالتراب خدى ، ودسست فيه وجهى لصغارى ، فما غفر لى ما قلت . فلن أعود لشىء تكرهه منى . واستجرتك من جهد البلاء . فأجرنى ، واستعنت بك من عقابك فأعنى ، وتوكلت عليك فاكفنى ، واعتصمت بك فاعصمنى .

فقال الله : يا أيوب نَفَذَ فيك حكمى ، وسبقت رحمتى غضبى . قد غفرت لك ورحمتُك ، ورددت عليك أهلك ومالك ، ومثلهم معهم ، لتكون لمن خلفك آية ، وعبرة لأهل البلاء ، وعزاءً للصابرين .

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فيه شفاء ، وقرّب عن أصحابك قربانا ، واستغفر لهم ؛ فإنهم قد عصونى فيك . فغسل وأقبلت امرأته تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فولهتْ وقالت : ياعبد الله هل لك بالرجل المبتلَى الذى كان هاهنا ؟

فقال لها : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟

قالت : نعم . ومالى لا أعرفه !

وتبسم . وقال لها : أنا هو . فعرفته لما تبسم ، فاعتنقته .

قال ابن عباس : فو الذى نفسى بيده ما فارقته من عناقه ، حتى مر بهما ما كان لهما من المال والولد .

وعن أنس عن رسول الله ﷺ : إن أيوب نبى الله لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوته يغدوان إليه ويروحان .
فقال أحدهما لصاحبه : والله لقد أذنب أيوب ذنبا ، ما أذنبه أحد من العالمين .

فقال له صاحبه : وما ذاك ؟

فقال : منذ ثمانى عشرة سنة ، لم يرحمه الله .

ولما راحا إلى أيوب ، ذكر الرجل ذلك له . فقال أيوب : ما أدرى ما تقول غير أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتى ، فأكفر عنهما كراهة أن يذكرا الله تعالى فى حق .

قال : وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ منزله . ولما كان ذات يوم أبطأ عنها . وذلك أنه أوحى الله تعالى إليه : اركض برجلك . فاستبطأته متلفتة لتنظر ما شأنه ، فأقبل عليها وقد أذهب الله عنه ما أصابه من البلاء ، وهو أحسن مما كان . ولما رأته قالت له : هل رأيت نبى الله هذا المبتلى ؟

قال لها : إنى أنا هو .

وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين أفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب حتى فاض ، والأخرى على أندر الشعير الفضة حتى فاض .

وروى أن الله بعث إليه ملكاً وقال : إن ربك يقرؤك السلام بصبرك ، فاخرج إلى أندرك . فخرج إليه ، فأرسل الله إليه جرادا من الذهب ، فطارت واحدة ، فأتبعها وردها إلى أندره .

فقال له الملك : أما يكفيك ما فى أندرك ؟

فقال له : هذه بركة من بركات ربى ، ولا أقنع من بركاته .

وعنه ﷺ : بينما أيوب يغتسل عريانا ، مر عليه جراد من ذهب ، فجعل يحشى فى ثوبه . فناداه ربه : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟

قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك .

وعن وهب : لم تكن بأيوب أكلة . وإنما كان يخرج منه مثل ثدى المرأة ثم ينفقع .

قال الحسن : لم يبق له غير امرأته رحمة ، صبرت معه ، تتصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله تعالى معه إذا حمده .

وكان أيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله ، والثناء عليه ، والصبر على ما ابتلاه . فصرخ اللعين صرخة ، جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوب .

فلما اجتمعوا حوله قالوا له : ما جزعك ؟

قال لهم : أعيانى هذا العبد الذى سألت ربى أن يسلطنى على ماله وولده ، فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله تعالى ، ثم سلطت

على جسده ، فتركته كخرقة ملقاة على كناسة ، لم يقربه أحد إلا امرأته ، قد افتضحت من ربي ، واستعنت بكم لتعينوني عليه .

فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذى أهلكت به من مضى ؟

قال : بطل ذلك فى أيوب فأشيروا علىّ .

قالوا : نشير عليك بما أتيت به آدم .

قال : من قِبَل امرأته ؟

قالوا : شأنك بأيوب مِن قِبَل امرأته ؛ فإنه لا يستطيع أن يعصيها ، وليس أحد يقربه غيرها

قال : أصبتم .

فانطلق إبليس إلى امرأته ، فوجدها وهى تتصدق ، فتمثل لها فى صورة رجل . فقال لها : أين بعلك يا أمة الله ؟

قالت : هو ذلك يحك قروحه ، وتتردد الدواب فى جسده . فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع أبداً .

قال الحسن : فصرخت . فلما صرخت علم أنها قد جزعت . وأتاها بسخلة فقال لها : ليذبح هذه أيوب لغير الله ويبرأ . فجاءته وهى تصرخ وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ! ألا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة لغير الله وتستريح .

قال لها أيوب : أتاك عدو الله تعالى فنفخ فيك ؟ ! ويلك . رأيت ما تبكين عليه ، مما كنا فيه من المال والولد والصحة . مَن أنعم بها علينا ؟

قالت : الله عز وجل .

قال : وكم متعنا به ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : فمنذ كم ابتلانى الله تعالى بهذا البلاء ؟

قالت : مذ سبع سنين

قال : ويلك ما عدلتِ ، ولا أنصفتِ ربك . ألا صبرتِ فى هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا فيه من الرخاء ؟! والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة ، حيث أمرتِنى أن أذبح لغير الله . طعامُك وشرابُك الذى تأتينى به علىّ حرام . فاذهبى ولا تأتينى .

ولما رأى أنه لا طعام ولا شراب ، وقصرت امرأته ، خر ساجدا وقال : رب إنى مسنِيَ الضر وأنت أرحم الراحمين .

فقيل له : ارفع رأسك ، فقد استجيب لك . اركض برجلك فركض فخرج ماء ، فاغتسل منه ، وذهب ما به . وشرب وذهب ما فى باطنه .

وقيل : ركض برجله أيضاً ، فنبع فشرب . وجعل يتلفت ، ورأى جميع ما كان له من مال وولد ومثله معه . فقعد فى مكان مشرف ثم إن امرأته قالت : أرأيت إن طردنى إلى مَن أكِلُه ؟ أأَدَعُه يموت جوعاً ، وتأكله السباع ؟! والله لأرجعن . فرجعت للكناسة ولم تجده ، فوجدت الأمور قد تغيرت ، وجعلت تبكى ، وأيوب يراها . فدعاها فقال لها : يا أمة الله ما تريدين ؟

فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذى كان منبوذاً على الكناسة ، ولا أدرى أضاع أم ماذا فُعل به ؟

قال لها أيوب : ما كان منك ؟

فبكت وقالت : بعلى وقال لها : أتعرفينه إذا رأيته ؟

قالت : وهل يخفى على أحد . ثم جعلت تنظر إليه وهى تهابه . قالت : أما إنه أشبه خلق الله بك إن كان صحيحا .

قال : فإنى أنا أيوب . أمرتنى أن أذبح لإبليس ، فأطعت الله ، وعصيت إبليس ـ لعنه الله ـ فدعوت الله ، فرد على ما ترين .

قال وهب : فلما غلب أيوب إبليس ، اعترض امرأته فى موكب عظيم ليس كموكب الناس ، وفى هيئة وجمال ، ليس كجمال بنى آدم فقال لها : أنت صاحبة أيوب المبتلى ؟

قالت : نعم .

قال لها : هل تعرفيننى ؟

قالت : لا .

قال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت . وذلك أنه عبد إله السماء وتركنى . ولو سجد لى سجدة رددت عليه ما كان لكما من مال وولد ، فإنه عندى . ثم أراها إياهم ببطن الوادى الذى لقيها فيه .

قال وهب : وقد سمعت أنه قال : لو كان صاحبك أكل طعاما لم يسم عليه لعوفى .

وفى بعض الكتب أنه قال لرحمة : وإن شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد لك الأولاد والمال ، وأعافى زوجك . فذكرت لأيوب ذلك . فقال : ذلك إبليس ـ عدو الله ـ أراد أن يفتنك عن دينك . وأقسم : لئن عافانى الله لأضربنك مائة جلدة .

وذكر أنه قال له الله : اركض برجلك . فركض فنبع ماء اغتسل به . ولما

اغتسل تطاير من الماء الذى كان يغتسل منه جراد من ذهب ، فجعل يضمه إلى صدره فقال له : ألم أغنك عن ذلك ؟

قال : بلَى ، ولكن من يشبع من بركتك ! ومشى أربعين خطوة ، وأمره أن يركض ، فركض بالأخرى ، فنبع ماء ، وشرب منه .

وظاهر الآية التى فى ص أن الركض واحد ، وكانت امرأته تكسب وتقوته ولما طال الأمر شئمها الناس ، ولم يستعملها أحد . فجزت قرنا من رأسها باعته بر وأتته بثمنه طعاما . فقال لها : أين قرنك فأخبرته .

فقال : رب إنى مسَّنِيَ الضر .

وقيل : قال ذلك لتعرض إبليس لزوجته : أن تسجد له ، ولأمره : أن تذبح لغير الله ، ولأمره : أن يسجد له .

وقيل : لشماتة أصدقائه به .

وقيل : لطرده إياها .

وقيل : لقصد الدود قلبه ولسانه فخشى أن يبقى منقطعا عن الذكر والفكر .

وكانت الدودة . قيل : كالذراع .

وقيل : قال ذلك لما وقعت دودة فردها لموضعها ، وقال لها : قد جعلنى الله طعامك ، فعضته عضة زاد ألمها على ما قاسى من عقر الديدان .

وعن عبد الله بن عمر : كان له أخوان ، فقاما من بعيد لنتنه . فقال أحدهما : لو علم الله فيه خيراً ما ابتلاه . فسمع ذلك ، وما كان شىء أشد عليه من كلامه . فقال : ربى إنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت قط شبعانَ وأنا أعلم بمن كان جائعاً فصدّقنى . فصُدِّق من السماء ، وهما يسمعان . فخر ساجدا لله . فكلام الرجل هو الضر الذى مسه .

كل المصائب قد تمر على الفتى   فتهون غير شماتة الحسّاد
إن المصائب تنقضى أيامها   وشماتة الأعــداء بالمرصاد

قال الجُنَيد : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكثرة النوال .

ومات . قيل : وهو ابن ثلاث وتسعين سنة . وسماه الله صابراً مع قوله : رب إنى مسّنى الضر ؛ لأن قوله هذا ليس بشكوى ، بل دعاء ـ كما مر ـ بدليل « فاستجبنا له » .

وأيضاً إظهار الشكوى ولو للناس مع الرضى بالقضاء ليس جزعاً ، وقد قال ﷺ لجبريل فى مرض موته : أجدنى مغموماً . أجدنى مكروباً .

وقالت عائشة : وارأساه .

فقال : بل أنا وارأساه .

وقيل فى رحمة : إنها بنت يوسف الصديق .

وقيل فى أيوب : إنه من بنى إسرائيل لا من الروم .

وروى أنه إذا وقعت دودة ردّها ، وقال : كلى رزقك ، وأنه دعا حتى مر عليه أعداء له فشمتوا به ، وأنه لما أمطرت عليه سحابة من ذهب ، جعل يجمع ما طار أو بَعُدَ فى ثوبه .

وروى أن الله أذن لإبليس فى هلاك قرابة أيوب ، كما أذن فى أولاده .

وروى أن إبليس ـ لعنه الله ـ قال لأيوب عيانا : اذبح سَخْلة .

قال : لا ، ولا كفاً من تراب .

(وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) اصبروا كما صَبر ، وتثابوا كما أثيب فى الدنيا والآخرة .

ذكر الشيخ هود عن ابن مسعود : أنه لا يبلغ المرء الإشراك بالله حتى يصلى لغير الله ، أو يدعو غير الله ، أو يذبح لغير الله .

وذكر عن الحسن أن الله جل وعلا يحتج على أهل الجمال ـ إذا قالوا : آتيتنا جمالا ، واشغلنا عن العبادة ـ بيوسف . ويقول : جمالكم خير أم جماله ؟

فيقولون : جماله .

فيقول : لم يشغله . وعلى أهل البلاء بأيوب . وعلى أهل الملك بسليمان ـ ويسألهم : مَن أشد ؟ فيقرون . ويقول : لم يشغله ذلك .

وذُكر عن الحسن أنه لم يبلغ شيء فى أيوب مثل قولهم : لو كان نبيًّا ما ابتلى بذلك . ودعا عند سماعه قولهم ذلك : اللهم إن علمت أنى لم أعمل حسنة فى العلانية إلا عملت مثلها فى السر ، فاكشف ما بى من الضر .

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ) قيل : هو إلياس . وقيل : زكريا .

وقيل : يوشع . سمى بذلك لأنه ذو الحظ من الله .

وروى أنه كان لهُ ضِعف عمل الأنبياء فى زمانه ، وضعف ثوابهم .

وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ، وهو يعقوب . وإلياس أو زكريا ، أو هو ذو الكفل . وعيسى ، وهو المسيح ويونس ، وهو ذو النون . ومحمد ، وهو أحمد ﷺ وعليهم أجمعين .

وقيل : ذو الكفل غير نبى ، ولكنْ رجل صالح سمى بذلك لأنهُ تكفَّل بمؤنة عابد تفرغ للعبادة .

وقيل : التجأ إليه رجال مؤمنون فكفلهم .

وقيل غير هذا ، مما تراه قريبا ـ إن شاء الله .

قال الثعلبي في عرائس القرآن : إنه بشر بن أيوب المبتلى ، سماه : ذو الكفل ، وأمره بالدعاء إلى الله ، وأوصاه عند موته . وبعثه الله نبيا ، وأقام بالشام عمره ، وهو خمسة وسبعون عاماً ، وأنه أوصى بعده ابنه عبدان .

قال : روى الأعمش بن المنهال بن عبد الله بن الحارث أن نبياً من الأنبياء قال : من يتكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟

فقام شاب فقال : أنا .

فقال : اجلس . ثم أعاد ، فقال مثل قوله الأول .

فأعاد فقال كذلك .

فقال : تقوم الليل ، وتصوم النهار ولا تفطر ، وتقضي بين الناس ولا تغضب ؟

فقال : نعم . فمات ذلك النبي . فجلس الشاب مكانه ، فوفى بذلك ، فجاءه الشيطان ـ أبعده الله ـ في صورة إنسان ليغضبه ، وهو صائم يريد أن يقيل . فضرب الباب ضربا شديدا .

فقال : مَن هذا ؟

فقال له : رجل له حاجة .

فأرسل إليه رجلا .

فقال له : لا أرضى بهذا الرجل .

فأرسل معه آخر .

فقال : لا أرضى بهذا فخرج إليه ، وأخذ بيده إلى السوق ، فتركه ولم يغضب .

قال : وقال بعضهم : ذو الكفل : بشر بن أيوب ، بعثه الله بعد أبيه إلى أرض الروم ، فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، ثم أمرهم الله بالجهاد ، فضعفوا وقالوا :

إنا قوم نحب الحياة ، ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله ورسوله . ولو سألت الله أن يطيل أعمارنا ، ولا يميتنا إلا إذا شئنا ، لنعبدنه ونجاهدن أعداءه .

فقال لهم : كلفتمونى شططا .

ثم قام وصلى ودعا وقال : إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتنى بجهاد أعدائك ، وأنت أعلم أنى لا أملك إلا نفسى ، وأن قومى سألونى فى ذلك ما أنت أعلم به ، فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى ، وأنا أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك .

فأوحى الله تعالى إليه : أن قد سمعت مقالة قومك ، وإنى قد أعطيتهم ما سألونى ، فلا يموتون إلا إذا شاءوا . فكن لهم منى كفيلا بذلك . فتكفل لهم بذلك ، فسمى ذا الكفل . وكثروا حتى ضاقت بهم الأرض ومعيشتهم . فسألوه أن يرد الله آجالهم ، فكانوا يموتون لآجال مثل آجالهم السابقة قبل . ولذلك كثرت الروم ما لم يكثر غيرهم .

وسموا روما . قيل : لأن جدهم روم بن عيسى بن إسحاق .

وقيل : إن ذلك النبى — وكان من بنى إسرائيل — أوحى الله : إنى أريد قبض روحك ، فاعرض ملكك على بنى إسرائيل ، فمن تكفل منهم بذلك ، فادفع إليه ملكك .

وقيل : لما كبر اليسع قال : إنى أستخلف رجلا على الناس فى حياتى ، أنظر كيف يعمل . فجمع الناس وقال : من يتكفل بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا ، فرده .

فقال ذلك فى اليوم الثانى .

فقال : أنا . . . .

فاستخلفه . فأتاه إبليس فى صورة شيخ ضعيف ، حين أخذ مضجعه للقائلة .

وكان لاينام من الليل والنهار إلا تلك النومة : فدق الباب فقال : مَن هذا ؟

فقال : شيخ كبير مظلوم .

فقام ففتح الباب .

فقال : بينى وبين قوم خصومة ظلمونى وفعلوا . وأطال فى الكلام ، حتى ذهبت القائلة .

فقال : إذا جلستُ فائتِ حتى آخذ حقك . . .

ولما جلس انتظره ، ولم يجىء حتى جلس من الغد وفرغ ، وأخذ مضجعه للقائلة . فدق الباب .

فقال : مَن هذا ؟

فقال : الشيخ المظلوم . ففتح له . فقال : ألم أقل : إذا جلستُ فائتِ ؟

قال : إنهم أخبث قوم . إذا جلست قالوا : نعطيك حقك . وفاتته القائلة .

وقال : إذا جلست فائتِ ولم يأت .

ولما كان اليوم الثالث ، وفرغ ولم يأت ، أخذ مضجعه للقائلة قال لبعض أهله : لا تدَع أحدا يضرب الباب حتى أنام ، قد شق علىّ النعاس . فجاء إبليس ، فلم يأذن له الرجل . ودخل من كوة فاستيقظ فقال : يا فلان ألم آمرك ؟

فقال : أما من قِبَلى فلم تؤت . فانظر من أين أتيت ؟

فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق .

فقال الشيخ : أتنام والخصوم ببابك ؟ فنظر إليه فعرفه فقال : أعدوّ الله ؟

قال : نعم . أعييتنى ونمات ما نمت لأغضبك ، فعصمك الله .

(كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) على الطاعة ، والبلاء ، وعن المعصية .

فإسماعيل صبر على الذبح . وأما إدريس فتقدم من الكلام عليه . وأما ذو الكفل فمر آنفا .

(وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) النبوة والحكمة والجنة .

(إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) للرحمة ، أو من الصالحين فى أنفسهم والصالحون : الأنبياء . وأل للكمال .

(وَذَا النُّونِ) صاحب الحوت ؛ أضيف للحوت لأن الحوت بلعه ، وهو يونس بن متّى .

قال السهيلى : هذا مقام ثناء على يونس ، ولذا عبّر عنه بذو ، بخلاف : (ولا تكن كصاحب الحوت) والإضافة بذو أشرف من الإضافة بصاحب ؛ لأن ذو تضاف إلى التابع وصاحب يضاف إلى المتبوع . انتهى . ولعل هذا غير لازم ، وهو نبى من أهل نينوى .

(إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) لقومه أى غضبان عليهم غضبا شديدا ، مما قاسى منهم من التكذيب وغيره ، ولم يؤذن له فى ذلك سئم بقومه ، وذهب عنهم غضبا ، قبل أن يؤمر .

وقيل : وعدهم بالعذاب غدا ، ولم يأتهم العذاب غدا لتوبتهم ، ولم يعرف بذلك ، وظن أنه يقال فيه : كذب

وغضب من حيث بلغه تكذيبهم إلى هذا المقام ولم يقل : غضبان ، بل مغاضبا ؛ لأنه مفاعِل . والتفاعُل يستعمل كثيراً للمغالبة ، فاستعمل منه مفاعِل هنا ، قصدا للمبالغة ، أو الألف للتعدية ؛ لأنه أغضبهم بالمهاجرة ، لخوفهم لحوق العذاب ، كما يقال : ما شيتُه وسايرتُه .

وقرأ أبو شرف مغضبا بفتح الضاد . ونقل عنه أبو حيّان مغاضَبا بفتحها .

(فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) لن نقضى عليه بما قضينا ، من حبسه فى بطن الحوت . ويدل لهذا أنه قرأ الزهرى والحسن نُقَدِّر بضم النون وفتح القاف وتشديد الدال .

وقرئ يَقْدِر بفتح وسكون القاف وكسر الدال .

وقرأ يعقوب بالياء والبناء للمفعول .

وقرئ بالياء والبناء للمفعول مع التشديد . وفاعل ذى الياء ضمير الله ونائبه : عليه .

وقيل فى المعنى : ذلك هو التضييق ، أو تقدير الله عليهم عقوبة ، أو المراد أنه ظن أن لن تعمل فيه قدرتنا .

وقيل : ذلك من المجاز المركب الاستعارى ، مُثِّلت حاله بحال من يظن أنه لن يقدر الله عليه ، فى مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمرنا ، أو وسوس له الشيطان : أنه لا يقدر عليك ولم تبعه ، ولا كاد يتبعه ، أو يقبل وسوسته ، ولكن سميت ظناً ، للمبالغة والتغليظ عليه ، حيث ذهب ولم يؤمر ، بل أمر قبل ذلك بالصبر على دعائهم ، وظن أن ذلك يسوغ له ، إذ لم يفعل إلا غضباً لله تعالى وبغضاً للكفر وأهله . وتلك المعانى كلها ، يقبلها التخفيف والتشديد .

وإذا رأيت التشديد مستغنى عنه فاجعله لموافقة التخفيف ، أو التوكيد .

وخص بعضهم التفسير ، بأنه ظن أن لن تعمل فيه قدرتنا والتفسير بالمجاز المركب والتفسير بالوسوسة بقراءة التخفيف . وممن فسر الآية بالقَدْر لا بالقُدرة ابن عباس . رُوى أنه دخل على معاوية . فقال معاوية : لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقتُ ، فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك .

قال : وما ذاك يا معاوية ؟

فقرأ الآية فقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه الله ؟

فقال : هذا من القدر لا من القدرة .

وزعم بعضهم أنه غضب لأن العذاب لم ينزل عليهم ، وهو باطل ؛ لأن فيه طرفاً من معاداة الله . وإنما فر سآمة وغضباً لدين الله ـ كما مر ـ أو خشية أن ينسب إليه الكذب ، أو يمسه العذاب ، ولم يؤمر . فذلك ذنبه .

وعن ابن عباس : أن يونس وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك . فسبى منهم سبعة أسباط ونصف ، وبقي سبطان ونصف ، فأوحى الله إلى أشعياء النبي : أن سر إلى حزقيا الملك ، وقل له يوجه نبياً قوياً ، فإني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل ، فقيل .

فقال الملك : فمن ترى ؟ وكان في مملكته خمسة أنبياء .

قال : يونس ؛ لأنه قوي . فدعاه الملك ، وأمره أن يخرج .

فقال : هل أمرك الله بإخراجي ؟ وهل سماني لك ؟

قال : فها هنا أنبياء أقوياء غيري .

فألحوا عليه ، فخرج مغاضباً الملك والأنبياء والقوم ، وأتى بحر الروم فركبه .

وقيل : خرج من قومه لما لم يؤمنوا ، وكان عندهم عادة أن يقتلوا الكاذب .

وقيل : اعتذاراً هذا مد إيمانهم .

وعن ابن عباس : أتى جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم .

فقال : ألتمس دابة .

قال : الأمر أعجل من ذلك . فغضب وانطلق إلى السفينة .

قال وهب : كان في خلق يونس ضيق ، فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ، فقذفها من يده ، وخرج هارباً منها . ولذلك أخرجه الله من أولى العزم ؛ إذ قال لنبيه : « فاصبر كما صبر أولو العزم » وقال : « ولا تكن كصاحب الحوت » .

وزعم بعض أن الشيطان استزله حتى ظن أن الله لا يقدر عليه ، وهو قول منكر .

ولبث في بطن الحوت عشرين يوماً بلياليها .

وقيل : سبعة أيام .

وقيل : ثلاثة .

وقيل : أربع ساعات .

وقيل : إن الحوت ذهب حتى بلغ تخوم الأرض السابعة . وتاب إلى الله ، وراجع نفسه في بطن الحوت .

وروى أنه طال عليه تكذيبهم ، فأوحى الله إليه : أن العذاب يأتيهم يوم كذا وكذا . فلما دنا الوقت تنحى عنهم . ولما كان قبل الوقت بيوم ، جعل يطوف بالمدينة يبكى ويقول : يأتيكم العذاب غداً ، فسمعه رجل فانطلق إلى الملك ، فأخبره أنه سمع يونس يبكى ، ويقول كذا .

فدعا الملك قومه ، وأخبرهم . فقال : إن كان هذا حقاً فسيأتيكم غداً . فاجتمعوا حتى ننظر . وخرجوا غداً ، فنظروا فإذا بظلمة وريح شديدة أقبلتا ، فعرفوا الحق ، ولبسوا الشعر ، وجعلوا التراب والرماد على رءوسهم تواضعاً لله وتضرعاً ، وبكوا وآمنوا . فصرف الله عنهم العذاب . فاشترط بعضهم على بعض : ألا يكذب أحد كذبة إلا قطعنا لسانه .

فجاء يونس من البلد، فنظر فإذا للدنيبة على حالها، والناس داخلون وخارجون فقال: كيف أقدم بوجه كاذب.

فأتى إلى ساحل البحر، فمرت سفينة، فأشار إليهم، فحملوه وهم لا يعرفونه فهم في ناحية منها فرقد، فما مضـوا إلا قليلا حتى جاءتهم ريح كادت السفينة تغرق.

فاجتمعوا فقالوا: أيقظوا الرجل ليدعوا معنا فأيقظوه. فدعا معهم، فرفع الله تلك الريح، وعاد لمكانه فعادت الريح، فكادت السفينة تهلك، فأيقظوه فدعوا فزالت الريح فتفكر فقال: هذا من خطيئتي.

فقال لهم: شدوني وثاقا، وألقوني في البحر فقالوا: لا نفعل، وحالك ما نرى، ولكن نقترع. ففعلوا، فجاءت له، وقالوا: لا حتى نعيد، فأعادوا فجاءت له.

فانطلق إلى صدر السفينة ليلقي نفسه، فإذا بحوت فاتح فاه. فانطلق لجانب آخر، فإذا فيه الحوت، فألقى نفسه. فأوحى الله: إني لم أجعله لك رزقا، بل جعلت بطنك له سجنا، فلا تكسرن له عظما، ولا تقطعن له شعرا، فبقي في بطنه.

قال الشيخ هود: أربعين ليلة.

(فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ) مخففة من الثقيلة، اى بأن أو تفسيرية (لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فى ذهابى من غير أن تأمرنى به أو فى عضبى لنفسى أن اسمى كاذبا.

والمراد بالظلمات: الظلمات المتكاثفة فى بطن الحوت.

وقيل : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر .

وقيل : بلع حوته حوتا أكبر منه ، فهو فى ظلمتى بطن الحوتين ، وظلمة البحر .

وعنه ﷺ : دعوة أخى ذى النون : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ما دعا بها مؤمن ، أو قال : مسلم ، إلا استجيب له .

وعنه ﷺ : أيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة ، فمات فى مرضه أعطى أجر شهيد ، وإن برئ ، برئ وقد غفر له جميع ذنوبه

ومصداق عموم بركة هذا الدعاء لكل مسلم دعا به : « وكذلك ننجى المؤمنين » كما روى عنه ﷺ .

وروى أنه هوى به الحوت إلى مسكنه أسفل البحر ، وسمع يونس فيه حسًّا فقال فى نفسه : ما هذا ؟

فأوحى الله إليه : هذا تسبيح دواب البحر ، فسبح هو بالدعا المذكور .

فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة ، وفى رواية : صوتا معروفا فى مكان مجهول .

فقال : ذلك عبدى يونس ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت .

فقالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟

قال : نعم . فشفعوا له عند ذلك .

وروى أنه سجد فى بطن الحوت ، حين سمع تسبيح الحوت .

ورأى بعضهم النبى ﷺ فى النوم . فقال : يا رسول الله لى حاجة إلى الله ، فبماذا أتوسل إليه ؟

فقال : مَن كانت له حاجة إلى الله تعالى فليتوضأ ، وليسجد وليقل فى سجوده أربعين مرة ، ويشير بأصبعه : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإنه يستجيب دعوته .

وعنه ﷺ : اسم الله عز وجل الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سُئِل أعطى : دعوة يونس بن مَتَّى .

وقالوا : مَن كتبها فى جلد ظبى وعلّقها فى وسطه ونام ، فإنه لا يستيقظ حتى يقلع هذه الكتاب . وهذا يصلح لمن طال سهره لفكرة وخوف ، أو نحوهما .

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) كالنص فى أن سبب استجابته دعاؤه المذكور .

قال الحسن : والله ما نجّاه إلا إقراره بالظلم على نفسه . وأما ما تقدم من شفاعة الملائكة ، فمداها أنها سبب لتأثير دعائه فى الإجابة ، أو شفعوا ولم يُشَفَّعوا ، بل نجّاه الله بدعائه .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) غم الالتقام ، أو غم الخطيئة نجّاه بأن أمر الحوت ، فقذفه فى الساحل كالصبى ، فأصابته حرارة الشمس . فأنبت عليه شجرة من يقطين فنام فاستيقظ وقد يبست فحزن .

فأوحى الله إليه بلسان جبريل عليه السلام : حزنت على الشجرة ، ولم تحزن على مائة ألف أو أزيد . فانطلق إليهم . فقال للراعى : اسقنى لبناً .

فقال : ما ها هنا شاة لبن ، فمسح بيده على ظهر واحدة فدرّت . فشرب من لبنها .

فقال له الراعى : مَن أنت يا عبد الله ؟

قال : أنا يونس .

فانطلق إلى قومه فبشرهم ، فأخذوه وجاءوا به إلى الموضع لم يجدوه . فقالوا : شرطنا لربنا أن لا يكذب هذا أحد إلا قطعنا لسانه . فتكلمت الشاة بإذن الله عز وجل . فقالت : قد شرب من لبني . فقالت الشجرة : قد استظل بي . فطلبوه فأصابوه ، فكان معهم حتى مات في مدينتهم نِينَوَى ، من أرض الموصل على دِجلة .

وروى أنه ألقى نفسه في دِجلة وأنها البحر ، وأن الحوت ذهب به إلى البحر الكبير ، ثم رجع فألقاه بساحل دجلة . ونسبت هذه الرواية لابن عباس

(وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) من غمهم إذا استغاثوا بنا . هي في مصاحفنا مكتوبة النون الثانية حمراء إشارة إلى إخفائها وفي مصحف عثمان نجى بنون واحدة وجيم مشددة وياء ساكنة . وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر .

قال الشيخ خالد : هي قراءة عاصم وابن عامر . أصله ننجى بنونين ، حذفت الثانية تخفيفا للتكرار ، فإنه ولو اختلفت الحركة لكن الحرفان واحد ، والضمة دليل على أن المحذوف الثانية ، وبها حصل التكرار ، فهي أحق بالحذف ولو كانت أصلا ، وهي فاء الكلمة ، والإدغام متعذر . ولم تحذف تاء في تتجى في للبس .

وقيل : هو في قراءتهما ماض مبني للمفعول ، وأنه لا حذف ، وأن النائب ضمير المصدر .

ورده أن ياء الماضي الأخيرة لا تسكن وصلا وسعة ، وإنما يخفف آخره بالإسكان في الشعر ، أو يسكن وقفا ، وأن المصدر لا يسند إليه مع وجود المفعول به ، على الصحيح .

وإن قلت : لو كان كذلك لقيل : نجيت بالماء ؛ لأن المصدر الذي رجع إليه الضمير التنجية .

قلت : جى من نجا بنجو ، ضعّفت عينه ، وبنى للمفعول ، ورجع الضمير للنجاء . قاله ابن هشام .

وأجيب بأن ذلك الإسكان لغة قرأ بها الأعمش : « نَخْشَىْ ولم نجد » والحسن : « مابقىْ من الربا » وأنه قد ينوب غير المفعول به مع وجوده .

ورُدّ أيضاً : بأن ضمير المصدر إذا كان مفهوما من الفعل لا ينوب .

وأجيب بورود نيابته فى : « وحِيلَ بينهم » .

قال هو والشيخ خالد : وقيل : الأصل : ننجى بسكون النون ، أدغمت فى الجيم ، كإجّاصة : واحدة الإجّاص ، وإجّانة : قصرية يغسل ويعجن فيها . يقال : إنجاصة وإنجانة ، لغة يمانية أنكرها الأكثرون .

قال : وإدغام النون لا يكاد يعرف .

قال الشيخ خالد : لأن النون تخفى عند الجيم ولا تدغم .

وقرئ ننجى بنونين والتشديد .

وزعم بعضهم أن هذه الواقعة كانت قبل نبوة يونس — عليه السلام — جوابا عما نسب إلى نفسه من الظلم .

قلت : قد مر معنى ظلمه ، ومثله يجوز صدوره من الأنبياء .

والحق أن النبى معصوم من الكبيرة ، قبل النبوة وبعدها .

قالوا : « وذا النون — إلى خاشعين » لزوال الهم والكيد وضيق الأسباب .

وروى : من ضاقت حاجته دنيوية ، أو أخروية ، فليرجع إلى الله ويتبْ ، ويستغفرْ ، سبعين مرة ، ويصَلِّ على النبى ﷺ كذلك ، ثم يتوضأ ويُصَلِّ

ركعتين بالفاتحة وغيرها فإذا سلم استغفر وصلى - كما مر - وقرأ: « قال لهم الناس إن الناس - إلى - الوكيل » « وأيوبَ إذ نادى - إلى العابدين » « وذا النون - إلى - المؤمنين » و « فستذكرون ما أقول - إلى - العذاب » و « فإن تولوا فقل حسبي الله » الخ وسأل حاجته

وقالوا : من أصابه همٌّ فليكتب في قرطاس ويُلقِه في الماء الجاري : بسم الله الرحمن الرحيم : من العبد الذليل إلى المولى الجليل . رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . اللهم بحرمة محمد ﷺ اكشف ضري وهمي ، وفرِّج غمي وغمي .

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ) يا رب . (لَا تَذَرْنِي) لا تتركني . (فَرْدًا) بلا ولد يرثني . والجملة مفعول القول محذوف ، أي بقوله : « رب لا تذرني فردا » أو قال : رب لا تذرني .

(وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) رد أمره مستسلما إلى الله كأنه قال : إن لم ترزقني ولداً فلا أبالي به ؛ فإنك خير الوارثين .

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) أي فجعلنا له ولداً يسمى يحيى ، وأصلحنا رحم امرأته للولادة بعد ، أي جعلناها وَلُوداً ، بعد أن كانت عقيما .

وقيل : إصلاحها : تحسين خُلقها ، وقد كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ولا بُعد في إرادة الكل

(إِنَّهُمْ) أي من ذُكر من الأنبياء

(كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) في الطاعات يدخلون فيها بسرعة ومسارعة أو « في » بمعنى « إلى » وذلك إشارة إلى أنهم استحقوا إجابة دعائهم ، لمبادرتهم إلى أبواب الخير .

وقيل : الضمير لزكريا - عليه السلام - وزوجه ويحيى .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً) فى رحمتنا ، أو طاعتنا .

(وَرَهَباً) من عذابنا ، أو معصيتنا .

وقرئ بإسكان الغين والهاء ، وهما مفعولان مطلقان ليدعوننا ، مضمناً معنى الرغبة فى رحمتنا والرهبة من عذابنا ، أو حالان مبالغة ؛ أو تقديرهما بالوصف ، أو بتقدير مضاف .

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) متواضعين فى عبادتهم ، وسائر أحوالهم .

قيل : الخشوع : الخوف اللازم للقلب ، حتى إن صاحبه يحذر ، ولا يدخل فى الأمور ، خوفَ الوقوع فى الإثم .

وعن المجاهد : الخشوع : تذلل القلوب لعلام الغيوب .

قيل : من خشع قلبه لم يقربه الشيطان .

وعن بعض : إن الخشوع أن يفعل الخير إذا أرخى ستره وأغلق بابه ، لا أن يأكل خشناً ، ويلبس خشناً ، ويطأطئ رأسه .

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ) حفظت (فَرْجَهَا) عن الحرام و الحلال ، وهى مريم . والعطف على المنصوب ، أو التى مفعول به لمحذوف ، أى واذكر . وذلك مدح وتمهيد لولادة عيسى - عليه السلام - من غير أب .

وزعم بعض أن الفرج هنا هو فرج ثوبها ، وأنه مذهب الجمهور .

(فَنَفَخْنَا فِيهَا) متعلق بنفخنا ، فإن النفخ واقع فيها ، فصار منه عيسى ، أو بمحذوف حال من محذوف ، أى نفخنا فى عيسى ، وهو فيها . وهذا بناء على أن عيسى كان شيئاً فيها قبل النفخ ، مثل النطفة المجتمعة منها .

ويجوز تعليق فيها بنفخنا على تقدير : فى عيسى . ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت فى بيت فلان ، أى نفخت فى المزمار فى بيته .

(مِنْ رُوحِنَا) أى من الروح الذى هو ملك ومخلوق لنا ، أى ألقينا فيها الروح بلا واسطة ، أو للمعنى : أمرنا جبريل بالنفخ فيها، أن ينفخ من الروح الذى هو ملكنا ومخلوقنا ، فأسند النفخ إلى نفسه ؛ لأنه الآمر به ، والقاضى به ، أو المراد بالروح : جبريل ، أى نفخنا فيها ، من جهة جبريل ، أى بواسطته . والإضافة على كل للتشريف .

(وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) الإنس والجن والملائكة ، إذ ولدته من غير فحل ، ولم يقل : آيتين ؛ لأن الآية واحدة ، وهى قصتهما التى هى ولادته من غير فحل ، فيقدر مضاف ، أى جعلنا قصتها وقصة ابنها .

وإن قلت : فقد قدرت قصتين ، فهل قيل : آيتين ؟

قلت : هما قصة واحدة . وإنما قدرت القصة الثانية ؛ لئلا يقع العطف على المتصل المجرور بلا إعادة الجار . وهذا كما تقول : بينى وبين بكر .

(إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) هذه إشارة إلى ملة الإسلام .

والأمة : الدين ، وأمة حال لازمة مؤكدة ، وصاحبها أمتكم . والإضافة إشعار بأنه يجب أن تكونوا عليها ، وهى لا تختلف بين الأنبياء . وهذا خطاب للناس .

ويجوز اتصاله بقصة مريم ؛ فإنها داولى للملة واتحادها . ويجوز كون صاحب الحال هذه .

وقرأ الحسن بنصب أمتكم ، على الإبدال من هذه ، أو المفعولية لأعنى أو أمدح محذوفا ، وبرفع أمة واحدة على الإخبار .

وقرئ برفعهما على الإخبار المتعدد ، أو الثانى خبر لمحذوف ، أى هى أمة .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) وحدونى وأطيعونى ، والخطاب للناس ، وإن قلنا باتصال ذلك بالقصة .

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) أى تقطع بعض المخاطبين أمر دينهم ، متخالفين فيه . وهم طوائف اليهود والنصارى ، افترقت اليهود على سبعين فرقة ، وكذا النصارى ، كل فى النار إلا واحدة ، وافترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين ، كل فى النار إلا واحدة .

وروى : كل فى الجنة إلا واحدة .

والأصل : فتقطعتم أمركم بينكم ، نقل الكلام من الخطاب للغيبة ، وفى ذلك تقبيح افتراق هؤلاء إلى من سواهم ، وهو فائدة الالتفات ، كأنه قال : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا فى دين الله ، جعلوا أمر دينهم قطعا ، كما توزع الجماعة شيئاً وتفرقه ، يكون لكل واحد نصيب ، وذلك تمثيل لاختلافهم وصيرورتهم فرقا .

قال أبو البقاء : نصب الأمر على تقدير : « فى » أو هو مفعول لتقطعوا بمعنى قطعوا ، أى فرقوا أمرهم ، فكل يلمز آخر

(كُلٌّ) من المتقطعين (إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) فنجازيهم بأعمالهم .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وأما الكافر فعمله باطل محبط . (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) لا يجحد سعيه ، ولا يضيع ، بل يجازى به .

وأصل الشكر : الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف أو الإحسان بغير اللسان بما أولاه ؛ والكفر عكسه . ومعنى ذلك الشكر فى حقه تعالى محال ، ولكنه يستعمل بمعنى الإعطاء مجازاة .

فالكفران هنا : عبارة عن عدم الإعطاء ، ونفاه بلا للتبرئة توكيداً ، وزاد التوكيد بلفظ الكفران ، وكان يكفى أن يقال : لا كفر .

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) آمرون الحفظة بكتابته ، تأكيد لعدم الكفران .

(وَحَرَامٌ) . قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وحِرْم بكسر الحاء وإسكان الراء .

وقرئ وحرم بفتح وإسكان . وروبت القراءة الثانية أيضاً عن ابن عباس وحفص عن عاصم ، وهو مصدر في الثانية والثالثة بمعنى الوصف .

وقيل : وصف . وكذا الأولى ، قولان فيها .

(عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) أردنا إهلاك أهلها ، أو قدرنا إهلاكهم وأهلكناهم ، أو وجدناهم هالكين بإهلاكنا .

(أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) وحرام بمعنى ممتنع خبر ، وأنهم لا مبتدأ ، أى عدم رجوعهم إلينا يوم القيامة للجزاء ممتنع ف « لا » نافية ، أو حرام بمعنى حتم وجزم ، أى عدم رجوعهم إلى الدنيا ، أو إلى التوبة ، قبل موتهم ، فرض محتوم ف « لا » نافية كذلك .

ويجوز أن يكون حرام بمعنى ممتنع ، و « لا » زائدة ، أى رجوعهم إلى الدنيا أو إلى التوبة في حياتهم ممتنع .

ويضعف كون « حرام » مبتدأ « وأنهم لا يرجعون » فاعله ، أغنى عن الخبر لأنه لم يتقدم استفهام ، أو نفي .

ويضعف كونه مبتدأ خبره : توبتهم ، أو حياتهم ، أو عدم بعثهم محذوفا ، لأن حرام وصف ، أو في معناه ، فحقه أن يكون خبرا لا مبتدأ ؛ لأنه مجرد من أل ويجوز كونه خبراً لمحذوف ، أى السعى الحسن أو العمل الصالح حرام عليهم ، وأنهم لا يرجعون تعليل ، أى لأنهم لا يرجعون إلى الدنيا .

ويؤيد هذا أن بعضا قرأ بكسر الهمزة فلا يكون خبرا لما قبله ، ولا مبتدأ له ، ولا فاعلا ، بل مستأنف للتعليل .

ولما كان الشيء الممتنع كالشيء المحرم دهانة ، كانت العرب تعبر بالحرام عن الممتنع ، بجامع عدم الوقوع .

وذكر ابن هشام ذلك إلا قليلا منه. وقال: إنه إذا جُعل حرام خبراً لأنهم لايرجعون ، فهو واجب للتقديم ؛ لأن المبتدأ أن وصلتها . وأجاز كون حرام مبتدأ خبره محذوف ، أى قبول أعمالهم . وسوغ الابتداء به : تقييده بعلى قرية ، وأنهم لايرجعون تمايلا .

وغالب ما ذكرته إنما ظهر لى - والحمد لله - ظهوراً ، ثم رأيته منصوصة لابن هشام .

وقوله : « والتى أحصنت - إلى - راجعون » لحفظ ولد الحامل ، والإعانة على الولادة . ويكتب ذلك ويعلق على الحامل ، أول مايفطن بحملها ، أربعين يوما ، ثم ينزع إلى شهر الولادة ، ويعلق عليها . وإذا ولد ، علق فى عنقه ، فتسهل ولادته ويدنجب .

(حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) حتى حرف ابتداء لإجازته على الصحيح وهى راجعة إلى حرام ، أو إلى « لا يرجعون » أو إلى محذوف دل عليه ذلك . وفيها غاية ، وهو مرادى بقولى : راجعة إلى حرام الخ ، أى هى غاية لقوله : حرام ، أى يدوم الإهلاك ، أو عدم الرجوع إلى ذلك الوقت . فإذا كان ذلك الوقت ، وقامت القيامة رجعوا .

وقرئ يأجوج ومأجوج بالهمز .

وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد للتاء .

ويأجوج ومأجوج : قبيلتان ، والاسمان أعجميان ، ويقدر مضاف ، أى فتح سد يأجوج ومأجوج ، وهما تسعة أجزاء : يأجوج ، ومأجوج ، وسائر الناس جزء .

وروى أن يأجوج ومأجوج كل يوم يشرفون على فتح السد .

روى : حتى إنه لَيُرَى ضوء الشمس ، فيقولون : غداً نفتح ، أو يقوله رئيسهم ولا يقولون : إن شاء الله ، وإذا كان الغد وجدوه مردوداً كما كان . وإذا أمر الله بفتحه ألقى على لسان أحدهم أو كبيرهم : غداً نفتحه - إن شاء الله - فيجدونه غير مردود فيفتحونه .

قال الإمام القرطبي : كلما حفروه وجدوه من الغد أقوى مما كان . وإذا خرجوا تحصن الناس منهم فى حصونهم ، ويرمون بسهامهم إلى السماء ، فيرجع عليهم الدم فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وغلبنا أهل السماء ، فيبعث الله نَغَفاً فى رقابهم فيقتلهم .

وروى : فى أقفائهم . والنَّغَف : دواب . قال ﷺ : والذى نفسى بيده إن دواب الأرض تَشْكَرُ شَكَرًا من لحومهم ، أى تَسْمَن . قال كعب : إنهم ينقرون السد بمناقرهم . والظاهر أن المراد معاقر حديد يخدمون بها لا مناقر فى أفواههم .

قال : وإذا خرجوا أتى أولهم الحيرة أو وسطهم فيلحسون الطين ويأتى آخرهم فيقولون : قد كان هنا ماء . وإذا قتلهم النَّغَف نتنت الأرض من لحومهم ، ثم يبعث الله عليهم طيرا تلقيهم فى البحر ، فيرسل الله السماء أربعين يوما فتنبت الأرض ، حتى إن الرمانة تُشْبِع السكن . قيل: وما السكن ؟ قال: أهل البيت .

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون كما قال الله تعالى .

(وَهُمْ) اى يأجوج ومأجوج .

(مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) ما ارتفع من الأرض

وقرأ ابن عباس : جدث أى قبر وبنو تميم يسمون القبر جدثاً .

(يَنْسِلُونَ) يسرعون .

وقرئ بضم السين .

وقيل : الضميران للناس ، يخرجون من قبورهم . ونص قراءة ابن عباس جدث وهى أيضاً قراءة ابن مسعود والصحيح الأول ، للحديث المذكور . وتمامه : أنهم يمتون الأرض ، ويتحصن المسلمون فى مدنهم مع مواشيهم ، حتى إنهم ليمرون بالنهر ، فلا يذرون فيه قطرة الخ ما مر ، فيهزون حرابهم نحو السماء فترجع بدم ، ويرمون بالسهام فترجع به . فيقولون : قد قتلنا أهل الأرض زاد فيه : فيموتون موت الجراد بعض على بعض بدواب ، كنغف الجراد ، فيصبح المسلمون لايسمعون حساً ، فيقولون : مَن يشرى نفسه وينظر ما فعلوا فيخرج واحد وقد وطن نفسه على الموت فيجدهم موتى ، فينادى : أبشروا فقد هلك عدوكم ، فيخرجون ويخلون سبيل مواشيهم . فما يكون لهم رعى إلا لحومهم ، فتَشْكَرُ كأحسن ما شَكَرَتْ من نبات أصابته .

وفى الحديث دليل على جواز إطعام النجس للدابة ، أو على جواز تركها والشىء النجس .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى . فتذاكروا الساعة فسألوا إبراهيم عنها ، ولم يكن عنده علم شىء منها ، ثم موسى كذلك ، ثم عيسى فقال : قد عهد إلىّ فيما دون وَجْبَتِها . فذكر خروج الدجال ، وأنه يقتله هو ، فيرجع الناس إلى بلادهم . فيستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فلا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا بشىء إلا أفسدوه ،

فيجأر الناس إلى الله . فأدعو الله فيميتهم ، فتنتن الأرض من ريحهم . فيجأرون إليه ، فأدعوه ، فيرسل السماء بالماء يلقيهم في البحر ، ثم ينسف الجبال ، وتمد الأرض كالأديم ، والساعة حينئذ كالحامل تضع ليلها أو نهارها ، كما قال الله تعالى :

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) القيامة . قال حذيفة : لو أن رجلا اقتنى فِلْوًا ، بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لم يركبه حتى تقوم الساعة ، يعني مُهْراً .

وعن النواس بن سمعان : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، يعني خفض الصوت ورفعه ، من شدة ما تكلم فيه ، أو هونه وقبحه وعظّم فتنته . ثم قال : غير الدجال أخوفني عليكم إن خرج الدجال وأنا فيكم فأنا حجيجه ، وإلا فالله خليفة كل مسلم إنه أعور ، وعينه طافية كعنبة . فاقرأوا عليه فواتح الكهف . ويخرج بين الشام والعراق ، يفسد يمينا وشمالا يا عباد الله اثبتوا ، ولبثه في الأرض . أربعون يوما يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم .

قالوا : ويُصلّى في تلك الأيام الكبار قدر صلوات ما فيها من الأيام المعتادة . ويسرع كغيث استدبرته الريح فيؤمن الناس به . يأمر السماء فتمطر ، والأرضَ فتنبت ، فتكون هي ودوابهم أحسن ما كانت . وتتبعه أموال الناس ، ويمر بالخربة ، ويقول : أخرجي كنزك فيتبعه . ويضرب شابا ، ويقطعه نصفين ، ويدعوه فيقبل ضاحكا ، فيبعث الله عيسى ، عند المنارة البيضاء ، شرقي دمشق بين مهرودتين — بإهمال الدال وإعجامها — أي شقتين ، أو حُلّتين ، أو ثوبي زعفران . أقوال واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكين . إذا طأطأ رأسه قَطَر ، وإذا رفعه تحدّر منه كجُمان اللؤلؤ . وكل كافر وجد ريح نفسه مات ، ونَفَسُه ينتهي حيث

ينتهى طَرْفُهُ . ويقتل الدجال ، ويمسح وجوه قوم عصمهم الله ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة .

ثم يوحى الله إليه : إنى قد أخرجت عبادا لى لا طاقة لأحد بقتالهم ، فأحرز عبادى إلى الطور . فيخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، يمر أوائلهم ببحيرة طبرية ، فيشربون مافيها ، فيمر آخرهم ، ويقول : لقد كان هنا ماء ، ويكون رأس الثور يومئذ خيرا من مائة دينار ، فيرغب هو ومن معه من المؤمنين إلى الله ، فيرسل عليهم النَّغَفَ فى رقابهم، فيصبحون فَرْسَىٰ ، أى قتلى ، جمع فريس ، كموت نفس واحدة ، فلا يجد الناس فى الأرض موضع شبر إلا ملىء بزَهَمِهم وأجزائهم .

والنَّغَفَ : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم فيرغب نبى الله والمؤمنون ، فيرسل طيرا كأعناق البُخْت ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكون منه بيت مَدَر أو شَعر ، فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة نظافة واستواء ، فتكون الرمانة تكفى للعصابة ولقحة الإبل للقبيلة . ولقحة الغنم الفخذ ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فيقبض روح كل مؤمن . ويبقى شرار الناس ، يتهارجون كتهارج الحُمُر ، فعليهم تقوم الساعة ، ولن تقوم حتى يكون الدخان ، والدجال، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى، ويأجوج و مأجوج ، وخسف بالشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى المحشر . ويأجوج ومأجوج كلهم لجهنم . صنف كشبر ، وصنف كشبرين ، وصنف طوله وعرضه سواء ، وصنف كالإبهام ، وصنف كالنخلة السحوق . وهم من ولد يافث بن نوح

ويأجوج ومأجوج أمتان ، في كل أمة أربع مائة ألف أمة ، ليس منها أمة يشبه بعضها بعضاً .

وعن الأوزاعى : أنه قال : الأرض سبعة أجزاء : ستة يأجوج ومأجوج ، وجزء سائر الخلق .

وعن قتادة : أرض غير يأجوج ومأجوج ، اثنا عشر فرسخا للهند والسند وثمانية آلاف للصين ، وثلاثة آلاف للروم ، وألف فرسخ للعرب .

وأشد يأجوج ومأجوج مَن عَرْضُه كطوله ، ومنهم مَن طوله مائة وعشرون ذراعا ، لا يقوم لهم جبل ولا حديد . ومنهم من يفرش أذنه ، ويتغطى بالأخرى . ولا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه ، ويأكلون من مات منهم ، ووعاء الولد . مقدمتهم بالشام ، وساقتهم بخراسان ، ويشربون ماء المشرق ، ويمنعون من مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويأكلون كل ما فيه روح . وليس في خلق الله من ينمو ويكثر مثلهم ، يتداعون كالحمام ، ويعوون كالذئاب ويتنا كحون حيث التقوا ، ومنهم من له قَرن وذَنَب وأنياب بارزة ، يأكلون اللحم بلا طبخ ولا شوى ، ومنهم من طوله أربعة أذرع ، ومن عرضه أربعة أذرع ، أكثر من طوله ، ولبعضهم مخالب .

وعن على : لهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وآذان عظام ، إحداها وبرة يشتون فيها ، والأخرى جلدة يصيفون فيها .

وعن كعب : احتلم آدم ، فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا منه . قال الأندلسيون : هذا لا يصح ، لأن الأنبياء لا تحلم .

وإذا خرجوا عمُّوا الأرض حتى لا يجد الطائر أين يضع أفراخه .

وروى : أنهم يأتون بيت المقدس ، ويرمون المؤمنين بالنبل ، حتى يعمل

الظل فوقهم ، ويدعو عيسى ويؤمّن المهدى والمسلمون ، فيهلكون بريح عاصف ، تخرج لهم بها خرّاجات فى مخارجهم .

وعن ابن عمر : للملائكة تسعة أجزاء : الكروبيون ، وجزء سواهم من الإنس والجن تسعة أجزاء الجن ، وجزء الإنس تسعة يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس .

وفى الحديث : تسع مائة وتسعة وتسعون إنسانا إلى النار تعد فيهم يأجوج ومأجوج كلهم والمشركون ، وواحد إلى الجنة من غيرهم ، بانضمام الدعوة . قوله : ليلة الإسراء ، ولم يؤمنوا ، ولا يموت واحد حتى يخلف ألف ولد حمل السلاح ، وكل صنف منهم نشأ منهم .

وروى : أنهم مائة ألف أمة ، لا تشبه أمة أمة

وقال قتادة : اثنتان وعشرون قبيلة . فشدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين ، والقبيلة الأخرى غازية . وهم الترك ، سموا لأنهم تركوا .

وقال الأوزاعى : هما أمتان ، كل أمة أربعمائة ألف .

وقال ابن عمر : ثلاث أمم لا يحصيهم إلا الله : تاويل ، وتارس ، ومنسك ، وإذا خرجوا شربوا ماء البحار العذب والمالح كلها .

وروى : أن الريح التى يهلكهم الله بها يمنية من تحت العرش ، ويحج البيت ويعتمر بعد موتهم .

(فإذا) الفاء عاطفة ، أو زائدة ، أو مستأنفة ، أو سببية مجردة عن العطف أقوال فيها . وقيل : إذا الفجائية ، ويجوز كونها رابطة لشرط محذوف ، أى إذا وقع الوعد ، وإذا بعدها للمفاجأة ، مؤكدة للربط إذا جعلت الفاء رابطة .

(هِيَ) ضمير القصة عند سيبويه (شَاخِصَةٌ) خبر مقدم ، أى محدقة النظر دون أن تطرف . وذلك يكون لنحو الخوف المفرط ، والهول المذهل .

(أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أبصار مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ضمير القصة لا تحتاج لرابط؛ لأنها نفسه معنى.

وأجاز الفراء كون هي ضمير المبهم في الذهن، توضحه الأبصار، وكون الشخوص فعلا للأبصار. وعليه فشاخصة مبتدأ، وأبصار خبر. والجملة خبره - كما مر - أو شاخصة خبر، وأبصار فاعل شاخصة. وابن هشام على الأول.

قال: وأجاز الكوفيون والأخفش تفسير ضمير الشأن بمفرد، وعليه فيجوز كون شاخصة خبرا لهي مع أنه ضمير القصة (يَا وَيْلَنَا) أي يقولون: يا ويلنا؟ أو قائلين: يا ويلنا. وصاحب الحال التي هي يقولون، أو قائلين هو الذين ولو كان مضافا إليه؛ لأن المضاف جزؤه.

(قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) أي من هذا اليوم.

(بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) أنفسنا بتكذيب الرسل، وعبدنا من لم يتأهل للعبادة.

(إِنَّكُمْ) يا أهل مكة (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الأصنام وإبليس وإخوته.

(حَصَبُ جَهَنَّمَ) ما يرمى به إليها، وتهيج به، من حصبه حصبا بسكون صاد للصدر، أي رماه بالحصباء.

وقرئ حصْب جهنم بالإسكان، جعلوا مبالغة نفسَ الحصب، أو يقدر مضاف أو يؤول باسم مفعول، أي محصوبها، أي ما تحصب به.

وقرئ حضب بالإعجام مفتوحا ومسكنا.

وقرأ أبي حطب، بالطاء المهملة.

وعده ﷺ : الشمس والقمر في النار . قال بعضهم : ألستم تقرؤون : إنكم وما تعبدون الخ ؟

روى أنه ﷺ دخل المسجد ، وصناديد قريش في الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجلس إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه ﷺ ، فأفحمه ، وتلا : « إنكم وما تعبدون » الخ وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى فرجدهم يتهامسون . فقال : فيم خوضكم ؟

فأخبره الوليد بن المغيرة ، بقوله ﷺ . فقال : أمَا والله لو وجدته لخصمته فدعوه .

فقال له : أأنتَ قلت ذلك ؟

قال : نعم .

قال : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عزيرا ؟ والنصارى عيسى ؟ وبنو مُدْلِج الملائكة ؟ .

فقال ﷺ : بل عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ، وإنك جاهل بلغة قومك فإن « ما » لغير العقلاء إلا بقرينة ، وهذا دليل على أن ماتعبدون مراد به غير العقلاء ، وأيضاً الخطاب لكم ، وأنتم تعبدون الأصنام ، وأن المراد هذه الأصنام الحاضرة ويقاس عليها غيرها قياساً . ونزل : « إن الذين سبقت لهم » الخ ، وهم عيسى وعزير وغيرهما ممن لم يُعبد ، وأما الملائكة فيفهم إبعادهم عنها بالأولى .

قيل : يجوز أن يراد العقلاء فيكون الجواب ، بأن الذين سبقت الخ دليل على ذلك ، وعلى إخراج بعض العقلاء المعبودين .

وقد روى أن ابن الزِّبَعْرَى قال : هذا خاص بآلهتنا أو بكل من عُبِد ؟

فقال ﷺ : لـكل مَن عُبِد فالجواب متأخر عن الخطاب بما ، لتجوز في لفظ « ما » أو للتخصيص ، وسيأتي القصة ـ إن شاء الله

وروى أنه أجاب بالآية بعد ذلك . فقال له : هل لا إذ سألتك قلت ، ولـكن تفكرت إذ خلوت .

قال ابن حجر : الزبعرى بكسر الزاي وفتح الباء وسكون العين المهملة : معناه السيء الخلق ، أو كثير شعر الوجه .

قال : إن عبد الله بن الزِّبَعْرَى هو ابن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعيد بالتصغير ابن سهم من أعيان قريش في الجاهلية ، ومن فحول الشعراء ، وكان يهاجى المسلمين . أسلم عام الفتح ، وحَسُن إسلامه ، وله أشعار يعتذر فيها مما سبق منه ، فهو لم يفهم الخطاب ، وإنما يقرنون بآلهتهم في جهنم ، لزيادة غم ، حيث أصابهم ما أصابهم بها ، والنظر في وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قد رأوا أن يشفعوا ، فإذا رأوهم بتلك الحالة كانوا أبغض شيء إليهم .

(أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) داخلوها (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا) بتخفيف همزة آلهة وإخفائها .

(وَكُلٌّ) من العابدين والمعبودين

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) أصوات توجع أو تنفس ، بعد امتلاء الصدر .

وقيل : الزفير منها حزن لهم

وقيل : المراد أنها ترميهم ، حتى إذا كانوا بأعلاها ، ضُربوا بمقامع الحديد فيهوون سبعين خريفا .

وروى أنهم ينادون مالكا فيذرهم مقدار أربعين عاماً فيجيبهم : « إنكم

ما كنتم » ويدعون الله ، ويذرهم مقدار الدنيا مرتين . فيقول : « اخسئوا فيهــــا » .

وإن قلت : الزفير إنما يكون من العابدين والمعبودين العقلاء ، لا من الأصنام .

قلت : أثبت الزفير الكل ، لأنهم معهم وحكما على المجموع وتغليبا واللبس مأمون ، أو الضمير لمن يكون قابلا للزفير فقط ، أو مايعبدون العقلاء فقط . وكذا الكلام فى نفى السمع فى قوله :

(وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) لشدة غليانها ، أو يصمهم الله كما يعميهم .

وعن ابن مسعود : يجلسون فى توابيت من نار فلا يسمعون ولا يرون شيئاً .

وروى أن تلك التوابيت تجعل فى توابيت أخرى ، وتجعل هذه فى أخرى ومسامير الكل من النار ، ولا يرى أن أحداً يعذب فى النار سواه .

وزعم قومنا أن عدم السمع والجعل فى التابوت مختص بالمشرك .

وقيل : المراد لايسمعون مايسرهم .

وزعم بعض أن تلك ثلاث آيات متصلات نسختهن ثلاث متصلات : « إن الذين سبقت » الخ .

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) المنزلة الحسنى ، والذكر الأحسن . والمراد : عيسى وعزير والمؤمنون . وأما الملائكة فلا يشتهون النعم . وتلك المنزلة الحسنى هى ما لهم فى الجنة ، أو السعادة أو البشرى . وذلك فى الآخرة ، أو التوفيق للطاعة ، أو الوعد بالجنة .

(أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) .

وقيل : المراد بذلك كله من أطاع الله ، وعبد غيره وهو كاره لذلك العبادة .

ويروى أن عليًّا خطب وقرأ الآية . ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ، وهو يتلو قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) . .

الحسيس : الصوت المحسوس .

وقال البخارى : الصوت الخفى .

(وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أى ما طلبت أنفسهم من اللذات ، وتقديم الجار والمجرور للفاصلة والحصر والاهتمام . وجملة « لا يسمعون » بدل من مبعدون ؛ لأنه فى معنى القول ، أو حال من ضمير سبق للمبالغة .

وقوله : « إن الذين ـ إلى ـ كنتم توعدون » لزوال الحمّى وجميع الأمراض تكتب فى إناء طاهر ، وتمحى بماء طاهر ، من بئر لا تراها الشمس ، ثم يسقى منه المريض ثلاث جرع ويرش على ظهره بافيه ، وذلك وقت اشتداد الوجع . يفعل ذلك ثلاث مرات ، يبرأ بإذن الله .

ومَن كتبها فى إناء طاهر ، ومحاها بدهن البابونج ، ودهن به وجع الوسط والركب والظهر ، فينفعه نفعا تاما عظيما ـ إنّ شاء الله .

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) قال ابن عباس : النفخة الأخيرة ، لقوله تعالى : « ويوم ينفخ فى الصور ففزع » الخ .

وقيل : ذبح الموت .

وقال الحسن : بأن يؤمر بالعبد إلى النار .

وقال الضحاك : بالإطباق على النار .

وقيل : بجميع أهوال القيامة

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) على أبواب الجنة .

وقال الحسن : حين الخروج من القبر ، مهنئين قائلين :

(هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) يثيبكم الله فيه .

(يَوْمَ) مفعول به لا ذكر ، أو ظرف ليحزن أو لتتلقاهم ، أو حال من يومكم أو من مفعول توعدون المحذوف ، وهو على الحالية غير ظرف .

(نَطْوِى السَّمَاء) الطى : ضد النشر . قيل : والمراد المحو كقولك : اطو عنى هذا الحديث . وإنما طويت لأنها نشرت مظلة للخلق ، ونافعة بالإضاءة والاعتبار وغير ذلك ، فإذا زالوا زالت . والمراد : السموات . فأل للاستغراق . ولك أن تقول : هو جمع سماءة . وكذا فى مثل هذا المقام . ذكره الشيخ أحمد فى شرح العقيدة .

وقرئ يطوى السماء بالمثناة التحتية ، والفاعل ضمير الله .

وقرأ أبو جعفر تطوى ، بالمثناة الفوقية ، والبناء للمفعول ، ورفع السماء .

وقرئ بالتحتية والبناء للمفعول .

(كَطَىِّ السِّجِلِّ) وقرئ السجل بضم السين والجيم .

وقرئ بفتح السين وإسكان الجيم ، وبكسر السين وإسكان الجيم ، وهو اسم ملك يطوى كتب الأعمال إذا رفعت إليه .

(لِلْكِتَابِ) صحيفة ابن آدم عند موته . وقيل : اسم ملك يكتب أعمال العبد إذا رفعت إليه .

وروى أبو داود - وهو من علماء الأندلس - أنه اسم كاتب للنبى ﷺ .

قال السهيلى : هذا غير معروف . وعن ابن عباس : هو الصحيفة . وعليه فالكتاب بمعنى ما كتب فيها . واللام بمعنى على . ويدل له قراءة حمزة والكسائى وحفص على الجمع ، بضم الكاف والتاء . كذا قيل .

والحق جواز كون السجل ملكاً أو كاتباً للنبي ﷺ ، فى هذه القراءة ، والإضافة إضافة مصدر لفاعله .

وإن جعلنا السجل : الصحيفة فإضافة مصدر لمفعول

وعلى الأول فاللام لام التقوية فى المفعول به ، أو للتعليل على أن الكتاب مصدر أى من أجل الكتابة ، أو بمعنى ما كتب فى الصحيفة .

ويجوز التعليل أيضا على تفسير السجل بالملك ، أو بالكاتب .

وأخرج ابن أبى مردويه ، من طريق ابن الجوزى ، عن ابن عباس : أن السجل بلغة الحبشة : الرجل .

قال ابن جنى : السجل ، الكتاب قال قوم : فارسى معرّب . وطىّ نعت لمصدر محذوف ، أى طيًّا ثابتًا كطى ، وعلى حرفية الكاف .

ويجوز تعليقها بنطوى وطيًّا مثل طى .

وعن الحسن : تطوى السماء من فوقها ، كما تُطوى الصحيفة من فوقها . فإما أن تشق من فوقها وتُطوى منه ، أو تطوى منثنية ، وإلا نهى كقشرة البصل .

ولعل المراد : الكناية عن مجرد الإزالة ، ولو كان التشبيه بطىّ السجل يضعف ذلك .

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) الكاف كاف كطىّ ، راجعة إلى نعيده ، وما مصدرية ، والهاء لأول ، كما أنشأنا الخلق من عدم ، على غير مثال ، بقدرتنا نعيدهم بعد إعدامهم .

ويجوز كون الكاف مكفوفة ، وما كافة ، وأول مفعول بدأنا ، فقيل : أو مفعول لمحذوف دل عليه نعيده . قيل : أو « ما » اسم موصول ، والكاف متعلق بمحذوف يفسره نعيده ، أى كالذى بدأنا ، وأول خلق ظرف لبدأنا ، أو حال من

ضمير الموصول المحذوف ، والخلق مصدر ، أو بمعنى اسم مفعول ، والتنكير إشارة إلى التفصيل كقولك : هو أول رجل جاءني : تريد أول الرجال ، ولكن نكرت إرادة لتفصيلهم رجلا رجلا .

وفي الآية إعلام بأن قدرته باقية ، كما قدر على الخلق ، يقدر على البعث ، وفيها قياس البعث على الخلق .

(وَعْدًا) مفعول مطلق مؤكد لنعيد ، على حد : قعدت جلوسا ، فإن قوله : « نعيده وعدا » بالإعادة .

(عَلَيْنَا) نعت لوعدا .

ويجوز كون وعدا مصدراً لمحذوف مؤكد ، أي وعدناه وعدا .

وفسر الكلبي الآية : بأن المعنى : نرد الناس نطفا ، ثم عظاما ، ثم لحما ، ثم ينفخ فيهم الروح كما كان ذلك أول ما خلقوا .

وقيل : المعنى : كما خلقناهم حفاة عراة غُرلا ، كذلك نبعثهم .

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : وعظنا النبي ﷺ وقال : يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عراة حفاة غُرْلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده .

والأغرل : من لا سلاح معه .

وقيل : المراد غير مختونين .

وقيل : علينا خبر لمحذوف ، والجملة نعت ، أي علينا إنجازه .

(إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) قادرين على فعل ذلك وغيره .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ) كتاب داود .

(مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) القرآن العظيم . والبعدية رتبية تقول : عيسى بعد سيدنا محمد صلى الله عليهما وسلم . تريد أن شأن سيدنا محمد أسبق وأعظم من شأن سيدنا

عيسى . والبَعدية ذِكرية ، كقول الأستاذ لتلميذه : قد أقرأتك الآجُرُّومية ، بعد الألفية ، وهو قدّم له الآجُرُّوميَّة . كأنه قال : قد أقرأتك الألفية ، وإنى أخبرك بعد ذلك ، أنك قد أقرأتك الآجرومية . أو البَعدية بمعنى الزيادة ، أى زيادة عن الذكر ، وعن الألفية .

وقيل : الذكر : التوراة .

وقيل : جنس ما أنزل الله على الأنبياء . والذكر : اللوح المحفوظ المنسوخة هى منه .

وقيل : الزبور : كتاب داود ، والذكر : التوراة .

وقالت فرقة : الزبور : مابعد التوراة من الكتب ، والذكر : التوراة .

وقال ابن عباس : الزبور : التوراة ، والذكر : ما قبلها .

وإنما صح إطلاق الزبور على غير كتاب داود ؛ لأنه من زَبَرَ يَزْبُرُ ، أى كَتَب .

وقيل : الزبور : كتاب داود ، والذكر : القرآن ، وبَعد بمعنى قبل .

(أَنَّ الْأَرْضَ) أرض الجنة .

وقيل : بلاد الكفّار والقولان عن ابن عباس .

وقيل : الأرض المقدسة .

(يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) أمة محمد ﷺ ، أو الصالحون مطلقاً .

وسكن حمزة ياء عبادى ، وحذفها الساكن .

(إِنَّ فِي هَٰذَا) أى القرآن .

وقيل : المراد فى هذا المذكور من الآيات .

(لَبَلَاغًا) وصولا إلى البغية .

وقيل : كفاية ؛ لما فيه من الأخبار ، والوعد ، والوعيد ، والمواعظ البالغة .

(لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) همتهم العبادة دون العادة .

وقيل : عاملين به .

وقيل : العابدون : المصلون الخمس من هذه الأمة .

وقيل : المراد بهذه العبادة : الصلاة ، والصوم المفروضان .

وعن ابن عباس : العابدون بمعنى العاملين . وأنت خبير أن العلم لا ينفع بلا عمل .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) يا محمد (إِلَّا رَحْمَةً) مفعول لأجله .

(لِلْعَالَمِينَ) الإنس والجن وغيرهما دنيا وأخرى . وذلك أن ماجاء به سبب لإصلاح المعاد والمعيشة ، فهو رحمة ، وإن لم ينتفع به الكافر ؛ فإنه إنما أوتى من قِبَل نفسه وكسلها ، كعين ماء عذب مشترك فيها . فبعض يحرث بها ، ويسقى ، وبعض فرّط . وكان الناس أهل كفر وجهالة . وأهل الكتاب فى حيرة ؛ لوقوع التغيير ، وطول المدة ، فبعث مميزا للحق من الباطل ، ورفع الله به المسخ والخسف والاستئصال ، فهذه نعمة دنيوية ، وقعت للكافر .

وقيل : المراد بالرحمة الرحمة الدينية . والمراد بالعالمين : المؤمنون .

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أى ما يوحى إلىّ إلا أنه لا إله إلا هو . والمقصود الأصلى من بعثه مقصور على التوحيد ، وإنما الأولى لقصر الصفة التى هى الإيحاء على الموصوف ، الذى هو الوحدانية ، والثانية لقصر الموصوف ، الذى هو الإله على الصفة ، التى هى الوحدانية . فالوحدانية صفة وموصوف .

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) مخلصون العبادة لله ، موحدون له ؛ فإن الوحى الوارد على هذه الطريق يوجب أن تخلصوا التوحيد لله ، وأن تخلعوا الأنداد . وفى ذلك دليل على أن صفة الوحدانية ، يصح أن يكون طريقها السمع والاستفهام ، بمعنى الأمر .

ويجوز جعل ما الأولى اسم إنّ ، و « أنما إلهكم إله واحد » خبرها ، فنائب يوحى ضمير ما ، بخلافه على ما مر ، فنائبه المصدر المسبوك مما بعده .

ويجوز جعل الثانية كذلك ، فحذف صدر الصلة ، لطولها بالإضافة ، أى أن الذى هو إلهكم . فإله خبر لأن ، كما كان ـ على ما مر ـ خبراً لإلهكم ، لكن فى ذلك جعل ما للعالم وحده .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) عن التوحيد والإسلام .

(فَقُلْ آذَنْتُكُمْ) أعلمتكم ، من أذن بمعنى علم . دخلت عليه همزة النقل ، لكن كثر استعماله فى الإخبار والإنذار ، أى آذنتكم بما أمرنى ربى ، أو بالحرب ؛ إذ توليتم عن الإسلام والتوحيد .

(عَلَى سَوَاءٍ) حال من الفاعل والمفعول ، أى كائنين على استواء فى الإعلام . أعلمتكم ربى بلسانى ، كما أعلمنى بلسان جبريل ، بما أمرتكم به من التوحيد والإسلام ، أو الحرب ، أو على استواء فى علم ذلك ، ولست مختصا به دونكم ؛ لتتأهبوا . فهو معهم ، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة ، فأحس منهم بغدر ، فنبذ إليهم العهد ، وشهر النبذ ، وأعلمهم جميعا بذلك . والحال مقدرة ؛ فإن الاستواء إنما حصل بعد تمام الإعلام .

ويجوز تعليقه لمحذوف ، ونعت لمصدر محذوف ، أى إيذانا ثابتا على سواء ،

أو حال من الفاعل ، أى أعلمتكم ، وأنا على عدل ، واستقامة رأى بالبرهان ، لا كاذبا

وقدر بعضهم : آذنتكم أنى على سواء .

(وَإِنْ أَدْرِى) أى ما أدرى .

(أَقَرِيبٌ) مبتدأ ، وفاعله المغنى عن الخبر محذوف ، أى ما توعدون ، أو يقدر ضمير منفصل عائد لما .

(أَمْ بَعِيدٌ) مبتدأ (مَا تُوعَدُونَ) فاعل أغناه عن الخبر .

ويجوز كون ما توعدون المذكور فاعلا لقريب ، وفاعل بعيد محذوف . وأولى من ذلك جعل قريب خبرا مقدما ، وبعيد معطوفا عليه ، عطف مفرد على مفرد ، بخلافه على ما سبق ، فعطف جملة على أخرى ، وما مبتدأ مؤخر ، لسلامته من الحذف ولا سيما أن الفاعل على الصحيح لا يحذف ، ولو لدليل ، إلا فى مواضع مخصوصة . نعم يصح التنازع ، فيعمل المهمل فى ضمير ما ، وما فاعل للعامل ، أغنى عن خبره ، لكنْ فى ذلك أيضا إشكال ، ظهر لى بعد ما قلت ذلك ؛ فإن الوصف إنما يرفع ظاهرا أو ضميرا بارزا منفصلا ، يغنى عن خبره ، لا ضميرا ، مستترا .

وإن قيل : إن المهمل عمل فى منفصل محذوف ، فقد علمت أن الفاعل لا يحذف

وأجاز الكسائى حذف الفاعل من المهمل ، إذا كان ضميرا . واطلعت بعد هذا على أن ابن هشام والصبان بحثا فى المسألة كبحثى ذلك ولكنه سُمع : أقائم الزيدان أم قاعدان ؟ بعطف . فقال ابن هشام : قاعدان مبتدأ فيه ضمير مستتر ، مغن عن الخبر ، توسعا فى الثوانى فيجوز مثله فى الآية ، لكنه ضعيف . والذى

توعدون هو غلبة المسلمين عليهم ، من الإيعاد ، أو الوعد ؛ لجواز استعمال الوعد في الشر بقرينة ، أو الذى يوعدون : البعث . والمراد : أنه لا محالة كائن .

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) ما لم تقولوه ، بل أبقيتموه في قلوبكم ، أو ما ذكرتم بإسرار . وإذا كان يعلم سر القول ، فسر الفعل أولى ، بل هما عنده سواء . فقد علم الله أعمالكم وأقوالكم القبيحة ، فيجازيكم بها ، وقد علم أحقادكم على المؤمنين ، فيجازيكم عليها .

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ) ما أدرى لعل ما توعدون ، أو ما أدنتكم ، ولم يعلم وقته اختبار لكم ، كيف تصنعون ؟

وقيل : الضمير لتأخير الجزاء .

وقال الحسن : الضمير لما هم فيه من النعم في الدنيا .

(وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) تمتيع إلى وقت مقدر ، تقتضيه مشيئته ، ويكون الموعد فيه على طريق الحكمة .

والحين : وقت الموت ، أو القيام من القبر . قيل : هذا مقابل لقوله : « فتنة لكم » ولكن لم يسلط عليه الترجى ، وهو مشكل ؛ لأنه إذا عطف على خبر لعل ، فقد سلط عليه إلا إن أريد أنه خبر لمحذوف . والجملة معطوفة على نفس لعل وما بعده .

واعلم أن مجموع لعل ومعموليها سدت مسد مفعولى أدرى . وقد عد ابن هشام « لعلّ » من المعلقات ، في الشذور . وكذا الكلام في : « وإن أدرى » لكن التعليق فيه بالاستفهام .

(قُلْ) يا محمد . وقرأ حفص قال : أى رسول الله ﷺ .

(رَبِّ) يارب بحذف الياء ، والاستغناء عنها بالكسرة ، ولم تحذف للساكن بعدها ، وإلا لثبتت في الخط .

وقرئ بضم الهاء نكرة مقصودة ، أو مضاف للياء ، أبدلت الكسرة ضمة ، بعد حذف الياء ، تشبيها بالنكرة المقصودة .

(احْكُمْ) بينى وبين مكذبى .

(بِالْحَقِّ) أمره الله باستعجال العذاب لقومه . فعذبوا يوم بدر وأُحُد والأحزاب وحُنين والخندق ، ونُصر عليهم .

وفائدة ذكر الحق ، مع أنه تعالى لا يحكم إلا به ، تلويحا إلى معنى احكم بالعدل ، المقتضى لتعجيل العذاب وتشديده ، كقوله ﷺ : اللهم اشدد وطأتك على مُضر .

وعن الحسن أن النبى ﷺ إذا دعا على قومه هلكوا .

وقيل : ذُكر الحق إظهاراً للرغبة .

وقرئ رب أحكِم بفتح الهمزة وكسر الكاف ، من الإحكام ، وهو الضبط والتحفظ فى الأمر .

وقرئ ربى أحكمُ ، بإثبات الياء وفتح الهمزة والكاف وضم الميم . فربى مبتدأ ، وأحكم خبره ، اسم تفضيل .

(وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ) كثير الرحمة .

(الْمُسْتَعَانُ) المطلوب منه المعونة ، خبر ربنا ، والرحمن بدل ربنا ، أو بيان ، أو خبر أول ، أو نعت على أنه صفة .

(عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) أى على ما تصفونه به ، من اتخاذا لصاحبة والولد ، وتصفونى بالسحر وغيره ، والقرآن بالشعر وغيره ، وتصفون أن الشوكة تكون لكم ، وأن راية الإسلام تخفق أياما ثم تسكن ، وأن الموعد به ـ لو كان حقا ـ لنزل ، فكذب الله أمانيهم وأقوالهم ، ونصر رسوله ﷺ

وقرئ بالمثناة التحتية .

وعن قتادة : كان ﷺ إذا شهد قتالا قال : رب احكم بالحق .

اللهم ببركة نبيك محمد ﷺ وبركة السورة أخزى النصارى ، وأهنهم ، واكسر شوكتهم ، وغلّب المسلمين والموحدين عليهم . وصلى الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تمت القطعة العاشرة ، نصفها الأول ، من تفسير القرآن العظيم ، من كلام رب العالمين ، ويتلوها تمام العاشرة التى أولها سورة الحج ، من تصنيف الشيخ العالم الفقيه النّحرير : محمد بن يوسف اليسجنى الأباضى الوهبى المغربى ، أبقاه الله تعالى وزاده علما . آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان تمامها يوم ٢٥ من شهر ربيع الأول فى سنة ١٣١٠ هـ .

ليعلم الناظر فى هذا الكتاب أنه لا بد به من غلط لعدم وجود المصححين من أصل نسخته التى هى بالخط المغربى فلينظر الناظر وليسد خلله ويحسن إن الله يحب المحسنين .